فن التواصل
الزوجي

فن التواصل الزوجي

د. لينة الحمصي

دار البشير للثقافة والعلوم

إلى كل ذكرٍ وأنثى يبحثان عن الحبّ الحلال..

إلى كل خطيبين يطمحان إلى قطفِ ورود الحبِّ وارتشافِ كؤوس العسل..

إلى كلِّ زوجين يتألّمان من لسعات النحل وأشواك الورود..

إلى كلِّ آدم وكلِّ حواء..

أهدي هذا الكتاب..

الدكتورة لينة الحمصي.

يسعدني أن أتقدم عبر هذه السطور القليلة بالشكر الجزيل والمستمرّ لزوجي الغالي، الباحث والمفكر الإسلامي، الأديب الشاعر والصحفيّ الباهر والمهندس الماهر، الدكتور أنور وردة، عسى أن أفيَه بهذا الشكر بعضاً ممّا يستحقّه، على ما يقدّم لي من دعمٍ ومساندةٍ ومساعدةٍ وعطاء.

لينة الحمصي

مقدمة

في جعبة كلٍّ منا قصصٌ كثيرةٌ من تجاربه وتجارب الآخرين، قد يحسن أحدنا الإفادةَ منها عملاً بمبدأ: العاقل من اتَّعظ بغيره..

وقد يتيه عن رؤية وجه الحكمة فيها بسبب انغماسه في معامع الحياة، وافتقاده إلى ركنٍ هادئٍ وزاويةٍ كاشفةٍ يجلس في ظلّها، ليراقب ما يجري حوله من أحداث...

كثيراً ما كنت أسمع المقولة التالية: إذا أردتَ أن ترى كلَّ ما في الصندوق، فاخرجَ منه وانظر إليه من الخارج، وعندها تستطيع أن تدرك الأمور على حقائقها وبكل تفاصيلها ودقائقها، وعندها أيضاً تستطيع أن تتأمّلَ وتستنتج، وتعتبرَ وتتعظ، وربما تغيّرَ وتستدرك.

باختصار، قادتني هذه المقولة إلى التفكير في تخصيص حلقاتٍ من برنامج (همسات) للحديث عن الحياة الزوجية بكل ما تحتويها من متاعبَ وأشواكٍ ومصاعبَ وعثرات، إلى جانب ما فيها من الملذّات والورود والسعادة والهناء..

وقد ضمّنتُ هذه الحلقات تجاربي وتجاربَ الآخرين، وسلّطتُ فيها الضوءَ على طرائقَ عديدةٍ تمكّن كل زوجين من اقتطاف ورود الحياة دون التألّم من أشواكها، ومن ارتشاف رحيق العسل دون التأذي من إبر النحل ولسعاتها...

أثناء وبعد عرض هذه الحلقات على شاشة (الرسالة) الفضائية، وصلتني تعليقاتٌ إيجابيةٌ كثيرةٌ، حملت استحسانَ المشاهدين وحازت على إعجابهم، وتلخَّصت في أنَّ الناس استفادوا من هذه الهمسات..

وشعرتُ بغاية السعادة، لأنَّ الله تعالى وفّقني لخدمة قضايا الحياة الزوجية.. تلك القضايا الشائكة والشائقة معاً..

ونغَّص عليَّ بعضَ تلك السعادة، ما وصل إلى سمعي من أنَّ همساتي سبَّبت حصول شجاراتٍ بين بعض الأزواج، لأن الزوج كان يقول لزوجته: اسمعي وتعلّمي.. فتردُّ الزوجة بكبرياء: بل أنت اسمع وتعلّم..

آلمني أن يقذف كلٌّ من الزوجين ما تثيره (همساتي) إلى ملعب شريكه، ليهرب من أمورٍ كثيرةٍ، في مقدمتها وخزُ الضمير، والشعورُ بضرورة التعديل والتغيير.

رسالة (همسات) تتلخص في العبارة التالية:

على كل من الزوجين أن يرى عيوب نفسه قبل أن يرى عيوب شريكه، وعليه أن يغيِّر نفسه قبل أن يطالب شريكه بالتغيير، لئلا ينطبق عليه قوله تعالى في ذمِّ اليهود: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [1].

ما أجمل قول الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيرهُ
هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصفُ الدواء لذي السّقام وذي الضّنا
كيما يصحَّ به وأنت سقيمُ
ونراك تلقح بالرشاد عقولنا
أبداً وأنت من الرشاد عديمُ
فابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتي مثلهُ
عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

(1) البقرة44

وكما سبق أن ذكرت في الأجزاء السابقة، فقد قمتُ بتحويل برنامج (همسات)، الذي بلغ مائة حلقةٍ، إلى كتابٍ مؤلفٍ من مجموعةٍ من الأجزاء، نزولاً عند طلب كثيرٍ من المشاهدين واستجابةً لرغبتهم.. وقد صدر الجزءان الأول والثاني، وها هو ذا الجزء الثالث من همسات بين أيديكم...

ورأيتُ أن أختار عنواناً فرعياً لهذا الجزء من (همسات)، ليدلّ على مضمونه الذي خُصِّص للحديث عن الحياة الزوجية وحلّ مشاكلها وتذليل عقباتها... فارتأيت أن يكون العنوان: فنّ التواصل الزوجي.

قد يستغرب البعض هذا العنوان ويقول: الحياة الزوجية لا تحتاج إلى فنّ، لأن الله تعالى ضمن استمرارها، فمدّ حبال المودة، ووطّد عرى المحبة بين الزوجين، فقال عزّ وجلّ: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1]

أقول: من حيث المبدأ هذا صحيح، ولكن لكل شيء سبب، وللهناء طريقٌ موصلٌ إليه، وللعكر طريقٌ آخر يوصل إليه، ولن يصل للهناء من سلك طريق العكر، كما لن يصل للعكر من سلك طريق الهناء.

هذه سنّةٌ كونيةٌ خلقها الله عزّ وجل، ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً.

الحياةُ الزوجيةُ السعيدة تحتاج إلى إتقانٍ وفنٍّ ومهارة.. قد يقول قائل:

لطالما سمعنا عن فنِّ الموسيقا وفنّ التمثيل وفنّ الرسم والنحت، بل وحتى عن فنّ الطبخ وفنِّ تنسيق الزهور... لكننا لم نسمع عن فنّ الطب وفنّ الفلك وفنّ الجيولوجيا وفنّ الفيزياء والكيمياء، فلماذا يا ترى؟

الجواب باختصار:

لأنَّ هناك فرقاً بين الظواهر العلمية التي تتحكم فيها أمورٌ ماديةٌ تجريبية، وبين المشاعر البشرية..

(1) سورة الروم آية 21.

تنطبق على الظواهر العلميةِ المعادلة الكيميائية التالية:

ذرةٌ من الأوكسجين + ذرتان من الهيدروجين= ماء.

وهـذه المعادلـة هي حقيقـةٌ علميـةٌ قابلـةٌ للتكرار دائـماً، كلما توفـرت الشروط النظاميـة المطلوبـة لهـا، ونتائج هـذه المعادلـةِ واحدةٌ في سـورية وفي أوسـتراليا.. في القطـب الجنـوبي والقطب الشـمالي، لا تتغير من زمـانٍ لزمان، أو من مـكانٍ لمكان..

أما المشـاعر الإنسـانية والنفـوس والأذواق البشريـة فأمرٌ مختلفٌ تمامـاً، فليس هنـاك قانـونٌ ثابـتٌ ينطبـق عـلى كل الناس عـلى اختـلاف أذواقهـم وطبائعهم وفي جميـع العصـور والأزمنـة والأمكنـة.. وتعاملهم مع بعضهـم البعضِ يحتـاج إلى فنٍّ لمعرفـة: كيـف ومتى ومـاذا وأين!

هـذا هـو فـنّ التواصـل الزوجـي، والمهـارة الحقيقيـة فيـه أن يعـرف الزوجان كيـف يتواصـلان، وأيـن يلتقيـان، ومتـى يتمازجـان، وبـماذا يرغبان!!

الحيـاة الزوجيـة أهـمُّ مـن الزهـور والموسـيقى ونحـتِ الحجـر والرخـام، وتسـتحق أن يُسـخَّرَ لهـا فـنٌّ يخدمهـا ويرتقـي بهـا وبأجوائها إلى سـماء نعيـم الدنيا قبـل نعيـم الآخـرة، ليتواصـل النعيـمان، وتتواصل معهـما الحيـاة الطيبـة التي وعد الله بهـا عبـاده المتقين.

هـذا الفـنُّ يتفوّق على فـنّ النحت لـدى ليونـاردو دافنشي رغـم روعته، وعلى فـنّ بيتهوفـن رغم متعتـه، وعلى ما يقدّمه الشـيف رمـزي في مطبخه رغـم لذّته!!!

فـنّ التواصـل الزوجي فـنٌّ أقدِّمه لكل زوجـين يرغبان في التزوُّدِ بـشيءٍ جديدٍ جميـلٍ، يضيف إلى حياتهـما لذة ومتعة وسـعادة وهناءة..

أرجـو الله تعـالى أن يجعـل في هـذا الجـزء مـن (همسـات)، وفي الأجـزاء التـي سـبقته، أو التـي سـتليه خيراً كثـيراً، وأن ينفـع الناس بـما أفعل، وأن يقبـل مني كل جهـدٍ صالـح، وأن يتجـاوز عـن كل مـا سـوى ذلـك، فهـذا ظنـي بـربّي، والله عـزّ وجـلّ عنـد ظـنِّ عبـده بـه، فليظنّ بـه ما يشـاء...

الدكتورة لينة الحمصي

فاظفرْ
بذاتِ الدينِ

يحكى أنّ شباباً عزّاباً اجتمعوا يتسامرون في ليلةٍ مقمرةٍ هادئة، وقادهم قطار التسالي والأماني إلى البحث عن مواصفات زوجة المستقبل التي يحلمون بها.

قال أحدهم: أمنيتي أن أتزوج امرأةً طويلة القدّ، رشيقةَ القوام، جميلةَ المبسم، حلوة المحيّا، عذبةَ المنطق.

قال الآخر، ولسانه يبلّل شفتيه، ويده تتلمّس بطنه:

أما أنا فتوّاقٌ إلى امرأةٍ تجيد طبخ جميع أنواع أطايب الطعام: الصيني والهندي والسرياني والهولندي... أحب أن تكون أسابيعي وشهوري وسنواتي مليئةً بما لذّ وطاب من أطعمة الدنيا، تأتيني بها امرأتي وأنا في بيتي ومع أهلي، دون أن أتكبّد مشاقّ السفر ومصاعبه ومصاريفه...

ابتسم الثالث وقال: أما أنا فزوجتي ستكون ثريةً، في كل يومٍ فستانٌ جميل، وفي كل سنةٍ سيارةٌ جديدة، وفي كل عطلةٍ نزهةٌ بهيّةٌ وهنيّة...

نظر الجميع إلى زميلهم الرابع الذي عدّل من جلسته وقال:

سمعتُ حكمةً من أحدهم تقول: إنَّ المرأة الجميلة دُمية.. والمرأة الغنية فاكهة.. أما المرأة الفاضلة فهي غذاءٌ للقلب والروح والنفس...

سكت صاحبنا هنيهةً ثم قال بصوتٍ واثق:

أنا أحلم بزوجةٍ إن نظرتُ إليها سرّتني، وإن رغبتُ إليها في فعل شيءٍ أطاعتني، وإن غبتُ عنها حفظتني في نفسها ومالي...

* * *

قد تكون هذه القصة من بنات أفكار كاتب ما في عصر ما، ولكنها دون أي شكٍّ تحدث على أرض الواقع آلاف المرات كل يوم، وكلّها تتحدث عن المواصفات المطلوبة في زوجة وعروس المستقبل...

مواصفات العروس:

والحقيقة أن الحديث عن المواصفات المطلوبة في زوجة وعروس المستقبل تختلف حوله الآراء، وتتعدد الإجابات حسب تعدّد الرؤى والمفاهيم والتوجّهات.

البعض يقصر المواصفات المطلوبة في عروسه على جمال الشكل والمظهر، وآخرون يرون في الزوجة التي تحسن تنظيف المنزل، وتتقن مهارات الطبخ والنفخ قمة طموحهم، بينما يحاول البعض أن يجمع بين عدة مواصفات، فالجمال عندهم أمرٌ مهمّ، ولكنه لا يغني عن مواصفات الجاه والغنى والمكانة الاجتماعية، أو ما يسمى بالبريستيج الاجتماعي، ويرى البعض في كل هذا أموراً هامة، ويضيف إليها العقل والثقافة والأخلاق، ويظن أنّه إن حصّل على كلّ هذا، فقد جمع الكمال وحازَ المرام.

لا شك أن السعادة الزوجيّة والفلاح الأسرويّ مطلب كل زوجين، وأمنية كل عروسين، ولكن:

وما نيل المطالب ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا

صحيحٌ أنَّ الأحلامَ والأمانيَ هي بداية كل فعل، ولكن صحيحٌ أيضاً أنه لا بدّ من طرقٍ عمليةٍ تترجم هذه الأحلام والأمانيَ إلى معطياتٍ على أرض الواقع، وتخرجها من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة...

ومستحيلٌ لمن يسلك طريق الشقاء أن يبلغ السعادة أو أن يشمّ رائحتها.

مقاييس جمال المرأة عند الحكماء:

السعادة الزوجية تبدأ من حسن اختيار الزوجةِ، النصفِ الآخر، شريكةِ الحياةِ وأمِّ الأولاد.

أعجبني في هذا مقولاتٌ أحببت أن أشارككم الاستمتاع بها:

يقول طاغور: الزوجة الحقيقية هي التي تستطيع خلق الجمال في قلب الزوج.

ويقول أحد الحكماء: المرأة التي ليس لها إلا جمالها تباهي به، تضع رأسمالها في مصرفٍ غيرِ آمنٍ يسمّى (مصرف الزمن)، ولا بد من إفلاسها وقت الشيخوخة...

ويقول آخر: الزواج جنّة، والمرأة الجاهلة جحيمها.

أما بيتهوفن فيقول: إنّ أرقّ الألحانِ وأعذبَ الأنغامِ لا يعزفها إلا قلب المرأة المرحة.

وقديماً سئل أرسطو: ما الجمال؟ فقال: هذا سؤالٌ يُطرح على العميان، لأن الجمال في نظري جمال القلب والروح.

ثم تابع قائلاً:

هناك من يقولون: الجمال هو كل ما يسرّ الناظر، وأنا أقول: إنه يختلف حسب الأمزجة والميول... وكم يكون المرء جميلاً إذا جمع جمال النفس والجسم.

الحقيقة أن جمال الجسد أمرٌ نسبيّ، فما يراه بعضهم جميلاً قد لا يراه الآخرون كذلك، أما جمال الروح والأخلاق، فلا يمكن أن يختلف حوله اثنان، وفي هذا يقول أحد الحكماء:

المرأة الجميلة هي التي تعرف متى تتكلم ومتى تصمت، والتي تعرف كيف تفرض احترامها على المجتمع الذي تعيش فيه، وهي التي يتّسع قلبها لحّب الجميع: للمرضى والضعفاء والبؤساء، هذه هي المرأة الجميلة...

إذاً مقاييس جمال المرأة عند الحكماء تختلف عن مقاييس من يعقدون مباريات ملكات الجمال... فليس الخصر النحيل ولا القدّ الرشيق ولا الأنف الصغير أو الشعر الطويل هي مواصفات الجمال... ملكة الجمال عند الحكماء هي فتاةٌ لديها من الحكمة والعقل والعلم والخلق والتسامح والمحبة والرحمة ما يتسع لاستيعاب الجميع في قلبها، دون أن يضيق أو يتبرّم... أما الشكل، فكل الناس فيهم جمالٌ يخفى على من لا يريد أن يراه!

فاظفر بذات الدين تربت يداك:

ولكن: أين مكانة الدين بين كل هذه المواصفات؟

في الواقع المرأة المتديّنة تديّناً حقيقياً (وليس مزيّفاً)، تديّناً يغوص في جوهر الأخلاق، ويلتزم السلوكيات السليمة، هي امرأةٌ تجمع قدراً كبيراً من الفضائل التي ذكرناها، فتراها امرأةً حكيمةً عاقلةً خلوقةً متسامحةً رحيمة.. تحمل من الصفات التي يحثّ عليها الدين ويأمر بها، ما يثير الإعجاب ويرضي كل الأذواق.

ولهذا نرى الإسلام يصنّف الدين في أوّل درجة من سلّم الأولويات الكثيرة، التي قد يبتغيها طالب الزواج...

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾[1].

ويقول النبي ﷺ: (**تُنكح المرأة لأربع: لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**)[2].

ويقول: (**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**)[3].

---

(1) سورة البقرة: الآية: (221).

(2) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب: النكاح، رقم (5090).

(3) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، في كتاب الرضاع، رقم (1467).

ويقول: (**لا تزوَّجوا النساء لحسنهنّ، فعسى حسنهنَّ أن يُرديهنَّ، ولا تزوجوهنَّ لأموالهنّ، فعسى أموالهنَّ أن تُطغيهنّ، ولكن تزوجوهنَّ على الدين**)[1].

سلّم الأولويات:

عندما نسأل الشباب عن مواصفات العروس التي يحلمون بها، يجيب أغلبهم جواباً يشمل كل المواصفات النموذجية، الشكلية والأخلاقية، بما فيها صفة التدين.

أقول: من هنا تبدأ المشكلة، إذ إنَّ اجتماع هذه الصفات كلها في امرأةٍ واحدةٍ لا وجود له في أغلب الأحيان إلا في خيال الشباب.

فقد يجتمع الجمال والتديّن ويغيب الذكاء، وقد يجتمع الذكاء والبريستيج الاجتماعي والتدين، ويغيب المستوى المادّي والعلميّ، وقد يتمازج العلم والمكانة الاجتماعية بينما ينحسر التدين أو الجمال أو ما إلى ذلك... فما العمل عند ذاك؟

لا بدّ لطالب الزواج من وضع سلّم أولويات، وترتيب هذا السلّم يختلف من شخص لآخر...

ففي حين يحتلّ التدين المرتبة الثالثة أو الرابعة عند البعض، نجده عند آخرين في صعودٍ أو نزول، وقلّما نجد من يضع التدين في المرتبة الأولى في سلّم الأولويات.

وكثيراً ما يتنازل العريس عن بعض المواصفات المطلوبة في العروس، عندما يصطدم بجدار الواقع، فيتنازل عن البريستيج الاجتماعي، أو عن الثقافة والعلم، أو عن العقل والتدين، بينما يبقى الجمال في قمّة هذه الأولويات، وقلّما يتنازل العريس عنه لصالح كسب مواصفاتٍ أخرى.

هل هذا مقياسٌ صحيح؟!

---

(1) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في كتاب: النكاح، رقم (1859). وضعفه الألباني.

لنتمعّن في القصص الحقيقية التالية:

طبيبٌ مشهور، أراد أن يتزوج فتاةً كاملة الأوصاف، ولما اضطر إلى التنازل عن بعض المواصفات تنازل عن العلم والثقافة، فتزوّج امرأةً جميلةً ثريّة، تتمتع بمكانةٍ اجتماعيةٍ تحسدها عليها الكثيرات من بنات جنسها، فماذا كانت النتيجة؟

لم يستطع ذلك الطبيب أن يتأقلم مع عروسه: يكلّمها من الشرق فتجيبه من الغرب، ولم يكن بينهما أيّ عاملٍ مشتركٍ في أيّ حديثٍ يُطرح...

لم يكن طبخها اللذيذ، ولا مالها الوفير، ولا أصابع الناس التي تشير إليها بالإعجاب، ولا إطراؤهم وثناؤهم على شكلها ومظهرها ولباسها، ليرأب الصدع، الذي بدأ يتسع بينهما، وكان الطلاق النهاية المفجعة لذلك الزواج غير المتكافئ!

وانكحوا الأكفاء:

عند الحديث عن **الكفاءة بين الزوجين**، يظنّ البعض أن المراد هو أن يكون الوضع الماديّ بين عائلتي الخاطب والمخطوبة متقارباً، وهذا مفهومٌ ناقص...

فلقد أثبت الواقع أن الزواج المتكافئ من جهة التدين والعقل والعلم، هو وحده الذي يستطيع أن يقاوم عوامل الحتّ والترسّب ويتغلّب عليها، حتى لو كان هناك تفاوتٌ مادّيٌّ بين الزوجين، أما الزواج المتكافئ مادّياً والخالي من مقوّمات الكفاءة الأخرى: الدينية والعقلية والعلمية، فيفتقر إلى ذلك الثبات والتحدي والاستمرار.

النبي ﷺ حثَّ على الكفاءة بقوله: (**تخيّروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكِحوا إليهم**)[1].

قصتنا الأخرى تتحدث عن مهندسٍ كانت طلباته أيضاً: كامل الأوصاف...

قالت له والدته بعد يومٍ حافل من الخطبة المتعبة:

(1) رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، رقم (1968). وصححه الألباني.

وجدت لك يا ماهر كلّ طلباتك.. فتاةٌ متديّنةٌ خلوقةٌ متعلّمة ومثقفة ومن عائلةٍ محترمة... ولكن.. جمالُها وسطٌ يا بني...

رفع حاجبيه مستنكراً وقال: لا يا أمّي... الجمال بالنّسبة لي أمرٌ مهمّ جداً، ألا تريدين أن أُحصّن نفسي من النّظرة المحرمة والفعل المحرّم؟!

تابعت الأم جولةً جديدةً من البحث المضني، وأخيراً عثرت على فتاة ربما تكون فتاة الأحلام.. شكلٌ وعلمٌ وشهادةٌ جامعيةٌ ووظيفةٌ جيدةٌ وعائلةٌ مرموقة.. ولكن.. لا أثر للتديّن في حياتها.. جوها مليءٌ بالحفلات والسهرات والكوكتيلات والمسابح وما شابه ذلك!

هزّ ماهر رأسه موافقاً مسروراً وهو يقول: لا تقلقي يا أمّي.. أنا أدلّها على طريق الدين، وأُبعدها عن حياة اللهو والصخب التي تحياها!

بعد سنواتٍ اكتشف ماهر أنّ عروسه لم تكن آلةً بأزرار، يكبس زراً فتصبح متدينةً، ويكبس زراً آخر فتصبح من عاشقات الحياة الأسرية الهادئة الهانئة، ولذا... لم يستطع أن يغيّر فيها شيئاً... ولم يستطع في الوقت نفسه أن يتأقلم مع طريقتها الساهية اللاهية، فخاض معها جولاتٍ من الصّراع والمشاكل، وكان الحلّ في الطلاق...

طبعاً جاء اكتشاف ماهر لأهمية التدين متأخّراً جداً...

فالتديّن ليس أمراً يُصنع، ولا قماشاً يُشترى، بل هو قيمٌ تُغرس في نفس الإنسان منذ صغره، لترافقه في حياته كلّها حارسةً وناظمة... ورحم الله الشاعر حين قال:

قد ينفع الأدبُ الأولادَ في صِغَرٍ
وليس ينفعهم من بعده أدبُ
إنَّ الغصون إذا عدّلتَها اعتدلت
ولا يلينُ ولو لينّتَه الخشبُ

والحقيقة أن المرأة المتديّنة تجمع بين عطفيها معاني الحّب والوفاء والإخلاص لزوجها وأسرة زوجها.. لا تنظر إلى غيره ولا تفكّر إلا فيه.. وهي عضدٌ لزوجها في السّراء والضّراء، وتحسن إلى جانب ذلك تربية أولادها على التّقوى ومعاني الخير والصّلاح.

وفي هذا يقول النبي ﷺ: **(ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجةٍ صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله)** [1].

التديّن الحقيقي والتديّن المغشوش:

قد يعلّق البعض على هذا فيقول: أعرف كثيراً من الزوجات المتديّنات، ومع هذا فهن يُسئن عشرة أزواجهنّ، ولا يحسنّ تربية أولادهنّ...

أقول: عندما قال ﷺ: فاظفر بذات الدين تربت يداك، لم يكن قصده التديّن الشكليّ، الذي تكتفي صاحبته بأداء الصّلاة وارتداء الحجاب، بينما تطلق للسانها وأفعالها العنان من كل التزام!

التدين الذي قصده النبي عليه الصلاة والسلام هو التدّين الذي يجعل صاحبته امرأةً وقّافةً عند حدود الله تعالى، تلتزم أوامره وتجتنب نواهيه، تراقب الله في تعاملها مع زوجها وأقربائه، وترى في أسرتها المكوّنة من زوجها وأولادها أمانة ائتمنها الله عليها، فتعمل جاهدةً للقيام بأداء هذه الأمانة حقّ الأداء، ولا تضيق ذرعاً بالمسؤولية التي حمّلها إياها النبي ﷺ حين قال: **(كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول، فالإمام راعٍ وهو مسؤول، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤولٌ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلّكم راعٍ وكلكم مسؤول)** [2].

---

(1) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه، باب فضل النساء، رقم (1930). ضعفه الألباني.

(2) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، في كتاب: النكاح، رقم (5188).

ليس عبثاً ما قاله أهل الأمثال: وراء كلّ رجلٍ عظيم امرأة عظيمة.

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، زوجة النبيِّ ﷺ، كانت امرأةً عظيمة، قال عنها زوجها ﷺ: **(والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد فيما لم يرزقني من غيرها من النساء)**[1].

فاطمة بنت عبد الملك، زوجة الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز، كانت أيضاً امرأةً عظيمةً، تركت النّعيم الذي كانت ترفل فيه في بيت والدها الخليفة عبد الملك بن مروان، وفي بيت زوجها (قبل أن يتولّى الخلافة)، ولحقت بزوجها عن رضا وقناعةٍ، في عيشته المتواضعة التي آثر أن يحياها، عندما تولّى خلافة المسلمين.

ويكفينا أن نذكر موقفاً واحداً من مواقفها، فقد اقترب منها زوجها الخليفة يوماً، وبين يديه جواهرها وحليّها التي جلبتها معها من دار والدها عبد الملك بن مروان، وقال لها بلطفٍ: تعلمين يا فاطمة من أين أتى أبوك بهذه الجواهر، (يقصد من بيت مال المسلمين)، فهل لك أن أجعلها في تابوت، ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين، وأنفق ما دونه في حاجات المسلمين، فإن خلصتُ إليه أنفقته، وإن متّ قبل ذلك، فلعمري ليردنّه الخليفة الجديد إليك؟!

أجابته فاطمة... الزوجة الوفية المخلصة: افعل ما شئت يا أمير المؤمنين.

فعل عمر بن عبد العزيز ذلك في حياته، فلما توفي أراد أخوها يزيد بن عبد الملك، (الخليفة الجديد)، أن يردّ إليها حليّها، فامتنعت من ذلك وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه!

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل فعلت فاطمة ما فعلت لأنّها امرأةٌ جميلةٌ ذات حسبٍ ونسبٍ ومالٍ، أم لأنها كانت زوجةً ذات دينٍ وأخلاق؟!

وهل العظمةُ بالجمال والمال والأنساب، أم أنّها بالمبادئ والأخلاق؟!

---

(1) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها، رقم (243443). وإسناده ضعيف.

قد يعترض البعض فيقولون: ولكنّ خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت عبد الملك كانتا تجمعان كلّ أوصاف الكمال: جمالٌ ودينٌ وحسبٌ وأخلاقٌ ومال، فكيف إذاً يُطلب إلينا أن نتخلّى عن المال والجاه والجمال مقابل الدّين؟ أليس في هذا إجحافاً بحق الأزواج؟!

الواقع أننا لا نناقش هذه المسألة إذا استطاع الشابّ الفوز بزوجة كاملة الأوصاف، لأنّ هذه مسألةٌ مفروغٌ منها، وكما يقال في المثل: حلال على الشاطر.

ولكنّنا نحصر الحديث في سلّم الأولويات، عندما يضطر الشاب التنازل عن شيء من متطلباته: ما هو ترتيب الدّين في هذا السلّم؟!

زواج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة:

قد يكون في **زواج النبي ﷺ من سَودة بنت زَمعة** بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها جواباً مفحماً لكلّ معترض..

فسودة امرأةٌ مسنّةٌ جسيمةٌ وبسيطة، (حسبما ورد في كتب التّراجم)، وهي لا تملك مواصفات الجمال والذكاء والجاه والثروة، ومع ذلك تزوجها النبي ﷺ، رغم أن سودة (وغير سودة) كانت تستبعد هذا الزواج غير المتكافئ حسب أعراف وعادات قريش، والدليل على هذا أنَّ أهل مكّة كلهم فوجئوا بهذا الزواج.

والحقيقة أن هناك حكماً عديدة وراء هذا زواج النبي من سودة، منها جبر خاطر تلك الأرملة المسكينة، التي توفّي زوجها (السكران بن عمرو)، وتركها وحيدةً هي وابنها، ليس لها معيل إلا الله. ومنها أن النبي ﷺ أراد أن يعلِّم صحابته بطريقةٍ عمليةٍ أنّ دين الزوجة وخلقها هو أوّل ما يجب على الزّوج أن يفتّش عنه، وأنّ المال والجمال والجاه أمورٌ تأتي في الدّرجة التالية للدين والأخلاق.

ولله در زوجي الشاعر الدكتور أنور وردة حين قال:

إنّ التزوّج بالنساء لأربعٍ ... حسبٌ ومالٌ أو جمالٌ رائعُ

هذي الثّلاثة ليسَ تكفي وحدها ... إنْ لم يزيّنها العظيمُ الرابعُ

ديـنٌ يهـذّب كلّ ما في نفسـهِا ... لولا التديّن كلّ شيءٍ ضائعُ
إنّ الجمـالَ بـدون ديـنٍ فتنةٌ ... وغوايةٌ تُغري وسهمٌ صارعُ
والمـالُ قربى من شَرار جهنّم ... والجـاه للظّلم المؤكّد دافـعُ
إلا إذا ضبـط التديّنُ خطـوَها ... فإذاً فقد صُنعت ونعمَ الصّانعُ

* * *

عندمـا يـأتي العريـس، ويقرع البـاب خاطبـاً، ترفـرف في أفئدة الصبايـا أحلامٌ وصـورٌ ومطالب...

هل للإسلام رأيٌ في هذه المطالب؟

سـأتحدث عن هـذا الموضوع في الصفحـات التالية التـي سـمَّيتُها: (العريس عَ الباب).

العريسْ
ع الباب

سلمى امرأةٌ متزوجة من رجل أعمالٍ ناجحٍ ومشهورٍ، ولكنها لم تشعر أبداً خلال حياتها معه مدة خمسة عشر عاماً بطعم السعادة ولم تتذوقه، رغم كل ما يتوفر لها من أسباب السعادة المادية...

الفساتين، والحفلات، والتجوال في بلدان العالم، والسيارة الجميلة الحديثة، والتي كانت سلمى تبدّلها كل ثلاث سنوات على الأكثر، والفيلا الفخمة، والخدم والحشم... كل ذلك لم يمنحها السعادة الزوجية والطمأنينة وراحة البال.

هنالك شرخٌ كبيرٌ فكري وعاطفي بينها وبين زوجها...

لم تشعر يوماً ما أنه يكنّ لها أيّ محبة أو احترام، أو حتى أيّة مشاعر نبيلة...

وكلما حاولت الاقتراب منه وجدته كالجدار الأصم...

لا همّ له ولا شاغل إلا الحديث عن المال وكسب المال...

كثيراً ما كانت تتساءل: **إذا لم تستطع الثروة أن تمنح الإنسان السعادة، فما الذي يمنحها؟!**

سؤال لم تعثر له سلمى على جواب، وكثيراً ما كانت تعزو ما هي وزوجها عليه من خلافات، إلى القدر الذي أبى أن يجود عليها ببصيصٍ من أملٍ أو سعادة أو ارتياح..

فهل هذا صحيح يا ترى؟؟

عندما تقدم هذا العريس لخطبة سلمى، حسدتها عليه كل بنات العائلة ورفيقات المدرسة، فهو شابٌ ووسيمٌ وغني!

اليـوم تتحـدث كل بنـات العائلـة ورفيقـات المدرسـة عـن تعاسـة سـلمى في حياتهـا، ووتتـوزع مشـاعرهنَّ بـين متعاطفـةٍ وحائـرةٍ وحزينـةٍ وشـامتة!

* * *

ما هي مواصفات العريس الذي تحلم به فتياتنا اليوم ؟

سؤال تختلف حوله الإجابات، ومع هذا فإنها غالباً ما تتفق في أمرين:

- **شكل العريس وحالته المادية.**

أغلب الفتيات ينظرن إلى عريس المستقبل نظرة سـطحية: شـكله.. طوله وعرضه.. وسـامته وشـعره.. ويحتـلّ الشـعر بالـذات الدرجـات العليا من سـلم الأولويـات، على اعتبـار أنه ثلـث الجـمال، وأن كثيراً من الشـباب يصلعون في سـن مبكرة!

ومـع أهميـة الشـكل والمظهـر، إلا أن كثـيراً مـن الفتيات غالبـاً مـا يتنازلن عنه مقابـل ثـراء العريس ومـلاءة جيوبه.

والسـؤال: **أيـن يقع الدين بين هـذه المواصفات! وهـل يمكن للفتـاة أن تتنازل عـن المال والجاه والجـمال مقابل الديـن والأخلاق؟!**

مفاتيح الزواج الأربعة:

فتياتنـا المقبـلات على الـزواج اليـوم يبحثن عـن عريسٍ مـليء الجيـوب بالمال، يملـك **مفاتيـح النجـاح**، وهـي برأيهـن أربعـة مفاتيـح: مفتـاح للمنـزل أو الفيللا، وآخـر للمصنـع أو المحـل أو الشركـة، والثالـث مفتاح للسـيارة، والـشرط الوحيد فيهـا عنـد المتواضعـات منهـن أن تكـون سـيارة حديثـة، وآخـر مفتاح هـو للخزنة التـي تـودع فيهـا الأمـوال المكدسـة... وتعتقـد تلـك الفتيـات أن في هذا أمانـاً لهنّ وخير أمـان....

أمـا ديـن الشـاب وعقلـه وثقافتـه وأخلاقـه، فهو أمـر ليـس بذي أهميـة، وفي رأي الكثـيرات أن المـال يغطّـي عـلى كل النواقـص الأخـرى...

بينما ترى فتياتٌ أخرياتٌ أهمية العقل والدين والأخلاق، ولكنها في رأيهنّ أوصاف تلي في الأهمية المال والجاه... **فالمال أولاً، وبعده تأتي باقي المواصفات.**

فارس الأحلام :

وإن اختلطت الأوراق وتعارضت المواصفات، ووجدت الفتاة أنَّ عليها أن تختار بين عريسين: أحدهما متديّنٌ وعلى درجة كبيرة من الثقافة والأخلاق، ولكنه لا يملك المال، والآخر جيوبه تكتظّ بالأموال، إلا أن بينه وبين الدين والأخلاق ما بين الخافقين، لم يحتج حسم الموقف عندها إلى التفكير: المال أولاً ثم المال ثم المال... أما الدين والأخلاق فهي أشياء مكتسبة (حسب رأيها)، ويمكنها أن تصقل عريسها وأن تعجنه بها...

الأمر متروك لشطارتها وفهلويتها!

وإن لم يأت الفارس الموهوم على الحصان المزعوم، رفضت الفتاة كل الخطّاب بحجج متنوعة: فهذا طويل، وهذا قصير، وهذا سمين، وهذا نحيف، وهذا أسمر كالتراب، وهذا أبيض كقالب الجبنة!! ولا يكاد ينجو من تعليقاتها أحد!

هي باختصار تريد نموذجاً محدداً رسمته في خيالها وفقاً لمقاييس محددة.

لا شك أنكم شغوفون لمعرفة ما يجري أمام تمسّك الفتاة بهذه المقاييس.

الجواب أحد أمرين.. كلاهما مرّ..

إما أن تظلّ البنت عانساً، بعد أن تمضي عمرها في انتظار ذلك العريس الثريّ، تنصت بأذنيها علّها تسمع صدى مفاتيحه الأربعة، فتمضي الأيام والشهور والسنوات والعريس المنتظر غائب لم يأت، إلى أن تفيق أخيراً على الحقيقة المرّة، وتكتشف أنَّ العنوسة التهمت شبابها وآمالها وطموحاتها.. فتشعر بالندم.. ولكن بعد فوات الأوان...

تجارة خاسرة:

وإما أن يجود القدر عليها بذلك العريس صاحب المفاتيح الأربعة، وهنا لا شك أنكم أيضاً شغوفون لمعرفة ما سيجري عند ذاك!!

غالباً ما تكون العروس وأهلها غارقين في السرور حتى الثمالة: فستان العرس والحفلة والتلبيسة.. الولائم.. النزهات.. الطلبات التي لا تردّ ولا تخيب.. طاقةٌ بل طاقات من السعد والسعادة.. ويا لها من طاقات!

هذه الفترة المسمّاة بشهر العسل يختلف طول مدتها من شخص لآخر، ولكن لا بدّ لها من نهاية، إما سريعة أو بطيئة...

يأتي يومٌ تكتشف فيه العروس وأهلها جسامة الخطأ الذي وقعوا فيه، وربما يخطر في بالهم أمثالٌ وحكمٌ كانت غائبة عن تفكيرهم، حين قبلوا بذلك الزواج، منها المثل المعروف: يا آخذة القرد على مالو.. بيروح المال وبيبقى القرد على حالو.

ومنها الحكمة التي تقول: المرأة التي تتزوج من أجل المال، تتنازل عن حريتها مقابل ذلك.

الحقيقة أن المال هو آخر ما ينبغي التفكير فيه، لأن الحياة الزوجية السعيدة لا تنال عبر مال الزوج، بل عبر دينه وأخلاقه، فالدين والأخلاق هي خير ضمان، ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناءٍ لتكتشف الزوجة وأهلها أن هذه الصفات لا يمكن أن تُكتسب بين عشيةٍ وضحاها، لأنها من متلازمات التربية والتنشئة الأولى، التي يشيب فيها المرء على ما شبّ عليه.

يقول الشاعر:

وما دان الفتى بحجىً ولكن يعوّده التديـنَ أقربوه

ولكن هل ينفع هذا الاكتشاف بعد ضياع العمر وفوات الأوان؟! وهل يفيد الندم بعد التردي في العدم؟!

رحم الله الشاعر حيث قال:

نـدمـتُ نـدامـةَ الكسعيّ لما غـدت مـني مـطـلّـقـةً نُـوارُ

* * *

قصص واقعية:

اجتمعت مرة بإحدى النساء... زوجها ثريّ من الدرجة الأولى... باختصار.. هي في نظر الناس امرأة محظوظة لأبعد الحدود، والكل يحسدها على عيشتها الرغيدة...

لفتت نظري كآبة حزنٍ تجلّل وجهها بدلاً من السعادة المفترضة.

سألتها عن حالها، فأجابت بحرقة ممزوجة بصوتٍ متأوّه: ما شي الحال...

بعد فترة من الصداقة التي بدأت تتعمّق جذورها بيننا، باحت لي بكل شيء..

زوجها إنسان متفلّت من ضوابط الدين وحدوده، لا يعرف حلالاً من حرام..

يتنقّل كل يوم من فتاة إلى أخرى، فضلاً عن انغماسه في الأعمال التجارية الربوية المحرمة، وأردفت قائلة: حياتي معه مليئة بالحرام.. وأنا أفكر بالانفصال عنه..

وبعد زفرة تحسّر قالت: يا ليتني تزوجت رجلاً فقيراً متديناً يطعمني الخبز والخّل، ولم أتزوج بهذا الثريّ الفاجر..

هذه قصةٌ من آلاف القصص الواقعية التي تصادف فتياتنا بسبب نظرتهن القاصرة إلى معايير الزواج...

قصة أخرى اخترتها من سلّة القصص الكثيرة المؤلمة...

فتاتان أعرفهما، إحداهما جميلة وسيمة، والأخرى متوسطة الجمال...

وحسب نظرة المجتمع وعاداته، وجدت الفتاة الجميلة حظها الأبيض: عريسٌ نجح في الاختبار، حين أبرز للعروس وأهلها مفاتيحه الأربعة.

أما أختها فقد تنازل الأهل عن هذه المفاتيح، وتقدم لخطبتها عريس متديّن، ولكنه خالي الوفاض من أيّ مفتاح.. بعد عشر سنوات من الزواج، التقيت بهنّ.. لم تكن الفتاة الجميلة سعيدة في حياتها الزوجية!

كانت كثيرة الشكوى من أخلاقه الصعبة، ويده الطويلة، وعينه الزائغة..

أما متوسطة الجمال، فقد كانت السعادة تقفز من عينيها، فصحيح أن زوجها لا يملك الكثير من المال، ولكنه يملك كنزاً ثميناً من الإيمان والأخلاق.. يعاملها أحسن معاملة.. يحبها ويرعاها ويحنو عليها...

عليكِ بالزوج الصالح:

ذكرتني هذه القصة بقول أحد الحكماء لابنته: يا بنيتي عليك بالزوج الصالح، لأنه إن أحبك أحسن إليك، وإن كرهك لم يظلمك...

أليس هذا هو ما يحثّ عليه ديننا الإسلامي في القرآن الكريم والسنة الشريفة!!

يقول تعالى: (وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ[1])، وهو ما أكد عليه النبي ﷺ بقوله: **(ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)**[2].

وفي حديث آخر يبين النبي ﷺ معايير الزواج وسلّم الأولويات فيقول:

(إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[3].

ويروى في هذا أن رجلاً من الأغنياء مرّ على النبي ﷺ، فقال ﷺ لأصحابه: (ما تقولون في هذا؟) قالوا: حريّ به إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يُستمع له.

ومرّ رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريّ به إن خَطَب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإن قال أن لا يُستمع له. فقال ﷺ: **(هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا)**[4].

---

(1) ـ سورة النور: الآية: (32).

(2) ـ رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: في كتاب: فضائل الجهاد، رقم (1655). وحسّنه الألباني.

(3) ـ رواه الترمذي عن أبي حاتم المزني ﷺ، في كتاب النكاح، رقم (1085). وحسّنه الألباني

(4) ـ رواه البخاري عن سهل بن سعد ﷺ، في كتاب النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم (5091).

تخيّروا لنطفكم:

قد يتساءل البعض عن مكانة العلم والثقافة في سلّم الأولويات، وعن معنى الأكفاء في حديث النبي ﷺ: (**تخيّروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكِحوا إليهم؟**)[1].

الكفاءة بين الزوجين أمر مهمّ، لأنها تؤدّي إلى استمرار الحياة الزوجية السعيدة بينهما، والدين والأخلاق هما جوهر الكفاءة المطلوبة...

ولكن لا يمكن أن ننكر أهمية التكافؤ بين الزوجين من الناحية العلمية والثقافية، في استمرار التفاهم والوئام بين الزوجين.

أعرف قصصاً كثيرة لفتيات قطعن شوطاً كبيراً في درب العلم، وحزن على شهادات عالية، تزوجن من أزواج لم يكملوا تعليمهم الإعدادي أو الثانوي، ولكن جيوبهم مليئة بالمال، ظناً منهنّ أن المال يغطي على نقص الثقافة والعلم...

أشهر قليلة فقط... اكتشفن بعدها خطأ نظريتهنّ...

بعضهن آلت بهن الحال إلى الطلاق، وأخريات فضلن استمرار العلاقة الزوجية رغم البؤس والشقاء...

كل ذلك بسبب فساد موازينهنّ عن معايير الزواج...

مسؤولية الوالدين:

عندما نتساءل: على من تقع المسؤولية في هذا؟!

يأتي الجواب حاسماً جازماً: على الوالدين...

كان على والديّ الفتاة أن يفهماها كيف تختار عريسها، وما هي المعايير اللازمة لذلك!!

---

(1) رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، باب: الأكفاء (1968). وصححه الألباني.

وهـذه المشـكلة تكـون كبـيرة، عندمـا نكتشـف أن نظـرة الأبويـن إلى معايـير الـزواج تحتـاج إلى تقويـم وإصـلاح، فكيـف لهـما أن يقومـا بتعليـم أولادهـم مـا يجهلونـه، والقاعـدة تقـول: فاقـد الـشيء لا يعطيـه!!

نحـن اليـوم نفـرّط في الديـن مقابل المال، وننسـى أن المـال ظلّ زائـل، وأن الله يعطـي الدنيـا مـن يحـبّ ومن لا يحـب، ولا يعطـي الدين إلا مـن يحب...

ما أجمل أن تبنى البيوت الزوجية على الإيمان والمبادئ والأخلاق السامية!!

في تلـك البيـوت نـرى الـزوج الـذي يحـبّ زوجتـه ويكرمهـا ويحسـن إليهـا، ينظـر إليهـا عـلى أنهـا ملكـة الجـمال، التي تحـوز على قلبـه وعقلـه، فلا تطـرف عينه إلى غيرهـا، ولا يرغـب إلا بهـا...

نـرى الـزوج الذي يتذكـر دائماً قول النبي ﷺ: **(استـوصوا بالنسـاء خـيراً)**[1]. وقولـه: **(خيركـم خيركم لأهلـه، وأنا خيركـم لأهلي)**[2].

مـا أجمـل أن تجتمـع الزوجـة وزوجهـا على حـبّ الله تعـالى، وعلى فعـل كل ما يـرضى عنـه، واجتنـاب كل ما ينهـى عنه!!

إذا قـام أحدهمـا في جـوف الليـل يناجـي ربـه أيقظ الآخـر، واجتمعـا معاً على طاعـة الله ورضوانـه، مصداقـاً لحديـث النبـي ﷺ: **(إذا اسـتيقظ الرجل مـن الليل، فأيقـظ أهلـه، وصلّيـا ركعتين، كتبـا من الذاكريـن الله والذاكـرات)**[3].

وما أجمل أن تذكّر الزوجة زوجها عندما ينطلق إلى عمله في الصباح قائلة:

أصبرُ على شظف العيش ولا أصبرُ على الحرام...

إياك والحرام يا فلان... فأيّما جسم نبت من سُحتٍ فالنار أولى به.

---

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب: النكاح، باب: الوصاة بالنساء (5186).

(2) رواه الترمذي، عن عائشة، باب فضل أزواج النبي، رقم 3895، وصححه الألباني.

(3) رواه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: الصلاة، باب: الحث على قيام الليل (1451)، وصححه الألباني.

المال ظلّ زائل:

أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها استطاعت أن تدرك بفطرتها السليمة الميزان الصحيح لسلّم الأولويات في معايير الزواج، فقد أرسلت إلى النبي ﷺ، ولم يكن قد بعث برسالة الإسلام وقتها، تقول له: **يا بن عمّ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك في قومك وحسن خلقك وصدق حديثك**[1].

وما فعلته السيدة خديجة كان غريباً عن عادات قومها، التي تعتبر المرأة مطلوبة لا طالبة، وتؤكد على أهمية التكافؤ بين الزوجين وخصوصاً في النسب والمال، ولكنّها قررت أن تقلب موازين قومها رأساً على عقب، فطلبت الزواج من رجل فقير لا يملك المال، ولكنه يملك كلّ مقومات الزوج الناجح المتفوّق على أقرانه...

أيكون المال عقبةً في وجه إتمام زواجٍ تراه ناجحاً بكل أبعاده؟!

كلا...

إن المال ظلّ زائل، والأخلاق والمبادئ ركن ثابت، ولا يقاس الزائل بالثابت...

وأصابت خديجة، ولم يحمل التاريخ في طيّات ذكرياته عنها وعن زوجها محمد ﷺ أيّ خلاف أو نزاع، وما ذاك إلا لأن زواجهما بني على أسسس متينة تدعى: مقوّمات الزواج الناجح ومفاتيحه الحقيقية.

سلّم الأولويات:

بعض الفتيات تدافع عن رأيها في مقوّمات الزواج فتقول:

نعم... ما تقولينه صحيح، وأنا أريد المال والجمال إلى جانب الدين والعقل والأخلاق...

أقول: فازت وربحت كل فتاة حصلت على هذه المواصفات، ونِعمَ الزوج ذاك.. ونِعمَتِ الزيجة تلك!!

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 2/ 7.

ولكنَّ هذا يا عزيزتي لا يحدث غالباً إلا في الأحلام، أما الواقع فشيء آخر، ونادراً ما تجتمع هذه المواصفات في عريس، وعلى الفتاة غالباً أن ترتّب المواصفات في سلّم الأولويات، لتتنازل عن المهمّ مقابل الأهمّ...

فما هو الأهمّ في رأي الفتيات: هل هو الدين، أم الجمال، أم العلم، أم المال والجاه؟

الإسلام يقول: **الدين هو الأهمّ في سلم الأولويات: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه.**

ولكن... هل جواب الفتيات يوافق ذلك أم يخالفه؟!

سؤال تختلف الأجوبة عنه من فتاة إلى أخرى...

* * *

التديّن الحقيقي:

هناك اعتراضٌ آخر يتشدّق به كثير من الناس عند الحديث عن دين الزوج وأخلاقه فيقولون: نعرف كثيراً من الأزواج المتدينين، الذين يسيئون إلى زوجاتهم، فكيف يستحق الدين أن يكون في أولى درجات سلّم الأولويات؟!

الجواب عن هذا الاعتراض لا يحتاج إلى كثير تدقيق وإمعان، ذلك أننا حينما نتحدث عن الدين لا نعني به شكل الدين ومظهره، بل حقيقته وجوهره...

إنه الدين الذي يتدخّل في طريقة تفكير الشخص وقناعاته وسلوكياته، ليكون حاجزاً له عن ارتكاب المحرمات، ودافعاً له إلى فعل الطاعات...

وبدهيّ أن الشخص المتدين حسب هذا المفهوم لا يمكن أن يسيء معاملة زوجته أو يظلمها، بل يحسن إليها بأفعاله وأقواله ونظراته وأفكاره.

عندما أتحدث عن إحسان الزوج إلى زوجته بنظراته وأفكاره، أتذكّر القصة التالية:

يحكى أن شخصين اجتمعا في مكان ما، فقال أحدهما: المرأة كالحذاء، ما تزال تلبس حذاءً وتخلع آخر حتى تعثر على بغيتك..

رفع الآخر حاجبيه وقال: **هذا صحيح، فمن يرى نفسه قدماً يرى زوجته حذاء، أما من يرى نفسه رأساً فإنه يرى زوجته تاجاً يزيّنه...**

يقال في هذا: اختاري زوجك بعقلك قبل أن تختاريه بعينيك.

ويقال أيضاً: من أخطاء العيون أنها تؤثر جمال الصورة على جمال الروح. والحياة من دون امرأةٍ محبرةٌ بدون مداد... وهي بدون رجلٍ قفصٌ بدون عصفور...

يحكى أن والد الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك كان عبداً يعمل في مزرعة أحد الأثرياء. طلب إليه سيده يوماً أن يأتيه برمّانة حلوة من رمّان البستان، فجاءه بواحدة، فلما ذاقها صاحب البستان وجدها حامضة، فكرّر الطلب فجاءه العبد برمّانة أخرى، فوجدها حامضة، فاستغرب السيد وصاح قائلاً: طلبتُ منك أن تجلب رمّانة حلوة لا حامضة، ألا تعرف الحلو من الحامض يا هذا؟

أجاب العبد: وكيف لي أن أعرف يا سيدي وأنا لم أتذوّق ثمار البستان؟!

سأله بدهشة: ولِمَ؟!

قال: لأنك لم تأذن لي بذلك...

وقف التاجر مبهوراً أمام هذا الدين الحقيقي، الذي أورث صاحبه ورعاً وتقوى وطاعةً والتزاماً.

بعد أيام من تلك الحادثة زفَّت ابنة السيد عروساً إلى ذلك العبد التقي...

وكان من ثمرة ذلك الزواج المبارك الإمام الزاهد التقي الورع عبد الله بن المبارك...

* * *

ليس كل المتوجّهين للزواج يطلبون الدين والورع والتقوى..

هناك من يطلب بدلاً من ذلك (كيلو ذهب وعرس مطنطن)!

ما معنى هذا؟!

تابعوا معي معنى هذا الكلام في الصفحات التالية.

كِيلو ذهبْ
وعُرَس مطنْطنْ

عزوف الشباب عن الزواج:

يعزف كثيرٌ من الشباب اليوم عن الزواج، وربما يستبدلونه بما حرم الله تعالى، محاولين إلباسه أقنعةً عديدةً، تندرج تحت مسمياتٍ عديدة...

بينما يلتزم كثيرٌ منهم بالضوابط الشرعية، فيقمعون الشهوة والغريزة الفطرية، ويلاقون في سبيل ذلك ما يلاقون من صعوباتٍ وعوائق، ويتعرضون جراء ذلك للأمراض الجسدية والنفسية...

وماذا عن الفتيات؟!

لسن أحسنَ حالاً!

تبقى الفتاة تعدّ الأيام والليالي، الشهور والسنوات، وهي تنتظر العريس الذي باتت عمرها تحلم به وبحصانه الأبيض، وبيديه القويتين الحانيتين، اللتين ستحملانها برفقٍ وحبٍّ فوق ذلك الحصان الذي سيطير بها في عالمٍ لازورديٍّ ساحر.

لو استطعنا أن نسمع بوح النفس عند الفتاة لسمعناها تقول:

متى يأتي ترى بطلي؟!
فقد خبأتُ في قلبي له زوجاً من الحجلِ
وقد خبأتُ في ثغري له كوزاً من العسلِ
متى يأتي على فرسٍ له مجدولةِ الخصلِ
فمنذ طفولتي وأنا أمدُّ على شبابيكي حبال الشوق والأملِ
وأغزل شعري الذهبيَّ كي يصعد
على خصلاته بطلي!

وتمضي الأيام تلو الأيام، والفتاة تتقلب على جمر الانتظار أملاً في قدوم العريس المرتقب، وتظل السنواتُ التي تمضي تأكل من شبابها وحيويتها ونضارتها، إلى أن يأتي يومٌ تتيقّن فيه المسكينة من فوات الفرصة، فتلملم جراحها، وتنكفئ على ذاتها، تجترّ آلامها وأوجاعها، وتتجرّع كأس حسرتها وندامتها بصمتٍ مرير، وربما يدفعها هذا أحياناً إلى الثورة على التشريع والتقاليد، لتُشبع بالحرام ذلك الظمأ الذي طالما حرمها متعة النوم والراحة.

الأصوات القادمة من قلب الشباب النابض، الملتهب بنار الرغبة الصادقة بالزواج، والذي كبّلته في نفس الوقت تكاليف الزواج ورهق العادات، تنادي بأعلى الصوت:

إلى أين؟ ومتى؟ وكيف؟ فقد بعد المشوار وطال الانتظار...

* * *

قصص واقعية:

سأحكي لكم قصة قريبي معاذ...

معاذ شابٌّ ناهز السابعة والثلاثين من عمره، ولم يتزوج بعد، رغم أنه يملك كل مقوّمات الزوج الناجح: علمٌ ودينٌ وأخلاق، ومسحة من الوسامة والطهر والبراءة، جعلته قريباً إلى قلب كل من يراه.

سألتُه باستغرابٍ عن سبب عزوفه عن الزواج، فابتسم باستحياءٍ ممزوجٍ بالألم وقال: إرادة الله.

بعد مدةٍ علمتُ من والدته أن قلّة ذات اليد جعلته يعرض عن الزواج مؤقتاً، ريثما يؤمّن المنزل والمهر والتلبيسة وتكاليف العرس وشهر العسل.

سكتت والدة معاذٍ هنيهةً، ثم قالت بصوت مجروح: كلما أعجبتنا فتاةٌ وخطبناها، وقفت في وجهنا العقبات المادية.. تصوري يا بنتي... ابني عنده

بيتٌ في الضاحية الفلانية، ولكن أغلب الفتيات يرغبن ببيتٍ في لبّ البلد، وعندهنَّ قائمة لا تنتهي من الطلبات، ولذلك قرّر معاذ أن يؤجّل زواجه حتى يستطيع تأمين كل تلك الطلبات.

نظرتُ إلى أم معاذٍ نظرةَ إشفاق، وتذكرتُ **قصة إحدى معارفي**، وقد خُطبت إلى رجل، أخبرتني والدتها أنه أمهرها مليون ليرة، نصفها معجلٌ ونصفها مؤجّل، ولما فتحتُ فمي دهشةً من هذا الرقم المبالغ فيه، علّقت بزهوّ: هذا مهر ابنتي.. وهي تساوي أكثر من ذلك.. ولن أعطيها لأحدٍ مجاناً!

دُعيتُ إلى حفل زفافها في أفخم صالات المدينة، ولكنني لم ألبّ تلك الدعوة لسببٍ ما، وقد ذكر لي من حضر الحفل كثيراً من التفاصيل الباذخة، بدءاً من باقات الورود التي اصطفت لترحب بالضيوف منذ عتبة الرصيف الذي يواجه باب الصالة، وحتى الأسكي الذي يجلس عليه العروسان، ومروراً بالبوفيه المفتوح الذي يعج بما لذ وطاب من الأطعمة، وانتهاءً بالألماس الفاخر الذي ألبسه العريس لعروسته، وكاميرات التصوير...

بعد مدةٍ زرتها في بيتها الزوجيّ لأبارك لها ولزوجها، فأصابتني الدهشة إلى درجة الصدمة: كان بيتها في إحدى الضواحي النائية، ولا تتجاوز مساحته الـ60 متراً مربعاً، في بناء قديم متواضع، وفيه عفشٌ متواضع...

كان الوقت حاراً جداً، والمروحة الصغيرة المركونة في زاوية الغرفة لا تسمن ولا تغني من جوع.

حوّلتُ وجهي هنا وهناك أبحث عن مكيّفٍ ينجدنا من الحر، ولكني لم أعثر عليه.

أبت مخيلتي إلا أن تفسد عليّ متعة الجلسة، ورحتُ أعقد مقارنةً بين مصاريف عرسها الذي كلّف الكثير الكثير، وبين الوضع الحالي الذي تعيشه...

لم أستطع إلا أن أرثي لحالها وحال زوجها رغم حنقي الشديد منهما وعليهما، وقلتُ لنفسي: مساكين... كبّلوا أنفسهم بقيود العادات والتقاليد،

وحسبوا حساب الناس، في الوقت الذي لن يفيدهم فيه أحدٌ ولا حتى بربطة خبزٍ أو علبة دواء...

زهوة العرس وفرحته هي في ليلةٍ واحدة، ثم تمضي كما يمضي غيرها من الأيام، ويبقى أمام العروسين الكثير من السنوات العجاف التي لا ترحم: المصروف الشهري المرهق، فواتير الكهرباء والماء والهاتف، نفقات المواصلات، مصاريف التدفئة والثياب، تكاليف الحمل والولادة والطبابة والأدوية.. لن يشفع لكل هذا لا المهر الغالي، ولا التلبيسة الفاخرة، ولا العرس الجميل...

كلنا يتذكر ويردد المثل القائل: خبّيء قرشك الأبيض ليومك الأسود، ولكن قليلون هم الذين يستطيعون الاستفادة منه وتطبيقه.

عندما أنظر إلى شبابنا العزاب أرثي لحالهم، إذ عليهم عندما يريدون الإقدام على الزواج تأمين المسكن والسيارة والفرش والمستلزمات الأساسية، وفوق هذا تأتي تكاليف الزواج المرهقة لتزيد في همومهم وآلامهم ومتاعبهم...

التمس ولو خاتماً من حديد:

نبدأ حديثنا عن هذه الهموم والمتاعب بالحديث عن **المهور**، والتي يفترض بها أن تكون أمراً رمزياً، القصد منه إعزاز المرأة وتكريمها بهديةٍ رمزيةٍ هي عربون صدقٍ من العريس، تدل على إخلاص نيته ورغبته الحقيقية بالزواج.

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾[1] والنِحلة هي الهدية.

إذاً، المفترض أن يكون المهر هديةً، وليس عقبةً تكبّل الشاب، فتجعله يحجم عن الزواج أو يؤجّله...

ولكنَّ ما يحدث اليوم هو عكس هذا، لأنَّ **مفهوم المهر انقلب من رمزيٍّ إلى ماديّ**، وبات المفهوم الشائع أنه كلما ارتفع مهر البنت كان هذا دليلاً على أهميتها، أو: إذا دفع العريس مهراً غالياً، كان هذا المهر دافعاً له على أن يحرص

(1) سورة النساء: الآية: (4).

على زوجته، ويهتمّ بها ويعاملها معاملة حسنة، وراح بعض الأولياء يرددون: التيسير في المهور يجرّ إلى التهاون بالزوجة والتفريط بها.

ذكرت لي إحدى معارفي قصة قريبها الذي ذهب بصحبة والدته لخطبة إحدى الفتيات، وأثناء الجلسة التي يتم فيها تحديد المهر، قالت أم العروس: ابنتي تساوي أكثر من هذا. فأجابتها أم العريس: إذا كانت بنتك تساوي أكثر من هذا، فإن ابني لا يساويه مال الدنيا كله.

الحقيقة أنه لو كان المهر يحدّد مكانة المرأة الاجتماعية، لكان من المفترض أن تكون مهور بنات النبي ﷺ ومهور نسائه من أكثر المهور غلاءً، ولكن الواقع يثبت أن **أكثر صداق أمهره النبي ﷺ لنسائه أو طلبه لبناته كان أربعين مثقالاً ذهباً، وهو ما يساوي اليوم 170 غراماً من الذهب تقريباً.**

بل لقد كان النبي ﷺ يمهر بعض نسائه أقلّ من هذا، وحسب ما يتيسر بين يديه، الأمر الذي يدل على أن تحديد المهر يعود إلى قدرة الزوج المادية، لا إلى مكانة الزوجة الاجتماعية أو المادية.

وهنا نتذكّر مهر أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، فقد أمهرها ﷺ بساطاً ووسادتين وكساء ورداءين أخضرين. وكذلك كان مهر أم سلمة رضي الله عنها.

وكان ﷺ دائم التعليم والتوجيه لصحابته نساء ورجالاً بخصوص التيسير في المهور، فكان يقول: **(خير الصداق أيسره)**[1].

ورد أن رجلاً جاء إلى النبي يريد الزواج ولا يجد مهراً، فقال له: التمس ولو خاتماً من حديد، فالتمس فلم يستطع أن يحصل حتى على خاتم من حديد، فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورة كذا وسورة كذا، فقال ﷺ: **(زوّجتكَها بما معك من القرآن)**[2].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، رقم 2692، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري عن سهل بن سعد ﷺ، في كتاب: فضائل القرآن، رقم (5029).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: إني تزوجت على ستين درهماً، فاستكثرها وقال: (**كأنما تنحتون الفضة من عُرْضِ هذا الجبل**)[1].

النظرة المادية المشوّهة لمفهوم المهر:

إذاً، ما هذه النظرة المادية المقزّمة والمشوّهة لمفهوم المهر، والتي تقف اليوم عائقاً أمام زواج كثير من الشباب والشابات؟!

قد تقول بعض الفتيات أو بعض أوليائهن: صحيحٌ أننا نطالب الشاب بمهر مرتفع، ولكن يبقى كله حبراً على ورق، فنحن فعلياً لا نأخذ منه المهر، ويبقى أغلبه أو كله غير مقبوض، فما الضير في ذلك؟!

والجواب عن هذا ينقسم إلى شقين:

الأول هو ما يحدث عندما تريد الفتاة أو أهلها مضايقة العريس لسبب أو لآخر، فتتقدم إلى المحكمة بالشكوى على زوجها، وتستطيع أن تسجنه إلى أن يؤدي لها المهر المعجّل، الذي لم تقبضه!

أما الشق الثاني فهو التساؤل: ما الهدف من هذه العملية؟!

ينحصر الجواب بأنَّ الفتاة وأهلها يريدون التباهي أمام المعارف والأقارب من وراء المغالاة بالمهور، وهو أمرٌ يبغضه الله تعالى ورسوله...

ولذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: ألا لا تُعلوا صداق النساء، فإنه لو كان مكرمةً في الدنيا أو تقوى من الله عز وجل، كان أولاكم به النبي ﷺ! ما أصدق رسول الله امرأةً من نسائه، ولا أُصدقت امرأةٌ من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية! إن الرجل ليُغلي صداق امرأته حتى يكون لها عداوةٌ في نفسه، وحتى يقول: كُلِّفتُ لكم عَلَق القِربة[2].

---

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب: النكاح، رقم (1424).

(2) رواه النسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في كتاب: النكاح، رقم (3349). وصححه الألباني.

وعَلق القربة: هو السير أو الحبل الذي تعلَّق به القربة، ويراد به: أنفقتُ كل ما أملك، عظيمه وحقيره.

بعض الآباء يظنون أن المهر الغالي يربط بين ابنتهم وزوجها، فلا يتمكّن الزوج من التفريط بها أو حتى التفكير بطلاقها...

ولكن الواقع يقول: كثيرون هم الأزواج الذين يكارهون زوجاتهم بكل ما أوتوا من حيلٍ ماكرةٍ وأساليب ملتوية، مما يدفع الزوجة إلى طلب الخلع والتنازل عن المتقدَّم والمتأخر، وربما تدفع له مبالغ إضافية مقابل أن يطلقها ويفك أسرها...

تلبيسة الذهب والماس:

أما التلبيسة، فبعض الأهالي يطلبون من العريس كيلو ذهب أو نصف كيلو، ويرغب البعض الآخر بالماس لأنه أجمل وأغلى وأشيك من الذهب (حسب رأيهم)، وتزداد المصيبة الواقعة على رأس العريس وجيبه عندما يقسَّم عقدُ الزواج إلى مراحل: خطبة ثم عقد زواج، ثم زفاف، وفي كل مرة يتوجب على العريس أن يقوم بالواجب على أكمله: حِلَقٌ وعقدٌ وأساورُ وخواتمُ وخلخال...

طبعاً ليس لهذا كله مستندٌ من قرآنٍ كريم أو سنةٍ شريفة، إنما هي أعراف وتقاليد بالية، تجرّ على العريس المصائب ووجَع الرأس...

ولائم الأعراس:

وعندما نتحدث عن **الولائم المصاحبة لحفلات عقد القران** وتوابعه من خطبةٍ وزفاف، نرى العجب العجاب: بذخ وإسراف يقصد منه التباهي والتفاخر والخيلاء على الأقران والمعارف والأقرباء!

وتكون المشكلة أكبر عندما يستدين البعض، ويكلّف نفسه فوق طاقتها لكيلا يظهر أمام الناس بمظهرٍ متواضع، يثير شفقة البعض وشماتة الآخرين.

يستدل كثيرون لما يفعلونه في هذه الولائم بقولهم: الدعوة إلى طعام العرس سنةٌ مستحبة لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف عندما أراد الزواج: (**أولِم ولو بشاة**)[1].

وفي الحقيقة، فات هؤلاء الهدف من وراء هذه السنة، وهو إعلان هذا العقد المقدس، والفرح لتمامه، ولهذا كان ﷺ يقول: (**أعلنوا النكاح**)[2].

وهذا الهدف يتحقق بدعوة الآخرين إلى شهود حفلة النكاح ووليمته، سواء كانت فاخرةً أم متواضعة، والأمر يعود إلى الأفراد حسب قدراتهم المادية والاعتبارية، وهو أمر يختلف من شخصٍ إلى آخر.

المهم أن لا يكلف الإنسان نفسه مالاً يطيق جلباً لامتداح الناس أو درءاً لمذمتهم...

كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى وليمةٍ في كل مرة يتزوج فيها، وتكون الوليمة حسبما يتيسّر ويتهيأ له، فكان تارةً يولم بشاة، وأحياناً بمُدّين من شعير، أو بتمر ولبن وسمن، وذلك حسبما أورد البخاري في صحيحه في باب: **الوليمة حق، وباب من أولم بأقل من شاة**، وما ذاك إلا ليؤكد المعاني السامية لدعوة الزفاف ووليمتها، وكان ﷺ يوصي صحابته بتلبية الدعوة ويقول: (**إذا دُعيَ أحدكم إلى الوليمة فليأتها**)[3]، ويقول: (**أجيبوا هذه الدعوة إذا دعيتم**)[4].

منكرات الأعراس:

وبمناسبة الحديث عن هذه الحفلات، لا يمكن أن نغضّ الطرف عما يصاحبها اليوم من الأغاني الماجنة والموسيقا الصاخبة، بحجة أن الأعراس يباح فيها ما لا يباح في غيرها!

---

(1) رواه البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، في كتاب النكاح، رقم(5167).

(2) رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، رقم (1895). وحسّنه الألباني.

(3) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، في كتاب: النكاح، رقم (5173).

(4) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، في كتاب: النكاح، رقم (5179).

صحيحٌ أن النبي ﷺ رخّص في الأعراس بالغناء والضرب بالغربال (أي الدُّف)، ولكنّ هذا مشروطٌ بعدة شروط، منها أن لا يكون أمام الرجال، وأن تكون معانيه منضبطة بما حلله الله تعالى دون ما حرمه.

ورد أن عائشة رضي الله عنها زفّت امرأةً إلى رجل من الأنصار، فقال ﷺ: **(يا عائشة، ما كان معكم لهوٌ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)**[1]**!!**

وفي رواية الطبراني أنه قال: **(فهل بعثتم معها جاريةً تضرب بالدف وتغني)**؟ قالت: تقول ماذا؟ فقال: تقول:

أتيناكم أتيناكم ... فحيّانا وحياكم

ولولا الذهب الأحمر ... ما حلّت بواديكم

ولولا الحنطة السمراء ... ما سمنت عذاريكم[2]

وهذا يدل على أن **اللهو المباح مستحب في حفلات الأعراس، والغناء اللطيف الذي يحتوي على معانٍ لطيفةٍ مندوبٌ إليه...**

أما ما يجري اليوم في الأعراس من المعاصي والمنكرات المتضمنة غناءً ماجناً وثياباً فاضحةً، والإسراف والتبذير للمباهاة والخيلاء، فكل هذا عاداتٌ وتقاليد ذميمة، علينا تقويمها وإرجاعها إلى جادة الصواب والتقوى...

تغيير عادات الزواج المذمومة:

قد يتساءل البعض: **كيف لنا أن نغير هذه العادات المألوفة؟!** أما سمعتِ المثل القائل: ترك المألوف أشدُّ من وَقع السيوف؟

أقول: قد يكون ترك المألوف صعباً على النفوس، ولكنه غير مستحيل، وخصوصاً عندما نتحدث عن مألوفاتٍ مخالفةٍ للشرع ولما يرضي الله تعالى.

---

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، رقم (5162).

(2) رواه الطبراني في الأوسط، رقم (3289)، وإسناده ضعف.

والحقيقة أن تغيير العادات المألوفة المتعلقة بالزواج وتقاليده، بحاجةٍ إلى المزيد من الجهود، لأن هذه العادات تخطّت كونها عاداتٍ فرديةً إلى أن أصبحت عادات مجتمعية متأصّلة في الصميم، وتحتاج لتغييرها إلى جهود متكاتفة من العلماء والدعاة والإعلاميين العاملين في مجال الإعلام بجميع أنواعه: المقروء والمسموع والمرئي، بالإضافة إلى دور الأسر المهمّ في تغيير هذه المفاهيم لدى شباب وشابات العائلة.

نحن بحاجة إلى تغيير نظرة المجتمع إلى هذه العادات، واستلاب صفة القداسة المسبقة عليها، وقد يبدأ بهذا أشخاصٌ معدودون، يلاقون في سبيل ذلك ما يلاقون من استهزاء أو اتهامات، ولكنهم دون شكٍّ سيكونون قادةً للتغيير والتبديل...

نتمنى أن يكثر في مجتمعنا وجود فتياتٍ يتمردن على هذه العادات، بعضهن تتنازل عن حفلة الزفاف، وأخرى عن المغالاة بالمهر، وثالثةٌ تقنع بوليمة متواضعة، ورابعةٌ ترضى بتلبيسةٍ رمزية... وخامسة وسادسة وسابعة...

عندها فقط نستطيع التغيير، وننتقل من إطار الأماني والكلام، إلى السلوكيات والأفعال...

وإذا المقالُ مع الفعالِ وزنتَهُ رجح الفعالُ وخفّ كل مقالِ

* * *

معظم الناس يعتبرون فترة الخطوبة فترةً مميزةً بجمالها وحميميّتها، فهل هي كذلك؟ وإذا كانت كذلك، فكيف يمكن أن تبقى الحياة كذلك بعد الزواج؟!

هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية، التي سنبحث فيها عن فترة الخطوبة:

هل هي فترة تعارفٍ جميل، أم فترة خداعٍ وتمثيل!

فترةُ الخُطوبة
تعارفٌ جميل ..
أم خِداعٌ وتمثيل !

عندما نتحدث عن مرحلة الخطوبة، تقفز إلى مخيّلتنا آلاف الصور الجميلة التي تقطفها عدسات الكاميرا للمخطوبين السعداء المتيّمين، وتتناهى إلى سمعنا أصداء الكلمات الحلوة العذبة المعسولة التي يتغزّلون بها، وتتداعى إلى أذهاننا القصص الجميلة عن المشاعر الرومانسية والعشق والهيام التي يتذوّقونها في أحلى أيام حياتهم المسمّاة بفترة الخطوبة...

الحياة عند المخطوبَين لونها ورديّ رغم لون دخان السيارات ومداخن المدافئ والمصانع...

وهم يعيشون في روضةٍ سماؤها صافية، وشمسها دافئة، ومياهها عذبة، وعصافيرها مزقزقة، وأزهارها متفتّحة، وأعشابها نديّة...

وقديماً سألوا الفيلسوف الساخر برناردشو عن فترة الخطوبة فأجاب: المخطوبون كالمجانين، يعيشون دائماً في نعيم...

نعم.. مجانين.. فقلوبهم تتعانق، وأرواحهم تتمازج، وهي تستمتع بعرنوس الذرة أو صحن البليلة في نزهةٍ شاعرية، وفي الخلفية صوت موسيقى يعزف على أوتار الحب في تصعيدٍ عاطفيٍ مستمرّ...

وعندما يفترقون في المساء، تتسلّل روح الخاطب لتصحب روح المخطوبة إلى فِراش الشوق، بينما يبقى جسد كلٍ منهما يتقلب على جمر الغضا ومرارة الشوق ولهيبه.

وقد يجد الطرفان في الهاتف وسيلةً بديلةً للتنفيس عما يعتريهما من مشاعر، فيستغرقان الساعات الطويلة في ثرثرةٍ، قد يجدها الكثيرون مملّةً خاليةً من أي معنى ومغزى، ولكنها بالنسبة إليهما حلوةٌ وجذّابةٌ وممتعة...

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: **هل هذه الصور الجميلة عن الخِطبة تحدث دائماً؟**

وهل تعكس هذه الصور واقع المستقبل الذي ينتظر الخطيبين؟ أم أنها صورٌ وهميةٌ مكذوبةٌ مفبركة، لا يلبث الطرفان أن يكتشفا زيفها بعد الزواج؟

* * *

خطوبة غريبة عجيبة:

اجتمعتُ مرة بإحدى معارفنا، وهي بعمر جدتي تقريباً.

حدثتني عن قصة زواجها، الأمر الذي جعل جسدي يقشعرّ لهول الطريقة التي كانت تتمّ بها الخِطبة ثم الزواج...

قالت: قدم إلى منزلنا ثلاث نسوةٍ، وكنت آنذاك في الثالثة عشرة من عمري...

كنت ألعب مع أولاد عمي في بهو المنزل، عندما نادتني والدتي وطلبت إليّ أن أغسل وجهي ويديّ وأرتدي ثياب العيد...

وبعد أن صنعت أمي القهوة، حملتها أنا وأدخلتها إلى الضيوف...

لم أكن أعلم في البداية سبب مجيئهم...

كانت الأسئلة تتهافت عليّ من كل جانب، وكنت أجيب ببساطةٍ وعفوية...

في المساء علمت من خلال حدي دار بين والدي ووالدتي أن تلك السيدات كنّ خاطبات، وأنهنّ يطلبن يدي للزواج من ولدهم...

طبعاً استنكرتُ ذلك في داخلي، وخرجتُ من الغرفة دون مبالاةٍ، لأكمل لعبي مع الأولاد، ظناً مني أن الأمر مجرد حديثٍ عابر...

فوجئتُ بعد يومين بتكرار الزيارة من قبل الخاطبات، وسمعتُ همهمةً بين والدي ووالدتي عن المهر والتلبيسة والعرس، ومع ذلك كله لم أستطع أن أحمل الأمر محمَل الجّد، خصوصاً وأنهما كانا يتحدثان عني غيابياً أو خلسة، وكأنّ الأمر لا يعنيني...

لم يسألني أحدٌ عن رأيي في الخطبة والزواج بشكلٍ عام أو خاص...

وافق أهلي على الزواج، وقدم أهل العريس ليلبسوني خاتم الخطبة، وتمّ تحديد موعد الزفاف بعد 20 يوماً بالتمام والكمال...

لم أرَ عريسي إلا ليلة الزِّفاف، وحينما أدخلُت إلى غرفة النوم كان جسمي يرتعش كعصفورٍ مبلّل في يوم شاتٍ، أما عيناي فكانتا نصف مغلقتين، وعندما نظرت إليه من خلال الفتحة الضيقة المتبقّية فيهما، أحسستُ أنه وحشٌ يريد افتراسي...

ولا أخفيك أني عشت معه خمسين سنة، وكلّما نظرت إليه تذكّرت يوم الزّفاف، حين أُدخلت إلى غرفته، والرّعب يأكل قلبي ويبتلع لساني ويشلّ عقلي وتفكيري...

وما يزال يرنّ في أذنيَّ إلى الآن صدى صوت والدته، وهي تفتح باب الغرفة، وتشير بيدها إلى الرجل الواقف بجانب السرير، وتقول: إنه عريسك يا ابنتي... عريسك...

شعرتُ بالهلع لمجرد سماع تلك القصة، وتصوّرت نفسي مكان تلك المسكينة. بادرتها متسائلة: ولماذا لم تطلبي أن تري عريسك قبل يوم الزفاف؟

ضحكت بسخريةٍ وقالت: أطلب أن أراه؟! هذا في نظر والدي عيبٌ ومخالُف للأدب، وحرامٌ أيضاً.

هززت رأسي عجباً من تلك العادات والتقاليد التي يدّعي أصحابها أنها إسلامية، في الوقت الذي لا يحتاج فيه الأمر إلى كثيرٍ من التمعّن والتمحيص لمعرفة أنها عاداتٌ جاهلية لا إسلامية...

حمدتُ الله تعالى على تغّير هذه العادات الذميمة، فقد باتت الفتاة اليوم والحمد لله تُستأذَن في زوج المستقبل، ويُسمح لها أن ترى الخاطب ويراها، تكلّمه ويكلّمها، وتجلس معه ويجلس معها...

انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما:

تعاليم النبي ﷺ في أهميّة نظر الخاطب إلى مخطوبته واضحة ليس فيها أيّ غموض.

يروى أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه خطب امرأة، فقال له النبي ﷺ: **(انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدَم بينكما)**[1]، (أي يُصلح ويؤلَّف).

ويروى أيضاً أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار دون أن يراها، فقال له النبي ﷺ: **(أنظرتَ إليها؟ فقال: لا. فقال: اذهب فانظر إليها، فإنّ في أعين الأنصار شيئاً)**[2]، (أي صغراً)

هدف النبي ﷺ من وصيته لصحابته بالنظر والتدقيق في الخاطب والمخطوبة، بناءُ عقد الزواج على قواعدَ متينة من القناعة والرضا والرغبة الحقيقية الصادقة، وهذا الأمر طبعاً لن يكون في ظلّ العادات الجاهلية العجيبة، حيث كان وليُّ أمر الفتاة يزوجها دون استئذانها، ودون أن ترى عريسها أو يراها...

استئذان المخطوبة:

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يؤكّد على الأولياء بضرورة استشارة الفتاة في الخاطب الراغب بالزواج منها، فيقول: **(لا تُنكح الأيّم حتى تُستأمَر، ولا تُنكَح البكر حتى تُستأذن. قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت)**[3].

---

(1) ـ رواه الترمذي عن المغيرة بن شعبة، في كتاب: النكاح، رقم (1087). وصححه الألباني.

(2) ـ رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب: النكاح، رقم (1242).

(3) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب: النكاح، رقم (5136). والمراد بالأيّم في الحديث: الثيّب المتوفى عنها زوجها أو المطلقة، وتستأمر: أي يطلب أمرها وإذنها الصريح بالزواج.

ذلك أن حالة الخجل التي قد تعتري البكر، التي لم يسبق لها تجربة زواج، تتطلّب أن يكون سكوتها في بعض الأحيان علامةً على رضاها وإذنها بالزواج، أما الأيم التي سبق لها أن جربت الزواج من قبل، فلا بدّ من طلب إذنها بشكلٍ علنيّ...

ولما جاءته إحدى النساء تشتكي أن أباها زوّجها من ابن أخيه بدون أن يستشيرها ويستأذنها، جعل النبي ﷺ أمرها إليها، فقالت: قد أجزتُ ما فعل أبي، ولكني أردتُ أن أُعلّم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء[1].

ومن هذا أيضاً ما روي أن خنساء بنت خذام الأنصارية زوّجها أبوها وهي ثيّب، فكرهت ذلك، فأتت النبي ﷺ، فردّ نكاحه[2].

أحكام الخطبة:

ولكن... عندما ننظر إلى ما تفعله فتيات هذه الأيام أثناء الخطبة من خلع الحجاب أمام الخاطب، والجلوس معه على انفراد، والذهاب إلى هنا وهناك دون رقيب ولا ضابط، ندرك مدى التحلّل الذي أصاب فتياتنا وعوائلنا، وندرك أيضاً أننا بتنا محاصَرين بين فكّي إفراط الماضي وتفريط الحاضر، بينما تغيب الوسطيّة في كثير من الأحيان.

أحياناً يلتبس الأمر على الكثيرين، فيظنون أن الخطبة عقد زواج شرعي، يبيح للخاطب كلّ أو بعض ما يبيحه عقد الزواج، من قبلةٍ وخلوةٍ ولمسةٍ وما إلى ذلك..

ولكنّ هذا مفهومٌ خاطئ، والجهل بالدين ليس عذراً، يحلّ الجاهل من الإثم والخطيئة، ولا بدّ لهؤلاء أن يعيدوا صياغة مفاهيمهم من جديد، بناء على رؤى دينيةٍ وسطيةٍ صحيحة.

---

(1) رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، رقم (3269). وإسناده صحيح.

(2) أخرجه البخاري عن خنساء بنت خذام، باب إذا زوّج ابنته، رقم: 5138.

الخطبة وعد بالزواج:

الخِطبة هي مجرّد وعدٍ بالزواج وليست زواجاً، والزواج لا يتمّ إلا بشروط معيّنة ومحدّدة، وهي: وجود الوليّ، والشهود، وتبادل ألفاظ القبول والإيجاب، أي أن يقول الولي بعد استشارة وموافقة ابنته أو من تحت ولايته: زوَّجتك ابنتي فلانة، على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى مهرٍ قدره كذا وكذا، (مقبوضٍ أو غير مقبوض)، بحضور الشهود والله خير الشاهدين.

ويجيب العريس: وأنا قبلتُ الزواج من ابنتك (أو أختك..) فلانة، على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وعلى المهر الذي ذكرت، بحضور الشهود والله خير الشاهدين.

إن وجدت هذه الشروط فقد تمّ عقد الزواج، سواء سمّي باسم الخطبة أو عقد القران أو عقد النكاح أو الزفاف أو غير ذلك، فالعبرة بالمسمّيات لا بالأسماء... أما ما يجري اليوم عندما يجتمع أقرباء العريس والعروس ويقرؤون الفاتحة على نيّة الزواج، دون إيجابٍ وقبولٍ وشهود، فليس عقد زواج، بل هو خطبةٌ ووعدٌ بالزواج، ولا يباح للخاطبٍ في هذه الحال أن يرى من مخطوبته إلا ما يجوز أن يراه الرجال الأجانب منها، أي وجهها وكفيها، ويبقى حديثه وجلوسه معها مشروطاً بعدم تجاوز ما أحلّه الله تعالى من الالتزام بالكلام المحتشم المنضبط، وفي ظل وجود أحد الأقارب أو المعارف...

الخطبة فترة اختبار وتعارف:

قد تعترض بعض بنات هذا الجيل على هذا الكلام فتقول: أليس **الهدف من الخطبة اختبار الخطيبين لبعضهما، والتأكّد من مدى مناسبة أحدهما للآخر؟**

أجيبها: طبعاً بلى..

فتستطرد قائلة: كيف للخطيبين إذاً أن يختبرا بعضهما في ظلّ وجود هذه الشروط؟

أقول: هناك أصولٌ اجتماعية، وهناك قواعد شرعية، وهناك إجراءاتٌ قانونية، ومن فرَّط في واحدةٍ من هذه الثلاثة، فإنَّ له في ما نشهده عظةً وعبرة!

فكثيراً ما نشهد حفلاتٍ باذخةً وخواتم فاخرةً وموائد عامرةً، ثم نسمع بعد ذلك أن المشاكل بين العائلتين استفحلت إلى درجة جعلتهما علكةً في فم المجتمع، وأن بعض خصوصيات الخطيبين يتناولها ويتداولها القاصي والداني!

وكثيراً ما نشهد زيجاتٍ فاشلةً لم تستمرّ أكثر من بضعة شهور، رغم أن الزوجين تحلّلا من كل الضوابط الشرعية أثناء الخطبة، ومع ذلك لم يستطع أحدهما أن يكتشف في الآخر أثناء هذه الفترة أيّ عيبٍ أو خللٍ، لا يتوافق مع متطلّباته ورغباته وطبائعه...

وسبب ذلك هو ما يفعله الخطيبان من المراءاة والمداهنة، عن قصدٍ أو عن غير قصد، إذ يحاول كلٌّ منهما أن يتودّد إلى الآخر مظهراً حسناته ومخفياً عيوبه، بحيث تغدو فترة الخطبة تمثيليةً مفبركة، الأمر الذي يفقدها قيمتها وأهميتها المستمدّة من كونها فترة تعارفٍ واختبارٍ قبل إتمام أقدس علاقةٍ وأطهرها على وجه الأرض...

ولهذا، فإن ما يعين الخطيبين على أن تكون فترة الخطبة بالنسبة لهما فترة تعارف واختبار حقيقي، لا يمكن قياسه بمدى تفلّت الطرفين من الضوابط والقيود، بل المقياس الحقيقي هو الصراحة والشفافيّة والصدق في التعامل بينهما...

هل فترة الخطوبة فترة نفاق وخداع؟

سئل كثيرٌ من الأزواج والزوجات عن فترة الخطوبة، التي مرّوا بها فأجابوا:

- هي فترةُ نفاقٍ وخداع وكذب ونصب واحتيال.

وأفاض كلٌّ منهم في ذكر الأسباب لمقولته تلك...

إحدى النساء ذكرت تجربتها المريرة، وهي تغالب دموعها، فقالت:

– بالنسبة لي كنت أرى كل شيء فيه لطيفاً جذّاباً: حديثه، طبعه، أخلاقه... وكنت فخورة جداً.. لأنني استطعت أن أحصل على طلباتي بيسر وسهولة... فقد كان ثرياً يملك بيتاً جميلاً وسيارة حديثة...

بعد الزواج كانت الطامة الكبرى...

اكتشفتُ عيوبه القاتلة التي دمّرت سعادتنا وحياتنا الزوجية.

كان ذلك بعد انتهاء شهر العسل، حين بدأت الأقنعة المزيّفة تتساقط واحدةً تلو الأخرى: الكذب.. سوء الأخلاق.. الثرثرة والفشورة.. الطباع السيّئة.. والأدهش من هذا أن البيت والسيارة لم يكونا ملكاً له، بل مستأجرين لمدة سنتين، سنةٌ مضت في فترة الخطوبة وسنةٌ بعدها...

ولست أدري أين سنسكن بعد مضي الفترة المحددة، وهل سيكفي راتبه الضئيل لشراء أو حتى لاستئجار البديل؟!

أمّا أحد الأزواج، فقد سرد لنا تجربته وهو يعضّ على شفتيه بين الفينة والأخرى قائلاً:

– باختصار... كانت أثناء الخطبة مثال الزوجة الكاملة الفاضلة الهيّنة اللّيّنة...

كلما طلبتُ منها شيئاً أجابت: طلباتك أوامر يا حبيبي، اطلب واتمنّى...

وكنت أظن نفسي أسعد إنسانٍ في العالم، إذ حصّلت على الفعل والشكل...

بعد الزواج ظهرت لي الحقيقة المرّة جليّةً واضحة: العيون الزرقاء كانت عدسات، والشعر الأملس كان بفضل السيشوار، والقوام الرشيق كان بسبب عمليات الشدّ والشفط التي قامت بها ثلاث مرات، الأمر الذي أكسبها جمالاً ظاهريّاً فقط، أما المستور.. فلا يمكن وصفه!

ونأتي إلى أهمّ موضوع: الخلق الحسن والطباع اللّيّنة التي كانت تتظاهر بها فترة الخطوبة انقلبت 180 درجة، فقد باتت كالوحش المفترس، لا يوفّر ضحيّته ولا يرحمها...

هاتان القصتان من الواقع تتشابكان مع كثيرٍ من القصص في الطريقة والكيفية والنتيجة الملخّصة بكلمتين: خدعْتَني.. خدعتِيني!

تودد وتزلّف الخطيبين لبعضهما:

بعض الناس يحاولون تبرير ما يمرّ به الخطيبان من كذب وخداع بالنيّة الحسنة، فيقولون: لا نوافق على أنها فترة نفاق، ولكنها فترة تعارفٍ يحاول خلالها كل طرفٍ منهما أن يظهر للآخر أجمل ما فيه، ليس بقصد الخداع، بل لكسب حبّ الآخر واحترامه وإعجابه...

فالاختلاط في هذه الفترة يكون سطحيّاً، ويجري في مكان هادئ رومانسيٍّ وجذّاب، ويتمّ الحديث فيه عن العاطفة وتوهّج الحب، ويخلو غالباً من النقاش الفكريّ العقلانيّ، ويبتعد عن منغّصات الحياة اليومية، الأمر الذي يحجب عن الطرفين معرفة حقيقة طبائع ونفسيّة وعقليّة كلّ منهما...

أهمية الصراحة بين الخطيبين:

أقول: سواءً أكان النفاق والخداع هو السبب في حجب حقيقة الخطيبين، أو التودّد والتزلّف، فإن هذا يؤدّي بشكلٍ أو بآخر إلى فقدان الخِطبة لقيمتها، ويحوّلها إلى مجرّد مظهرٍ يؤدّي إلى تهلهل العلاقة بين الطرفين وضعفها وتمزّقها بدل تمتينها وتقويتها.

ذكرت لي إحدى معارفي كيف كانت فترة الخطوبة بالنسبة لها فترة امتحانٍ حقيقي، تعرّفت من خلالها على كل صفات خطيبها الجيدة والرديئة، ورغم قساوة المواقف التي كانت تواجهها آنذاك بسبب هذه الشفافيّة الكاملة والصراحة اللّامتناهية، والتي كانت تفسد عليهما جمال تلك الفترة ورونقها في كثيرٍ من الأحيان، إلا أنها اليوم مسرورةٌ جداً لاكتشاف مكنّونات خطيبها منذ فترة الخطوبة، وليس بعد الزواج، لأن هذا (في رأيها) يتيح للطرفين أن يتخذا قرارهما الجريء والمناسب، إمّا بفسخ الخطبة ليذهب كل واحدٍ منهما في

حال سبيله باحثاً عن شريكٍ جديد، وإما في استمرارها وتحدّي تلك العقبات والصعوبات، التي تسبّبها الصراحة والوضوح وقت الخطوبة، لتنقلب الخطبة بعد فترةٍ إلى رباطٍ زوجي مقدسٍ يجب الحفاظ عليه، طالما أنه تمّ اختياره عن رضى وقناعةٍ وتصميم مسبق، رغم معرفة كلٍّ منهما لعيوب الآخر ومساوئه... والأهم في هذا كله، هو أن فترة استمتاع الطرفين ببعضهما لن تبقى حكراً على فترة الخطوبة، كما هو الحال لدى الكثير من الأزواج، الذين سلكوا طريق التمثيل والخداع في تلك الفترة، بل لربما ازدادت وشائج المحبّة والمودّة والرحمة بينهما مع فجر كلّ يوم جديد، يبزغ على هذه العلاقة المقدسة بسبب الصراحة والمكاشفة...

فكثيرون هم الأزواج الذين مرّوا بفترة الخطوبة الصادقة الشفّافة بكل ما تحمله في جعبتها من مصاعب وأشواك، استطاعوا فيما بعد أن يقطفوا ورود الحياة الزوجية، دون أن تؤذيهم أشواكها، لأنهم كانوا على علم مسبق بوجود تلك الأشواك، الأمر الذي مكّنهم من الحصول على المتعة دون الإصابة بالأذى.

خطبة على الموضة:

عندما نتحدث عن الخِطبة الشرعية لا بدّ أن نصيخ السمع لبعض الأصوات التي تتذمّر من طريقة الخطبة الشرعية، وتنعتها بأنها طريقةٌ تقليديةٌ رجعية، وتنادي باستبدالها بطرقٍ أكثر واقعية وانسجاماً مع متطلبات العصر الحديث.. عصر التكنولوجيا والأنترنيت...

وحسب رأي بعض هؤلاء، **فإنَّ الصداقة بين الشاب والفتاة هي البديل العصري**، بحيث يخبز كلٌّ منهما طبائع الآخر ويعجنها، حتى إذا شعر الطرفان بالحّب والانسجام أقدما على الخطبة، وإلا ذهب كلٌّ منهما في سبيله باحثاً عن صداقةٍ جديدة ثانية وثالثة ورابعة... حتى يعثر على الصداقة المناسبة التي تتمخض عن الخطبة ثم الزواج، ولا بأس (في رأيهم) من تكرار التجربة ربما إلى ما لا نهاية...

والحقيقة التي يدعمها الواقع بالأمثلة الكثيرة، أنه نادراً ما تنتهي تلك الصداقات بالزواج، وغالباً ما تكون التسلية هدف الشاب الأوحد من وراء هذه الصداقة، بينما تمنح الفتاة هذا الشاب كل مشاعرها الجميلة بصدق وإخلاص، وهي تحلم بيوم الزفاف والعشّ الدافئ الحنون، ولكن أحلامها لا تلبث أن تذهب مع الريح، عندما يهجرها هذا الصديق، لتكتشف أنها كانت ألعوبة بين يديه، يحركها كما يشاء، تماماً كما يحرك صاحب الدمى دميته على خشبة المسرح...

والحديث عن الآثار النفسية السيئة، التي تخلّفها هذه الصداقات المتعثرة في نفس الفتاة ومشاعرها، أمر يؤكده علم النفس ويدعمه الواقع المؤلم...

أغلب من يقعن فريسة وضحية للحب الكاذب، تتشكّل لديهنّ عقد نفسية، ويسلكن مسلك التعميم في الحكم على الحب وعلى كل الرجال...

تعلق إحدى المخدوعات قائلة: الحب أكبر كذبة عشتها بحياتي...

تردف أخرى معقبة: إيه... لا في حب ولا ما يحزنون...

ثالثة تقول: يا مآمنة بالرجال... متل الماء بالغربال...

التحرّي عن أحوال الخاطب والمخطوبة:

أمر آخر لا بد من التنويه إلى أهميته عند الحديث عن الخِطبة، وهو سؤال طرفيّ الخطبة: الفتاة وأهلها، والشابّ وأهله، عن الطرف الآخر: دينه، أخلاقه، أمانته، علمه، عمله، بيئته... فذلك أيضاً تعارفٌ مطلوب، ولا يجوز لأيٍّ منهم أن يزجّ نفسه في غياهب المجهول، لمجرّد التوقّعات أو الاعتماد على المظهر والنوايا الطيبة، فكم من رجالٍ يتظاهرون أمام العروس بالتديّن والصلاح، أو بملاءة الجيب، أو بالحسب والنسب.. وكم من نساءٍ يتظاهرن أمام العريس بدماثة الخلق وأصالة النسب ومتانة الدين... وبعد الزواج ينكشف الغطاء عن كذب ودجل ونفاق!

الحكمة النبوية تقول: اعقلها وتوكل... والعقل هنا يستوجب على الخاطب والمخطوبة استخدام جميع الإمكانيات المتاحة في معرفة الطرف الآخر، كسؤال الأقرباء والمعارف، والاستفسار من زملاء العمل، وبعدها يأتي دور التوكل على الله تعالى، مصحوباً بدعاء الاستخارة، الذي علّمه النبي ﷺ لصحابته عند إقدامهم على أيّ فعل هام: (**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علّام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمّي حاجته: زواج، تجارة، شراكة، دراسة - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسّره لي ثمّ بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به**)[1].

* * *

عادات وتقاليد مذمومة:

قبل أن أنهي حديثي عن الخطوبة، لا بد من **التعرّض لمشكلة العادات والتقاليد الاجتماعية التي تكبّل الخطبة بأغلالٍ من الالتزامات**، وترهق الخاطب وأهله أولاً، والمخطوبة وأهلها ثانياً.

فحفلة الخطوبة والولائم المصاحبة لها، والهدايا التي يتوجّب على الخاطب أن يتقدم بها بين يدي خطيبته كلما أراد زيارتها والتودّد إليها، والمطاعم التي يجب أن يختارها، والألوان الأحذية التي يجب أن يلبسها.. كل هذا مما يفسد ويعكّر مفهوم الخطبة، ويشوّه أهدافها الحقيقية، ويقلبها إلى مجرد عمليّة تفاخر وتباهٍ وتظاهرٍ وإسراف وتبذير...

---

(1) أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، في كتاب التوحيد باب: قول الله تعالى قل هو القادر رقم (7390).

البساطة والصفاء والإخلاص والشفافية أمور هامة في تمتين فترة الخطبة واستثمارها بشكل واعٍ مدروس، يمكّن الخاطبين من قطف الثمار بعد ذلك حباً وتفاهماً وإعجاباً، وييسّر لهما الطريق ليذوب أحدهما في الآخر من خلال تلك البوتقة الجميلة، بوتقة الزواج: ذلك العقد المقدس...

* * *

ألذُّ من فترة الخطوبة فترةُ شهر العسل.

هل يمكن أن ينقلب شهر العسل إلى شهرِ بصلٍ وتعاسةٍ وبكاء؟!

كلُّ شيءٍ ممكن! وسأريكم ذلك في الصفحات التالية، التي خصصتها للحديث عن ذلك الشهر الجميل.. شهر العسل.

شهرُ العسلِ
وشهرُ البصلِ

جاءتني رسالة من الأخت (م . ك) تقول فيها:

كثيراً ما كنت أسمع في طفولتي وصباي عن الفارس، الذي يأتي على حصانه الأبيض، ليخطف محبوبته، ويتزوجها ويطير بها إلى مكانٍ جميل، ويعيش معها حياةً مليئةً بالحب والسعادة والفرح الدائم.

ظلت هذه القصة الخيالية تعشّش في خيالي على أمل أن أعيشها يوماً ما، وكنتُ دائماً أدندن:

متى يأتي تُرى بطلي
فقد خبّأتُ في قلبي له زوجاً من الحجلِ
وقد خبّأتُ في روحي له كوزاً من العسلِ
متى يأتي على فرسٍ له مجدولةِ الخُصَلِ
فمنذ طفولتي وأنا
أمدّ على شبابيكي حبالَ الشوقِ والأملِ
وأضفر شعريَ الذهبيَّ كي يصعد
على خصلاته بطلي.

وجاء هذا اليوم الذي تقدّم فيه أحد المعارف لخطبتي: شابٌ ذكيٌ وسيمٌ من عائلةٍ متدينةٍ ميسورة الحال.

أحببتُ هذا الشابَّ منذ اليوم الأول للخطبة... ووهبتُه قلبي وعقلي وذرات كياني...

كنت أنتظر يوم الزفاف بفارغ الصبر، وأنا أحلم بشهر العسل والدلال والحب!

أحلم أن يُظلِّني وبطلي الذي انتظرتُه طويلاً سقفٌ واحد، نعيش تحته بسباتٍ ونبات، ونخلّف صبياناً وبنات...

لكنَّ ما حدث بعد ذلك أفسد كلَّ أحلامي وآمالي، وبدّد مشاعري الجميلة والنبيلة...

فقد بدأت المشاكل بيننا منذ الأيام الأولى للزفاف، ورافقتنا في شهر عسلنا وما بعده من شهورٍ وسنوات!

أغلب أسباب هذه المشاكل كانت تافهةً وبسيطةً جداً، ولا تستلزم أن يتولّد منها مشكلة، ومع ذلك فلستُ أتذكر أو أدرك إلى الآن كيف كانت تتحوّل تلك المشاكل البسيطة إلى مشاكل حقيقية، لتنفتح بعدها بواباتُ جهنم، فتبتلع بلهيبها كلَّ ما يواجهها، بما في ذلك أجزاءً من حبنا واستقرارنا وسلامنا...

شهر العسل.. **آه من شهر العسل!**

المفروض أن يُسمّى شهرَ البصلِ وليس شهرَ العسل، لكثرة ما تلاقي فيه الزوجة من منغّصات.

من جهتي أنا كنتُ دائمة البكاء والحزن في شهر العسل، ولم أشعر أبداً بطعم السعادة، ولم أعرف أيضاً لماذا يسميه الناس شهر العسل!!

هل جاءت هذه التسمية بالصدفة، أم لأنه يُفترض أن يكون حقاً شهراً حلواً كالعسل، أم أنه سمّي كذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية؟!

فهل عندك يا دكتورة لينة جوابٌ عن سبب تسمية هذا الشهر بشهر العسل؟!

انتهت رسالة الأخت عند هذا الحدّ من السخرية من شهر العسل.

عندما قرأتُ هذه الرسالة أمام بعض الأخوات اعترضت إحداهنَّ قائلةً: ما تقوله الأخت لا يمكن أن نعمّمه على جميع الزيجات.. بالنسبة لي كان شهر العسل أجمل أيام حياتي على الإطلاق، ولم يكن فيه أيّ طعمٍ للبصل..

ولكنّ البصل بدأ بعد هذا الشهر مباشرة، والنتيجة كانت كما ذكرت الأخت: حياةٌ مليئةٌ بالمنغّصات والمشاكل، وليست كما كنت أتوقع أو أحلم.

لم يأتِ فارس الأحلام ليحملني على جناحه اللازورديّ، ولم يطر بي في عالم الحب والرومانسية.

باختصار: لقد كان الواقع مختلفاً عن الخيال بكل ما تحمله كلمة الاختلاف من معاني!

أقول: مع أن البداية في القصتين كانت مختلفة، إلا أن نهايتهما كانت واحدة، بفارقٍ بسيط في التوقيت فقط، وهذا الفارق لا يعني شيئاً أمام السنوات العديدة التي يعيشها الزوجان مع بعضهما البعض.

اختلاف الطبائع والبيئات:

والحقيقة أن هاتين القصتين تمثلان قصص أغلب الزوجات مع الأزواج، إلا ما رحم ربي، وقد يكون السبب سوء اختيار أحد الزوجين للطرف الآخر، أو ظهور أمورٍ سيئةٍ في أحدهما أو كليهما كانت خافيةً قبل الزواج، ولكن **السبب الأهمّ والأكثر شيوعاً لا يعدو أن يكون مجرد اختلافٍ في الطبائع والبيئات والعادات، ولا بدّ حتى تتمازج الطبائع وتتآلف النفوس من الصبر والتصبّر...**

قد تطول فترة الصبر وقد تقصر، وذلك متوقفٌ على إرادة الطرفين وعلى تصميمهما على تخطّي العقبات والصعاب، في محاولةٍ فريدةٍ للاندماج أو التقارب.

وعندما أتحدث عن إرادة الطرفين، لا أعني أن يبدأ كلاهما في التحمّل والتصبّر في نفس الوقت وبنفس الدرجة، إذ غالباً ما يتمّ التنازل والتغيير والتحمّل في بداية الأمر من قبل الزوجة لا من قبل الزوج، لأسباب عدة: منها النزعة الشرقية الفوقيَّة لدى ذكورنا، ومنها أن المرأة أكثر عاطفةً من الرجل، الأمر الذي يجعلها تتميز بالقدرة على الصبر والمصابرة والمجالدة.

لا أزال أذكر إحدى قريباتي عندما تزوَّجت...

لم أجتمع بها وبزوجها مرّة إلا وانتهت الجلسة بشجارٍ حادٍّ بينهما أمام الحضور...

وكانت كلما خلوتُ بها في جلسةٍ منفردة، تشتكي من طبائع زوجها التي لم تألفها في أحد من أقربائها... فهو شخصٌ فوضوي، لا يلتزم بموعدِ فطورٍ أو غداءٍ أو عشاء.. مواعيده متداخلة، الأوقات عنده مجهولة، لا يتحمّل مسؤولية ما يتطلّبه المنزل من حاجيات... وفوق كل هذا: الانزعاج من تصرفاته ومعاتبته عليها ممنوعٌ وغير مسموح.

بعد سنتين من الزواج بدأت المشاكل بينهما تتقلّص.

سألتُها متعجّبةً: هل تغيّرت طبائع زوجك؟!

أجابتني وهي تضحك: لا... أنا التي تغيرتُ!!

ثم أردفت: حاولتُ أن أُبَرمجَ نفسي لتتأقلم مع طباع زوجي، فلم أعد أنتظره على طعام أو موعدٍ أبداً...

أما أغراض المنزل وحاجيّاته فبت أؤمّنها أنا بدلاً عنه... ومن يومها لم يعد هناك ما يعكّر صفو ودّنا وراحتنا.

قلت لها: ولكنك بهذا قد تعودينه على الاستمرار في الخطأ!!!

ضحكت وقالت: ومن قال لك إنه كان سيغيّر طبائعه ولو أمضيتُ عمري وأنا أتشاجر معه؟

على العكس تماماً يا عزيزتي، لقد كان ما فعلتُه دواءً وبلسماً، فقد بات يشعر بخطئه فيعتذر إن تأخّر، وأصبح يتصل بي ليعلمني إن اضطر لإخلاف موعدٍ أو لتأخيره...

غبطتُها في سرّي وقلت: مرحى لك.. لقد أرحتِ نفسك من حيث يتعب الآخرون.

مفتاح حياة العسل:

نعم، لقد وجدت صديقتي الدواء الذي عالجت به مشاكلها الزوجية، وقلبت حياة البصل إلى حياة العسل، وأثبتت أنَّ مفتاح حياة العسل بأيدي كلِّ زوجين، وما عليهما إلا أن يبحثا عنه في خبايا نفوسهما وطريقة تعاملهما، ليجعلا حياتهما كلها شهر عسل.

هذا لا يعني أنَّ لعالم العسل مفتاحاً واحداً يصلح لكل الأزواج، فكما أنَّ الطبائع مختلفة، فإن طرق العلاج كذلك مختلفة، وما يصلح حلاً مع زوجٍ قد لا يصلح مع آخر.

المهم أختي العزيزة أن تبحثي عن المفتاح المناسب...

شكّلي ونوّعي وبدّلي في أساليب العلاج، وتفنّني في ابتداع وابتكار الحلول، فأنت وحدك تملكين الدواء والحل والمفتاح...

كوني متميّزة، وصمّمي على النجاح، ولا تستسلمي للفشل، واعلمي أنَّ فشلك في أول وثاني وثالث محاولةٍ لا يعني نهاية التجربة...

يروى أن أديسون مخترع المصباح الكهربائي، فشل في صنع المصباح مئات المرات التي أجرى بها تجاربه الواحدة تلو الأخرى، فلما قال له أحدهم ساخراً: لقد فشلتَ مئات المرات في صنع المصباح!! أجاب: بالعكس، أنا نجحتُ مئات المرات، ففي كل مرةٍ كنت أفشل فيها في صنع المصباح، كنت أنجح في اكتشاف طريقةٍ لا تصلح لصنع المصباح.

وكذلك أنت: في كل مرة تفشلين فيها في اكتشاف مفتاح سعادتك، تنجحين في اكتشاف طريقةٍ لا تصلح لذلك...

وتذكري أن التأقلم مع كل جديدٍ ليس أمراً سهلاً أبداً...

عندما يغيّر أحدنا منزله، يحتاج إلى وقت لا بأس به، ليحفظ الأماكن الجديدة لحاجياته... وهناك من يستصعب تغيير فراشه أو مدرسته أو بيته...

وبناءً على هذا، تخيّلي مدى الصعوبة التي ستواجهينها، عندما يكون التغيير جذرياً، كما هو الأمر في حالة الزواج!!

المنزل- البيئة- العادات- الوجوه، كلها مختلفة، أمور كثيرة سوف تتغير، ومن الصعب التأقلم معها بين يوم وليلة...

المرأة الناجحة هي التي تحمل طقسها معها أينما ذهبت، وإذا لم يكن زوجك من النوع الذي يحمل طقسه معه أينما ذهب، فكوني أنت أختي تلك المرأة الناجحة، وخيّمي بطقسك الجميل على كل من حولك... وعلى زوجك وأسرتك قبل كل الناس...

* * *

وبمناسبة الحديث عن المرأة الناجحة أريد أن أسأل: هل تؤمن هذه المرأة بأنَّ التعامل مع الزوج يجب أن يكون ندِّياً، يكفل ردَّ الإساءة بالإساءة انطلاقاً من قاعدة: **العينُ بالعينِ والسنُّ بالسن؟!**

أم أنَّ لها منطقاً مختلفاً، يضمن لحياتها وحياة أسرتها استقراراً، يصعب ضمانه عندما تحرص الزوجة على التمسك بتطبيق هذه القاعدة في حياتها الأُسرية؟!

سأبحث هذا الموضوع في الصفحات التالية.

العينُ بالعينِ..
والبادئُ أظلَم!

قانون (العينُ بالعين والسنُّ بالسنّ والجروحُ قصاصٌ) قانونٌ عادلٌ، شرّعه الإسلام تماشياً مع متطلبات الحياة، التي تستوجب وجود حدودٍ وضوابطَ، تحكم علاقة البشر بعضهم مع بعض...

هذا القانون يسمح للمعتدى عليه بردّ إساءة المعتدي بمثلها، الأمر الذي يجعل في هذا عبرةً لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على حقوق الآخرين وأعراضهم وممتلكاتهم...

ولكن.. هل يجوز تطبيق هذا القانون في العلاقة الزوجية؟!

وهل ردّ الإساءة بالإساءة في الحياة الزوجية مبدأٌ سليمٌ يضمن استمرارية العلاقة وتحسُّنَها، أم أنه يفسح المجال لرياح الكراهية والبغضاء لتعصف بها، حتى توصلها إلى نهايةٍ لا تحمد عقباها؟!

تعالوا بنا لنرى ما تخبرنا به القصص الواقعية، على مبدأ المثل القائل: اسأل المجرِّبَ ولا تنَس الحكيم.

القصة الأولى لزوجٍ متعسِّفٍ ظالمٍ مستبدّ، يسيء معاملة زوجته ويضطهدها باستمرار...

هذه المعاملة السيئة الظالمة، جرّت الزوجة إلى أن تردّ إساءة زوجها بإساءةٍ مماثلة...

شتائم من الزوج يقابلها شتائم من الزوجة...

صراخٌ من الزوج، وعلى الضفة الأخرى صراخٌ من الزوجة...

أوامر تعسفيةٌ استبداديةٌ من الزوج، تواجهها الزوجة بالرفض المطلق...

والنتيجة ماذا؟!

صراعاتٌ داميةٌ بين الطرفين، ومعارك يوميةٌ وسجالاتٌ متعبةٌ مضنية، انتهت بانفصال الزوجين ودمار حياتهما الأسرية وتشتّت الأولاد وضياعهم بين استبداد الأب واستنكار الأم...

القصة الثانية لزوج متعسّفٍ ظالم مستبدٍّ أيضاً، لا يتحرّج من إساءة معاملة زوجته واضطهادها، ولكنَّ الزوجة كَيِّسةٌ فطنة، تعرف من أين تؤكل الكتف...

فقد استطاعت بذكائها وصبرها ولينها ومعاملتها الحسنة، أن تروّض تعسّف زوجها وظلمه، وشيئاً فشيئاً كانت تمتصّ غضبه وأخلاقه السيئة، كما يمتص الإسفنج الماء، إلى أن جاء اليوم الذي تلاشى فيه ظلم الزوج واستبداده، وحل محلّه الحب والعدل والسلام...

والنتيجة طبعاً حياة عائلية مستقرة، يعيش في كنفها الزوجان والأولاد، يجنون ثمارها في دنياهم قبل أخراهم، طمأنينةً ونجاحاً وسعادةً وهناء...

ادفع بالتي هي أحسن:

قد يعترض البعض قائلين: هذه قصة أقرب إلى الخيال، إذ لا يمكن للّين والتسامح أن يسيطرا على الظلم والعدوان، ليقلباه إلى عدلٍ وحبٍ وسلام!

أقول: اقرؤا قوله تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[1].

(1) ـ سورة فصلت: الآية 34-35.

عندما نقرأ هذا الكلام العظيم، ندرك أهمية العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان، في اقتلاع جذور العداوة وتحويلها إلى علاقةٍ حميمةٍ بين الطرفين، على الرغم من صعوبة هذا وتعسّره على الكثيرين ممن يحملون نفوساً انتقامية، لا تستطيع إلا أن تردّ على الإساءة بإساءةٍ مثلها أو بأكبر منها...

وبما أن الإسلام ديـنٌ واقعيٌ لكل العصور والمجتمعات، ويخاطب جميع الأفراد على اختلاف نفسياتهم وطبائعهم، فإنَّ تشريعه جاء بالحلول الناجعة لكل الحالات ولجميع النفوس والعقول والطبائع.

فعند الحديث عن ردّ عدوان المعتدي وإساءته، شرّع الإسلام ثلاث درجاتٍ تصاعديّة، تبدأ بالدرجة الدنيا وهي درجة (**ردّ الإساءة بمثلها**)، وتعلوها درجة (**العفو والصفح**)، وذلك في قوله تعالى:

(وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[1].

أما الدرجة الثالثة فهي درجة (**ردّ الإساءة بالإحسان**)، وذلك في قوله تعالى:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم)[2].

وترك الإسلام الحرية للناس في اختيار إحدى هذه الدرجات لدى مواجهتهم للظلم الواقع عليهم، وذلك حسب ما يقتضيه الحال والمصلحة، مع التأكيد على تميّز الدرجة الثالثة على غيرها، وتميّز الأفراد الذين يتمكّنون من مواجهة الإساءة بالإحسان.

وعندما نريد تطبيق هذه القواعد التشريعية على العلاقة الزوجية نقول: **يجوز للزوجة أن تردّ ظلم زوجها وإساءته بإساءةٍ مماثلة**، وهي في هذا غير مؤاخَذةٍ ولا آثمةٍ شرعاً، بل الإثم كله منصبّ على عنق البادئ بالإساءة، بشرط

(1) ـ سورة الشورى: الآية 40.

(2) ـ سورة فصلت: الآية 34.

أن لا تزيد الزوجة في ردّها لتلك الإساءة، فتردّ الصاع بأكثر منه، لحديث النبي ﷺ: (**المستبّان ما قالا، فعلى البادئ مالم يعتدِ المظلوم**)[1].

كيف تواجه الزوجة إساءات الزوج؟

إذاً، يحق للزوجة أن تنتقي من هذه الدرجات ما تشاء، ويجوز لها أن تردّ إساءة زوجها بإساءةٍ مماثلة، كما يجوز لها أيضاً، بل يستحبُّ منها أن تردّ الإساءة بالعفو أو بالإحسان.

وعندما نقول: **يجوز للزوجة أن تختار ما تشاء من هذه الدرجات**، فإن هذا يستلزم بالضرورة أن تعرف النتائج المترتبة على هذا الاختيار، والزوجة الحكيمة الذكية، هي التي تأخذ بعين الاعتبار النتائج المستقبليّة المبنيّة على اختيارها...

فعندما تختار الزوجة أن تردّ الإساءة بمثلها، قد يترتب على هذا الردِّ عواقب قد لا تتوافق مع مشيئتها ورغباتها وتطلعاتها، فإن كان هدفها أن تفشَّ غيظها وتردّ اعتبارها وتنتقم لكرامتها، ولا يهمّها ما قد ينتجُ عن ذلك من تأزّم وتفاقم وارتفاع في وتيرة المشكلة، وما قد يؤدي إليه من وصولٍ إلى طريقٍ مسدَّودٍ قد ينتهي بالطلاق.. إذا كانت هذه أهداف الزوجة، فيمكنها أن تنتقي الدرجة الأولى: (رد الإساءةِ بالإساءة والعدوانِ بالعدوان)...

أما إن كان هدفها رفع الظلم الواقع عليها من زوجها، مع حرصها على استمرارية العلاقة الزوجية، ورغبتها في تقويمها وإعادتها إلى جادة الصواب، فلا شك عند ذاك أن العفو أو الإحسان هما بيت القصيد...

إنْ أنت أكرمت الكريم ملكته:

ربما تعترض بعض النساء فيقلن: ولكن التسامح مع الزوج ربما يدفعه إلى التمادي في الإساءة والظلم، ورحم الله من قال: يا فرعون مَن فَرعَنَكَ؟ فأجاب: لم أجد من يردعني!

---

(1) ـ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب النهي عن السباب، رقم 6756.

أقول: ربما يكون هذا صحيحاً وربما لا!! فنحن في الواقع لا نتحدث عن الأزواج الفراعنة المتسلطين والمتجبرين في الأرض، بل نتحدث عن أزواج صالحينَ يخشون الله عز وجل، ولكنَّ طبائعهم الصعبة قد تؤدي بهم إلى ظلمِ الزوجة واضطهادها، وهم لا يحبون أن يفعلوا هذا ولا يرغبون به...

وعلى كل حال، **المرأة الذكيّة تجرّب كل الوسائل**، لتصل إلى ما تبتغيه من استقرار حياتها الزوجية والعائلية على أحسن وجه وأكمله...

تجرب الدواء تلو الدواء.. لا تيأس ولا تستسلم.. تستعين بالله تعالى، وتعلم أن الله تعالى قد يبتليها بشيءٍ يمتحن به إيمانها وصبرها، وتتذكر قوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[2]، وقول النبي ﷺ: (**ما يصيب المؤمن من وصَبٍ (ألم)، ولا نصَبٍ (تعب)، ولا سقم ولا حزَن، حتى الهمُّ يُهَمُّه، إلا كُفّر به من سيئاته**)[3]، فتتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع، وتبثه شكواها وهمومها، وتسأله أن يهدي زوجها ويصلحه، وترجوه أن يهبها الصبر، وأن يعينها في تحمّل ما ابتلاها به، فهو السميع القدير، وبيده وحده مفاتيح الغيب، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب... وعندها فقط سوف تشعر بشلالٍ من النور والصبر والأمل يسري في عروقها، ليمنحها الثبات والصبر والرضى... فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم...

الزوجة التقية المحبة لله تعالى، تعلم علم اليقين أنَّ في كلّ ما يقدّره الله تعالى خيراً، لها سواءً أدركته أم لم تدركه، وذلك مصداقاً لحديث النبي ﷺ: (**عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له**)[4].

---

(1) ـ سورة العنكبوت: الآية 2.

(2) ـ سورة الزمر: الآية 10.

(3) ـ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب ثواب المؤمن، رقم 6733.

(4) ـ رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، باب المؤمن أمره كله خير، رقم 7692.

أعرف فتاة معتدّة بنفسها تمتلك شخصيةً قويّةً آسرة، تزوّجت من شابّ متدين خلوق، أحبّها وأحبته... لكنَّ مشكلته الوحيدة أنه عندما يغضب، لا يعرفُ ما يقول ولا كيف يتصرف.. وهذه في الواقع مشكلة أغلب الأزواج مع زوجاتهم.. هالها أن تراه يثور عليها بسببٍ وبدون سبب.. يشبعها شتماً وأحياناً ضرباً عند كل مشكلةٍ صغيرةٍ أو كبيرة..

قررت أن تردّ الصاع بمثله، ونفّذت ذلك.. وكانت النتيجة طلقتين، كادتا أن توديا بحبهما وحياتهما الزوجية إلى الجحيم..

فكّرت ثم فكّرت، فهداها تفكيرها إلى حلٍّ، قرّرت أن تجربه..

البداية كانت بتجّنب كل ما من شأنه إثارة غضبه، ولو كان على خلاف قناعاتها أو رغباتها، ونجحت في هذا بدرجة 60 بالمئة..

وإذا ما حدثت مشكلةٌ لسببٍ ما، واشتعل غضبه ناراً، لاذت بالصمت في وجه مسبّاته وشتائمه، التي كانت تنهال عليها كسياطٍ من نارٍ، تكوي قلبها ومشاعرها بلهيب الغيظ والألم والحرقة...

طبعاً لم يكن هذا بالأمر السهل أبداً.. وخصوصاً في بداية التجربة.. ولكنها استعانت بالله تعالى على تحقيق ذلك، عملاً بقوله تعالى:

(وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ)[1]..

كما اتخذت شعارها في تلك الفترة قوله تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[2]..

أذهلتها النتائج بعد شهورٍ من تكرار التجربة!

---

(1) ـ سورة البقرة: الآية 45.

(2) ـ سورة البقرة: الآيات 155-156-157.

في المرات السابقة كانت الشتائم تتحوّل إلى معركةٍ حقيقةٍ، لا يعلم إلا الله تعالى متى تنتهي، وذلك لأنها كانت تردّ الصاع بمثله..

أما الآن فباتت الجولة تحسم في دقيقة أو دقيقتين، لتعود المياه إلى مجاريها بعد ذلك.. والأدهش من هذا أن زوجها بات في كثيرٍ من الأحيان يتوجه إليها معتذراً متودّداً، وقد شعر بخطئه وإساءته...

لله در الشاعر حين قال:

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَه وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا

كرامتي وكرامته:

هناك من تقول: لا أستطيع أن أفعل ما تذكرينه، فكرامتي تأبى عليّ الخضوع والخنوع...

وأخرى قد تقول: أنا أعلم أن الخلاف بين وبين زوجي سينتهي لو جاملته بقولي: الحق معك.. أنا آسفة.. ولكني لا أستطيع ذلك، فلست أنا المخطئة بل هو، ويفترض عليه أن يبدأ هو بالاعتذار، ولست أنا...

وأنا أقول: رحم الله من قال: بينَ حانا ومانا ضيّعنا لِحانا... بين كرامتي وكرامتهِ ضاعت الأسرة، وتشرّد الأولاد، وتشتّت الشمل...

الحياة الزوجية مقدسة، والمحافظة عليها من أفضل وأطهر المقدسات...

الحب الحقيقي لا يعرف الحدود والفواصل ولغة الانتقام...

باختصار... قولي لزوجك عندما يتعكّر صفوكما:

زوجي الحبيب، أنا أحبك.. وأحب أولادي.. وأحب نفسي.. ولأني كذلك.. لن أدع شيئاً يعكّر صفونا وحبّنا ورابطتنا المقدسة...

أنت لي.. وأنا لك.. والله المستعان..

* * *

إن قيلَ للزوجة: أسعدي زوجكِ واسعدي معه، ماذا يجب أن تقول؟!

حباً وكرامة؟!

سمعاً وطاعة؟!

سنرى في الصفحات التالية، كيف يمكن أن تُسعده، وبعد ذلك نرى ماذا يجب أن تقول.

* * *

أسعدي زوجك..
واسَعدِي معَه

يقال: في استطاعة المرأة أن تلعب بالقلوب،
وأن تحطّمها كما يحطّم الطفل الدّمية
ويكسر الزّجاج.
وفي استطاعتها أن تشقي زوجها أو تسعده.. وأن
تجعله يهجر بيتها إلى دور اللهو وأحضان النساء،
أو أن تستأثر بحبّه وقلبه من دون النساء...

تستطيع المرأة أن تستغلّ زوجها فتبدّد مرتّبه، ولا تبقي منه شيئاً، ظنّاً منها أنها بذلك تشغله عن التفكير بغيرها، عملاً بالمثل القائل: قُصَّ جناح طيرك قبلَ أن يتعرّف على غيرك.. وتستطيع أيضاً أن تكون له سنداً وذخراً وعوناً في المسرّات والنّائبات..

سئلت إحدى السيدات المسنّات عن السرّ في احتفاظها بسعادتها الزوجية فقالت:

– لقد جعلت شعاري منذ تزوجت أن أذهب مع زوجي إلى حيث يشاء، ولو إلى أقاصي العالم، وأن أعيش معه حيث يعيش، ولو في كوخ مهدّم حقير، وأن أجعل أهله أهلي، وأن أكون له أماً وأختاً وزوجة وفيّة.

كثيرات هنّ اللواتي يعتقدن أنّ مطالبة الزوج لزوجته بفعل ما يجلب له السعادة والهناء وراحة البال، أنانيّةٌ منه واستبدادٌ وتسلّطٌ واستعلاء، الأمر الذي قد يدفعهن إلى ميدان المواجهة والمجابهة والاستفزاز...

ويبقى الحال بينهما بين أخذٍ وردّ، جدالٍ ونقاش، مشاكلَ وخصام، إلى أن ينتهي بانفصام عرى الزوجيّة بالطلاق، وقد تستمرّ حياتهما معاً متأرجحةً بين حمم البراكين المستعرة، التي تهدّد صفاء حياتهما الزوجية واستقرارها...

فهل حرص الزوجة على إسعاد زوجها وسعيها لتحقيقه يعدّ انتقاصاً من كرامتها وإهانة لكبريائها؟! وهل محاولة الزوجة إسعاد زوجها يعود عليه وحده بالنفع، أم أنّه يرتد في علاقةٍ تبادليةٍ طرديّة، لتطالها السعادة كما تطاله، على اعتبار أن الزوجين عضو واحد لا عضوين، وأسرة واحدة لا أسرتين؟!

وهل يمكن للزوجة أن تكون مصدر سعادة الأسرة أو شقائها ؟!

* * *

الذكاء الوجداني:

يعرّف العلماء السعادة بأنها:

فنّ استخراج النجاح من الفشل، وإظهارِ الجمال من القبح، ونسجِ التفاؤل من بين عُقَد الشّؤم.

وقديماً كان الناس يظنّون أن الذكاء العقلي هو المقياس الحقيقيّ لنجاح الإنسان وسعادته، ولكنهم تبيّنوا فيما بعد خطأ تلك المقولة عندما وجدوا الكمّ الهائل من الأذكياء والعباقرة يعيشون في تعاسة وشقاء، الأمر الذي جعلهم يفكّرون بطريقة أخرى أكثر فاعلية وواقعية، تمكّنهم من قياس الذكاء من خلال ما يحققه الإنسان من نجاح وسعادة في محيطه الأسريّ والمجتمعي...

ومؤخّراً تمّ اكتشاف **الذكاء الوجداني** ليكون المعيار والمقياس الحقيقيّ لمدى نجاح الإنسان في حياته...

والحديث عن الذكاء الوجداني يعني الحديث عن فنّ التواصل مع الآخرين، وكسب ودّهم ومحبتهم وتفاعلهم وتعاونهم وتعاطفهم...

ويعني أيضاً القدرة على الوصول إلى عقول الآخرين وقلوبهم بكل بساطة وسلاسة وجاذبيّة...

ويمكننا القول: إن الذكاء الوجداني يعدّ من الضروريات التي يحتاجها المرء في جميع مراحل حياته: في الصّغر والكبر.. وقت العزوبيّة وبعد الزواج.. مع والديه وأولاده.. حين يكون طالباً وحين يصبح معلماً.. مع جيرانه وزملائه وأقاربه.. مع رؤسائه ومرؤوسيه!

وبمقدار ما يتمكّن الشخص من إسعاد الآخرين، بمقدار ما يعود عليه ذلك بالسعادة الداخلية والاطمئنان النّفسيّ والسّكون القلبيّ...

إسعاد الزوج سعادة للزوجة:

يقول الطب النفسي: إن صحّتنا النفسية وسعادتنا الشّخصية مرتبطة بقدر ما نبذله من عطاءٍ للآخرين من أجل التخفيف من معاناتهم، وليس بقدر ما نأخذ من مكاسب مادية في الحياة...

ماذا يحدث عندما يطالب أحد الزوجين الآخرَ بإسعاده ومحبّته وتأمين راحته، وينسى أن يطالب بهذا نفسه قبل أن يطالب غيره؟!

لا شّك أنه سيظل عمره مطالباً، وسيموت قبل أن يتمتّع بتحقيق مطلبٍ واحدٍ من أمنياته!

والحقيقة أنّ قيامنا ببذل الحبّ للآخرين، وعملنا على إسعادهم وكسب ودّهم وتحقيق راحتهم، سوف يحقق لنا ما نصبو إليه من كسب الحب والسّعادة والودّ والرّاحة والهناء.

ومحاولة الزوجة إسعاد زوجها، يعود عليها بالنفع أولاً وأخيراً، فهي وإياه شركاء في علاقة حميمة توحّد بينهما في كيان واحد، ويفترض أنها توحدهما تماماً، فلا يبقى فرق بين كرامتها وكرامته.. كبريائها وكبريائه.. سعادتها وسعادته.. شقائها وشقائه.. همومها وهمومه.. شؤونها وشؤونه.. شجونها وشجونه!

يفترض أن يسعده ما يسعدها، ويسعدَها ما يسعده، ويتعسه ما يتعسها، ويتعسها ما يتعسه..

ليس المهم هنا من يبدأ بإسعاد الآخر أولاً، بل المهم أن يكون الزوجان سعيدين في حياتهما الزوجية... ولا فرق بين أن يكون الزوج هو البادئ المبادر بالمعروف أو الزوجة...

وليس خطأ أن تكون الزوجة سبّاقة لذلك، لأنها تمتلك قلباً كبيراً وصدراً رحيباً... أين منه قلوب الرجال وسعة صدورهم!

* * *

أسعدي زوجك واسعدي معه:

في يوم من الأيام كتب زوجي الأستاذ أنور وردة مقالة نشرها في إحدى المجلات بعنوان: **أسعدي زوجك واسعدي معه**، أرغب أن أشارككم الحديث عنها لسببين: الأول أنها كُتبت بقلم زوج، يفكّر بطريقة الأزواج، ويرى بعيونهم ويشعر بمشاعرهم، والثاني أنها نتاج تجربة ناجحة بإذن الله تعالى، أرادت أن تختصر للآخرين الطريق إلى السّعادة والنجاح، وهذه هي المقالة بحذافيرها:

أسعدي زوجك واسعدي معه

(للباحث والمفكر الإسلامي د.محمد أنور وردة)

عزيزتي حواء:

اعتاد الرجل أن ينصح أخاه، واعتادت الأخت أن تنصح أختها، لكنني اليوم سأدخل إلى عالَمك الأنثويّ بصفة مختلفة!

سأدخل بصفتي زوجاً سعيداً مجرّباً، يملك عيناً لمّاحةً قادرةً على فهم أسباب السّعادة وأسباب الانهيار، وسأتقدم إليك بنصائح غالية، أضع فيها خلاصةَ تجربةٍ ناجحة، قطعتُ فيها مع رفيقة دربي مراحل هامةً باتجاه الوصول نحو الانسجام الكامل والتفاهم المطلق والسرور الدائم.

لست قاضي تحقيق:

تذكّري أنك زوجته ولستِ قاضي تحقيقٍ في محكمة الجنايات، وليس جميلاً أن تمطريه يومياً بالأسئلة الروتينية التي لا فائدة منها:

أين كنت؟

مع من كنت؟

متى ستعود؟

لماذا تأخّرت؟

فعندما يكون سعيداً في البيت، سيحلم باللحظة التي ينتهي فيها من العمل ليعود إلى العشّ الهانئ السعيد.

تودّدي إلى أهله:

أحسني إلى أهله، وتقرّبي إليه بمحبتهم وبخدمتهم، وحضّيه على برهم وإكرامهم والإنفاق عليهم إن كانوا ذوي حاجة، وبالهدايا إن كانوا ذوي يسار، ولا توغري صدره ضدّهم أو توقعي بينه وبينهم أو تذكريهم بسوء أبداً، حتى لو كان حانقاً عليهم، فهم أولاً وأخيراً أهله، والدّم لا يتحول إلى ماء، وليس هناك أحسن ممن يدفع بالتي هي أحسن.. والعاقبة للمتقين.

ادعي له في ظهر الغيب:

لا تتركي الدعاء له في ظهر الغيب، وخاصة في صلوات الليل، واسألي الله تعالى أن يهديه ويرزقه ويحفظه من كل سوء، وأن يدفع عنه كل أذى، وأن يُبعد عنه رفاق السوء، فإنَّ هذا الدعاء يعود بالخير عليك وعليه وعلى أولادكما، وإنَّ ملاكاً يقول وراءك وأنت تدعين: آمين، ولكِ مثل ذلك.

هيّئي له الجو المناسب:

اتركيه وشأنه عندما يكون منزعجاً أو غارقاً في التفكير أو مشغول البال بأمرٍ ما، ولا تسكبي عليه حنانك واهتمامك في الوقت الذي يفضّل فيه الخلوة بنفسه، بل هيّئي له الجو المناسب الهادئ، بنوعٍ من الاهتمام لا بنوعٍ من الإهمال واللامبالاة.

جهّزي مائدة الطعام :

لا تتأخّري في تهيئة المائدة في الأوقات التي اعتاد تناول طعامه فيها، وليكن الطعام ساخناً بدرجة مقبولة، فلا يكون حارّاً جداً ولا بارداً أو فاتراً، وحبّذا لو كان هناك بعض أنواع المقبلات مع الطبق الرئيس، لأن هذه المقبلات تعكس عنايتك الأكثر به وبطعامه، وحبّذا لو زيّنتِ المائدة ببعض الأزهار والورود، وأكّدت له أنه أجمل من هذه الأزهار والورود.

ابتهجي بقدومه:

اقفزي إلى الباب مبتهجة سعيدة حالما تسمعين صوت مفتاحه عند وصوله إلى المنزل، ورحّبي به وعانقيه بالطريقة نفسها التي كنت تفعلينها عندما كنت مخطوبة، ولو مضى على زواجكما سنواتٌ وسنوات، ولو أمام أولادك.. كباراً كانوا أم صغاراً، ليعلوَ قدرهُ عندهم أكثر، وليتعلموا منك محبّة الزوج واحترامه أكثر وأكثر.

أنجزي مهامّك قبل مجيئه:

أنجزي ما تريدين إنجازه مع أطفالك الصغار قبل موعد مجيئه من العمل: أطعميهم ونظّفيهم وألبسيهم ما تريدين، واسقيهم الدواء، ووجّهي لهم كافّة الملاحظات والتعليمات قبل مجيئه، إذ لا يُعقل أن يأتي الزوج متعباً، فيواجَهَ بالصّراخ والزّعيق والعناد والتّوبيخ وغيرِ ذلك، مما قد تُضطرين له أثناء تعاملك مع أطفالك.

اعتني بثيابه:

اهتمّي بنظافة ثيابه، وقومي بتبديلها عند اللزوم، وأخرجي عند تبديلها كل شيء من جيوبه: النقود والهوّية الشخصيّة والأوراق، وتفقّدي كافة الجيوب حتى الصغيرة، وجهّزي له الثياب البديلة المتناسبة مع بعضها بعضاً، ويستحب تعطير الثياب التي قمت باستخراجها من الخزانة.

لا تثرثري بما لا يهمّه:

لا تثرثري أمامه بالأحاديث التي لا تهمّ الرّجال ولا تستهويهم، كالذهاب إلى الخيَّاطةِ وأنواع الطبخات وطريقةِ تحضيرها، وماذا قال فلان وماذا فعلت فلانة، لأن ذلك يقلّلَ من احترامه لك، ومتى قلّ الاحترام بدأ التمادي، ومتى بدأ التمادي بدأت كلّ عروة من عرى الرّابطة الزّوجية بالانفصام.. وهذا أمرٌ خطير.

سهرة مسائية جذّابة:

لا تناقشي أيّ موضوع جانبيٍّ عند النوم، وأعني بأيّ موضوع حتى تلك المواضيع التي لا تتوقّعين فيها جدلاً أو خصاماً، لأنك لا تعرفين كيف يمكن أن يتطوّر الحديث، وبأيّ اتّجاه يمكن أن يسير لينتج عنه ما قد يفسد جمال الثرثرة الحلوة في الفراش.

استحمّي قبل الدخول إلى الفراش، وادلكي كلّ تفاصيل جسمك بالصّابون ذي الرائحة العطرة، فإن رائحة النظافة التي تفوح منك أجمل عنده من كل عطور الدنيا، ولا تنسَي تنظيف الأسنان قبل كلّ نوم، لأن الثّغر مدخل هامّ من مداخل القلب والروح.

عطّري فراشكما ومخدّاتكما، وعطّري الشراشف والمناشف، فإن حركةً كهذه تنعش الفؤاد وتدغدغ الخيال الحالم، وتعني للزوج الكثيرَ الكثير، وتفتح بينكما آفاقَ أحاديث حلوة تقودكما إلى أجواء حلوة.

تغزّلي به:

ـ **أكثري من التغزّل اللطيف به دون سخرية أو استهزاء**.. كرّري أمامه التصريح بأنك سعيدة في حياتك معه، وأنه كان الاختيارَ الموفّق في حياتك، وأنك ترينه أحسن زوج في الدنيا، لأنه عند ذلك سيحاول في عقله الباطن أن يكون كذلك.

كوني متميّزة:

ثقّفي نفسك ثقافةً عامّةً معقولةً على الأقل: أمسكي كتاباً تاريخيّاً أو أدبيّاً أو حتى سياسيّاً، واستمعي لنشرات الأخبار لتعرفي ماذا يدور في الدنيا، ومن هم أصحاب الأسماء اللاّمعة في كل المجالات، وليكن لك هواية محترمة نبيلة كالرسم أو كتابة الشعر أو روايته، أو صنع لوحاتٍ من الحرير والقماش، أو صنع تحفٍ من الخزف، أو غير ذلك مما يعطيك هوّية متميّزة وشخصيّة إيجابيّة فريدة.

استرضيه إذا غضب:

ـ **لا تتركيه يخرج غاضباً من المنزل**، فإنك لا تعرفين من يصادف في طريقه، وكيف يمكن أن يصطدم مع الآخرين إن كانت أعصابه متوتّرة، أو إن قاد سيارته بنزقٍ وطيشٍ وانفعال.

كوني لطيفة مرحة:

ـ **إياك أن تستخدمي أمامه أو أمام أطفاله ألفاظاً بذيئة**، أو أن تفعلي ولو مازحة فعلاً مشيناً يثير الاستهجان أو القرف أو الانزعاج، بل كوني مثال اللّطف والخفّة والمرح وردّ الفعل الراقي.

* * *

أختـي الكريمـة، لا تقـولي: هـذه نصائحـك لي، فما هـي نصائحـك لزوجي؟! خصصّـتُ مقالتـي في هذا العـدد لك، وكلامـي في الصفحات القادمة سـأوجّهه له قائلـةً: **أسـعد زوجتك واسـعد معها**.

عزيزتي: لك تحيّاتي... والله من وراء القصد.

أسعِدْ زوجتك
واسْعَدْ معها

سـمير زوجٌ متديّـنٌ خلـوقٌ مثقّـف، ذو شـخصيةٍ آسرةٍ وعقلٍ راجـحٍ، وكذلـك زوجته هيفاء ذات دينٍ وخلـقٍ وجمالٍ ونسـبٍ وثقافة... ورغـم ما بينهما مـن حـبّ وودّ، إلا أن أجنحـة الرّاحـة والانسـجام والسّـلام والـدّفء لـم ترفـرف فـوق بيتهما قـط... دائمـاً مشـاكلُ وعقبـاتٌ ومصاعـب وشـجار...

سـبب ذلـك أنّ سـمير يـزن الأمـور دائـماً بميزانـه، فـلا يـرى إلا مـن خـلال عينيـه، ولا يسـمع إلا مـا يصـل إلى أذنيه، ولا يشـعر أو يفكر إلا بما يمليـه عليه قلبه وعواطفـه وعقله...

باختصـار: هـو يريـد دائـماً تقويم الأمـور في بيته بحسـب ما يراه هـو الصحيح مـن وجهـة نظـره، دون أن يحـاول ولـو لمـرّة واحـدة أن ينظـر للأمـور مـن منظـار زوجتـه وطريقـة تفكيرها ومشـاعرها...

حاولـت هيفـاء مـراراً وتكـراراً أن تفهمـه أنهـا تحبـه وتـودّ إسـعاده، ولكـنّ مفتـاح ذلـك بيـده، وأنّ عليـه لذلـك أن يفتـح البـاب الموصـد بينهـما، فيكـفّ عن التذمّـر منهـا ومـن عقليّتهـا وتصرّفاتهـا، ويحـاول أن يسـتمتع بـما بينهـما مـن حبّ ومـودّة...

ولكـنّ سـمير لم يفهـم مـا تعنيـه هيفـاء بالبـاب الموصـد والمفتـاح، ومـع أن هيفـاء غـيّرت من صفاتهـا وطبائعهـا بنسـبة 70٪ من أجل إسـعاده، لكنه لم يشـعر بالسـعادة، وظـلّ مـصّراً على تذمّـره وشـكواه...

قدّمت إليه يوماً فنجاناً من الشاي.. أمسك الفنجان من أذنه.. قالت هيفاء:

– لو أن أحدهم قال لك: هذا الفنجان لا أذن له، أكنت تصدقه أم تكذّبه؟

قال سمير: أكذّبه طبعاً، لأنّ الفنجان له أذن، فكيف أعذره في دعواه إذاً؟!

أمسكت هيفاء الفنجان، ثم جلست في الجهة المقابلة لسمير ووضعت الفنجان على الطاولة، بحيث ترى هي أذن الفنجان ولا يراها سمير...

سألته عند ذاك: هل ترى أذن الفنجان الآن يا سمير؟!

قال سمير: لا... لا أراها...

فقالت: لكني أراها!

ثم بدأت هيفاء تشرح لسمير كيف يطلق الناس الأحكام على الأمور بحسب ما يرونه وكما يبدو أمامهم، وأنّ عليه (ليفهم تصرّفات الآخرين) أن يحاول الجلوس مكانهم، وأن ينظر إلى الأمور من خلال منظارهم، عندها يفهم سبب تصرفاتهم، فيكفّ عن التذمّر والشّكوى، ويستطيع استيعابهم وإعذارهم.. وربّما تغييرهم أيضاً!

استشهدت هيفاء بقصّةٍ جميلةٍ مفيدة تُحكى عن بعض المكفوفين، حيث طُلبَ إليهم أن يقتربوا من شيءٍ محددٍ (دون أن يعرفوا ما هو هذا الشيء، وكان هذا الشيء فيلاً ضخماً)، كما طُلَب منهم أن يصفوه بعد أن يتحسّسوه بأيديهم.

وصف أحدهم الفيل حين لمس خرطومه بأنه طويلٌ ومستدير، ووصفه آخر حين تلمّس قدميه بأنه ثخينٌ وقصير، ووصفه ثالث حين تلمّس ذيله بأنّه قصيرٌ ورفيع. بالطبع كان كلٌّ منهم يصف ما عرفه، ولم يكن أيٌّ منهم مخطئاً، ولكن لم يكن وصف أيٍ منهم مطابقاً للوصف الحقيقيّ الكامل للفيل.

لم يدرك سمير المغزى من قصة هيفاء، ولم يغيّر شيئاً مما كان عليه...

* * *

في يومٍ من الأيام اغتنمت هيفاء جلسة صفاءٍ كانت تجمعها مع زوجها، فسألته:

ـ أيعجبك يا حبيبي أن أغيرّ كلَّ صفاتي لتكون على هواك وذوقك ومبتغاك؟

قال بفرح وسرور: نعم.. نعم يا حبيبتي، عندها سأكون أسعد زوج في العالم...

ابتسمت وقالت بذكاء: لو فعلتُ ذلك يا حبيبتي لن أكون عندها هيفاء، بل سأصبح أنا سمير.. فهل تستطيع أنت يا حبيبي أن تأخذ دوري وتصبح هيفاء؟!

أدرك سمير ما ترمي إليه زوجته... وأدرك عندها ماذا كانت تعني بالباب الموصد والمفتاح والفنجان والفيل...

حاول جهده بعد ذلك أن يزن الأمور بميزانها، ويفكّر بعقلها، ويرى بعينيها، ويسمع بأذنيها...

بعد مدةٍ قصيرةٍ وجد المفتاح، وولج إلى قلبها وعقلها وكلِّها، وعندها فقط استطاع أن يجد السعادة، التي كان يبحث عنها ويطالب بها...

* * *

أسعد زوجتك واسعد معها:

عندما كتب زوجي الأستاذ أنور وردة مقاله الرائع: (**أسعدي زوجك واسعدي معه**)، وعد القراءَ أن يردف هذا بمقالٍ آخر بعنوان) :**أسعد زوجتكَ واسعد معها**)، يتوجّه فيه إلى الزّوج مطالباً إيّاه بإسعاد زوجته، ولكنني رجوته أن يترك لي كتابة هذا المقال، إذ شعرت أنّ من واجبي أيضاً أن أدخل إلى عالم الأزواج بصفتي زوجةً مجرِّبةً سعيدةً ـ والحمد لله ـ في حياتها الزوجية، وأحببت أن أتقدّم إلى قرّائي الأعزاء بنصائح، ربما استغرقت من حياتنا الزوجيةِ سنواتٍ طويلةً من البحث والتجارب، حتى نضجت وتبلورت واكتملت، وها أنذا أقدّمها اليوم جاهزة على طبقٍ من المحبة إلى جميع قرّائي من الذكور والإناث، الزّوجات والأزواج.

أنت وزوجتك واحدٌ لا اثنان:

وقبل البدء أقول: أيّها الزوج العزيز.. أنت وزوجتك واحدٌ لا اثنان، سعادتها من سعادتك، وتعاستها من تعاستك...

وأنت وإياها مكلّفان بتحسين العلاقة الزوجية، والصعود بها إلى ذروة الحب وأوج السعادة وقمّة العسل...

واعلم أن بوابتك إلى قلبها وبوابتها إلى قلبك ما تحاولانه من جهود، ليكون أحدكما سكناً للآخر ومودّةً ورحمة...

وهاكم الآن النصائح والوصايا التي أحب أن أقدمها لكل زوج:

ارفق بزوجتك:

لا تكن ليّناً فتُهزم ولا قاسياً فتُكره، بل بينَ بين، وخير الأمور أوسطها، وتذكر حديث النبي ﷺ: **(إن الله إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق)**[1].

وتذكّر أنك زوجها وشريكها، ولست سيّدها ومالك رقبتها، وأنّ لزوجتك شخصّيتها المستقلّة عن شخصيّتك، وأنّ طاعتها لك تنحصر في حدود المعروف والمعقول، وأنّ لها طريقةً خاصّةً في التفكير والتصرف والذوق والألفاظ، يمكن أن تكون في كثير من الأحيان مختلفة عن طريقتك، وعليك أن تقبل هذا الاختلاف بنفسٍ راضيةٍ، فالاختلاف هذا أمرٌ طبيعيٌ، سببه البيئة والتربية، وما يترتب عليه من اختلافٍ في الطّبائع والأذواق والعادات والأعراف، وتذكّر أنك زوج محبّ وناصح، ولستَ حاكماً ولا قاضياً.

يعجبني مثلٌ هنديٌّ يقول: إذا أردتَ أن تفهم الآخر، فاخلع حذاءك، والبس حذاءه، وسر به يوماً واحداً فقط...

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، رقم 25161. صححه الألباني

وهـذا يعنـي أنّ عـلى الزوج المحـبّ لزوجتـه، والذي يحرص عـلى تمتين علاقته بهـا وترسـيخ جذورهـا وزرع بـذور السـعادة في ربوعهـا، أن يفعل كما فعل سـمير في القصـة التـي بدأنا بها همسـتنا، أي أن يـرى الأمـور بالطريقة التي تراهـا زوجته، وعندهـا يسـتطيع أن يفهـم سـبب تصرّفاتهـا، فيسـتوعبها ويعذرهـا، وربـما يتمكّن مـن تغييرهـا إن احتاج الأمر بسـهولةٍ وانسـيابيّة...

أفصح عن محبتك:

دعهـا تشـعر بمحبّتـك، فـلا تـتردّد في إطـلاق عبـارات الحـبّ والهيـام، كلـما سـنحت بذلك الفرصـة، وأحطها بفائـق رعايتـك وعنايتك، فإن مرضـت فارحمها وأعنهـا، وإن غضبـت فأرضهـا، وخصوصاً إذا كنت أنت المخطـئ في حقّها، واعلم أنّ ذلـك لـن يخـدش من كرامتـك أو يحطّ مـن قدرك، بل عـلى العكس تمامـاً، فإنك تعلـو في نظرهـا أكثـر مـن ذي قبـل، إلى جانـب مـا في هـذا من إعانـةٍ لها عـلى تحمّل مـا تواجهه مـن مصاعب الحيـاة الزوجية وأشـواكها...

لا تهدّدها بالزواج من أخرى:

أشـعرها بعظيـم حاجتك إليها، وحرصـك على وجودها وحبّـك لها، وأخبرها أنـك لـو خيّرت بـين نسـاء الدّنيا كلّهـن لاخترتهـا وحدها دون سـواها، فـإنّ ذلك يـرضي كبرياءهـا، ويزيل البصمات السّـيئة للشّـجارات والمشـاكل، التـي قد تحدث بينكما في بعـض الأحيان...

وإيـاك أن تذكـر أمامهـا الـزواج من امـرأة أخـرى، عـلى سـبيل التّهديد أو المـزاح، لأنّ هـذا يوغـر صدرهـا، ويجعلهـا متحفّـزة دائـماً، وربـما يدفعهـا هـذا للشـكّ فيـك، وهـذا بدايـة انهيـار العلاقة الزوجيـة السـليمة، لأنّ الشـكّ يعني اهتـزاز الثقـة بـين الزوجـين، وهو أمـر خطير ينخـر في عـشّ الزوجية كـما ينخر السّـوس الخشب...

لا تكثر من العتاب:

إياك وكثرة العتاب والحساب على كل شاردة وواردة، فإنّ كثرة العتاب تفسد الصحبة والمودّة، لأنك:

إذا كنت في كلّ الأمورِ معاتباً صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله:

لا تطالبها بفعل ما لا تستطيع أنت أن تفعله، ولا بترك ما لا تستطيع أنت أن تتركه، وتذكّر قوله تعالى في ذمّ أهل الكتاب:) أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (1). واسمع معي ما قاله الشاعر:

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم

انصح بالحسنى:

استعض عن السّباب والشتائم بالنّصيحة الحسنة، فلا شيء يوغر صدر المرأة كما يوغره شتمها ووصفها بصفات السوء، ولربما يفيض بها الكيل في النهاية، فتردّ الصاع بمثله أو بمثليه...

كن لها عوناً:

كن لزوجتك معيناً على تربية أولادكما، ولا تتركها في هذه المهمّة وحدها، وكن الأب الحازم، واترك لها مهمّة الأمّ الرؤوف الرؤوم، وإياك أن تنهرها أو تسخر من رأيها في وجودهم، حتى ولو كان رأيك معاكساً لرأيها، وليكن حواركما في جلسة منفردةٍ بمعزل عنهم...

(1) سورة البقرة: الآية: (44).

اعتنِ بمظهرك:

تزيّن لزوجتك واظهر أمامها بأبهى منظر، ولا تكن زينتك مقتصرة على أوقات خروجك من المنزل فقط.

واعلم أنّ الاستحمام، والتعطّر، والثياب النظيفة، وفرشاة الأسنان، وحفّ الشوارب، ونظافة اللحية، كلها مداخل هامّة إلى قلب زوجتك...

لا تضق ذرعاً بثرثرتها:

استمع لثرثرتها أو تظاهر أنك تستمع، ولا تضق ذرعاً بهذا، فأغلب النساء تحّب الثرثرة، فكن أنت لها الصدر الحنون الذي ترتاح في أحضانه، وتلقي في رحابه بكلّ ما يؤرّقها، ويشغل بالها من مشاغل الحياة وهمومها وآلامها...

ادفعها إلى الأمام :

إياك أن يكون طموحك في زوجتك محصوراً في أن تكون ربّة منزل ناجحة فقط، تجيد الغسيل والكيّ والطّبخ والتّنظيف، واعلم أن نجاح الزوجة في أداء دورها الاجتماعي إلى جانب دورها الأسريّ مرهون بتأييدك ومساندتك...

وكما يقال وراء كل رجل عظيم امرأة، أقول أن وراء كلّ امرأة عظيمة رجل يدفعها ويؤيدها ويحثّها على النجاح...

أشعرها بعظيم قدرها وأهمّيتها:

لا تجعلها تشعر بأنها شخص ثانوي، وأن الأولاد هم أهمّ شيء في حياتك، وأن طلباتهم أوامر، لا تردّ ولا تهمل، مما يضطرّها أحياناً إن أرادت شيئاً إلى أن تتوسّط لدى أولادها ليكونوا رسولها إليك، لأن هذا يطعن كبرياءها في الصميم..

بـل أشـعرها بعظيم قدرها وأهمّيتهـا، فهي أولاً وأخيراً زوجتـك وأمّ أولادك، وسعادتك مرهونة بسـعادتها وسعادتهم...

وتذكّـر قبلـة الصبـاح والمسـاء قبـل الذهـاب إلى العمـل وعنـد العـودة منـه، واعلـم أن لهـذه القبلـة معناهـا الثمين الـذي يتجاوز مجـرّد القبلة إلى شـحذ طاقات الزوجـة وإعانتهـا عـلى تحمّـل مصاعب الحيـاة الزوجيـة ومشـاقّها...

إنهـا تعنـي الكثير والكثير... مشـاعر وعواطف وأشـواق تختـصر في قبلة، فهل هنـاك أجمل مـن هذا؟!

اعمل على تجديد الحبّ وتحديثه:

لا بـأس من اختراع لمسـة خلاّبـة مبتكـرة، تضفي على حياتكـما جوّاً رومانسـيّاً جديـداً يسـاعد على تجديد الحّـب وتحديثـه وتفعيله...

ربـما يكـون هذا في نزهـة عرائسـيّة منفردة بـين الفينـة والأخرى، وربـما يكون رسـالة مـن جهازك الجـوّال إلى جهازهـا تخبرها فيـه بحبّك وأشـواقك...

وربـما تكـون هدية ـ أيّ هديـة ثمينة أو رخيصة ـ تشـعرها بأنـك تتذكّرها دائماً وتشـتهيها في كل مـا قد تشـتهيه لنفسـك.. لأنك وإياها واحـد لا اثنان..

انس همومك:

لا تحمـل همومـك الخارجيّـة في العمل والشركـة والمصنع معك إلى المنـزل دائماً، بـل ألقهـا عـن عاتقك قـدر الإمكان، واسـتقبل زوجتـك وأولادك بمشـاعر الحب والشـوق والهيام...

أمـا إذا كانـت المشـكلة أكـبر مـن أن تسـتطيع تناسـيها وتجاهلها، فلا تـتردّد في إخبـار زوجتـك بـأن ثمّة شـيئاً يزعجـك لا علاقة لهـا به، لئلاّ تظنّ نفسـها سـبباً في انزعاجـك، فينعكـس هذا سـلباً عـلى نفسـيّتها وتصرفاتها...

لا تنشغل عن أسرتك:

حاول أن تتّصل بها هاتفيّاً من مكان عملك إن أمكن، تطمئنّ فيها عن أحوالها وأحوال الأولاد، خصوصاً إذا كان أحد منهم مريضاً، فإن ذلك يطمئنها، ويهبها الثقة بأن غيابك عن المنزل إنما هو بسبب مشاغلك لا بسبب إهمالك، الأمر الذي يعمّق مشاعر المحبة والتفاهم بينكما، ويوسّع آفاق التحمل لديها...

تقيّد بمواعيدك:

حاول التقيّد بمواعيد الطعام والعودة إلى المنزل، وإن حدث ما يشغلك عن ذلك الالتزام، فلا تتردّد في إعلام زوجتك بهذا، مع دمجه بقليل من الكلام المعسول، تؤكد فيه على محبّتك لها وشوقك إليها، ولكن ما باليد حيلة، ولا بأس من إظهار بعض التذمّر من هذه الظروف التي تحول بينك وبين القدوم إلى المنزل...، فإن هذا يغسل آثار الضيق والوحشة والملل التي قد تعتريها وهي تنتظر قدومك على أحرّ من الجمر...

احرص على الدردشة الأسرية:

لا تتوانى في تفريغ يوم الجمعة أو أي يوم آخر في الأسبوع لزوجتك وأولادك، تجلس فيه معهم، تتبادلون أطراف الحديث وتتجاذبونه، ولا بأس بأن يتخلّل هذا بعض النّزهات إن أمكن، فإن ذلك يوطّد المحبة ويزيد في الألفة، ويقضي على كثير مما علق في القلب من نزغات الشّيطان ووسواسه.

* * *

أخي العزيز، هذه بعض نصائحي لك، إن أردتَ أن تُسعد زوجتك وتسعد معها.

هل تريد أن تُسعدَ أهلها وتسعد معهم، وتزيدَ زوجتك سعادةً ورضى؟!

إذن، تابع معي في الصفحات التالية مقالي المعنونَ بـ: **عمي العزيز.. حماتي الغالية**.

عمي العزيزْ..
حماتي الغالِية

الحياة الزّوجيّة ليست ورقة كرتونٍ يطويها الزّوجان كما يرغبان، ليشكّلا منها المنظر والشّكل، الذي يعجبهما ويروق لهما. ورغم كلّ الحب الذي قد يكلّل الزّواج، فإنّ المشاكل تُقبل مسرعةً من هنا وهناك، لتفسد رونقه وجماله.

وطبعاً يهرع الزّوجان وأهل الزّوجين ومعارفهما لحلّ المشّاكل الكبيرة، التي تتسلّل إلى ذاك العشّ الزوجيّ المقدس، ويتعاون الجميع في إيجاد الحلول تلو الحلول لمواجهة الخطر الداهم، الذي يهدّد أمن المنزل وسلامته الداخليّة والخارجيّة.

ولكنّ الخطر الحقيقي يكمن عندما تكون المشاكل بين الزّوجين صغيرةً تافهةً، لا تستحقّ أن يتدخل أحدٌ لمواجهتها بسبب ضآلتها وتفاهتها... ومع ذلك يعجز الزوجان عن حلّها!

المشاكل الصغيرة قنبلة موقوتة:

الحقيقة أن أغلب المشاكل الزوجية التي تؤدي إلى الطّلاق، هي من هذا النوع الصغير الذي لا يلقي له الزوجان بالاً، ولا يحاولان إصلاحه ونزع فتيله في الوقت المناسب...

يحكى في هذا أن شجرةً معمّرةً عاشت 400 عام تواجه العواصف والرّياح والطّوفان دون أن تتزحزح أو تضعف، وكانت تفخر بذلك على من حولها من الشّجيرات الصغيرة...

وفي يوم من الأيام تسرّب إليها نملٌ صغير، وبدأ ينخر في جذورها.

ضحكت الشجرة استهزاءً، وقالت بغرور وتكبّر: لقد قاومتُ الرّيحَ والصّواعق والطّوفان، فماذا يمكن لهذا النمل الصغير أن يفعل بي؟!

بعد سنواتٍ صحت الشجرة على صوت قرقعةٍ وتكسُّرٍ في جذورها.

فوجئت بأن النمل الصغير الذي لم تأبه له استطاع أن ينخرها، وأن يسحب منها العزم والقوة والقدرة على الثبات والمقاومة.

بعد مدةٍ من الزمن، خرّت الشجرة صريعةً على يد نملٍ صغيرٍ، لم تأخذ أمره بالحسبان، وتركت لمن خلفها عبرةً تقول:

لا تستسلم للتّوافه، ولا تدعها تنخر في قوّتك وطاقتك، ولا تسمح لها أن تتراكم حتى تصبح كبيرةً ككرة الثّلج، بل تدارك أمرك منذ البداية، وحلّ كلّ أمر صغيرٍ قبل أن يتفاقم ويصبح كبيراً.

ذكّرتني هذه القصة الرمزية بقول النبي ﷺ: (**إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنها كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعودٍ وجاء ذا بعودٍ، حتى أنضجوا خُبزَتهم، وإن محقّرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تهلكه**)[1].

كثيراً ما نسمع عن قصص زوجيّة عصفت الخلافات الصغيرة بعراها المقدسة، وأودت بها إلى الطّلاقِ رغم الحُب الذي يكنّه الزوجان كلٌّ منهما للآخر، تماماً كما عصف جيش النّمل بالشجرة... ولا غرابة في ذلك، فمعظمُ النّار من مستصغَرِ الشّررِ.

على الزوجين أن لا يغضّا الطرف عن الخلافات والمشاكل الصغيرة، بل عليهما أن ينظرا إليها بعين المراقب البصيرة، التي تتلمّس الأسباب وتبحث عن طرقٍ ناجعةٍ للعلاج.

---

(1) ـ رواه أحمد بن حنبل عن سهل بن سعد ﷺ، (22302). وصححه الألباني.

عمّي العزيز.. حماتي الغالية:

في مجلّة صدى الإيمان كتب زوجي الباحث والمفكر الإسلامي محمد أنور وردة مقالاً بعنوان: (عمّي العزيز.. حماتي الغالية) قال فيه:

كتب زوجٌ إلى أهل زوجته الرّائعة الكتاب التالي:

شكرٌ خاصٌّ جداً جداً

عمّي العزيز.. حماتي الغالية:

يسعدني أن أتقدَّم لكما بهذا الشكر الخاصّ جداً، لما بذلتموه من جهودٍ واضحةٍ في تربية ابنتكم الكريمة، التي كانت ولا تزال وستبقى مضرب مثلٍ وقدوةً يحتذى بها في حسن السّيرة، وطيب المعشر، ورقيّ الأخلاق، ومعاونةً الزّوج في السير باتجاه ما يحبه الله ويرضاه.

وإذا كان من الغريب أن يكتب زوجٌ رسالة شكرٍ لعمّه أو حماته، فإنني أرى ذلك واجباً عليه، إذ كما أنَّ الأبوين يسمعان بألم مشكلات الزّوجين في حال حصولها، فإنّ من حقّهما أن يسعدا بكلمة شكرٍ في حال تألّق ونجاح العلاقة الوجدانية والروحيّة بين هذين الزوجين.

أكرّر شكري.. راجياً لكما كلّ الخير.

«صهركم:.....»

يعقّب كاتب المقال على ذلك قائلاً:

بصراحة، أعجبني هذا الكتاب، وأعجبتني فكرته تماماً، لأنه يمثّل تصرّف رجلٍ حضاري، أو على الأقلّ: يمثّل تصرّف رجلٍ يحاول أن يكون حضارياً..

ولمسةٌ أو لمساتٌ كهذه، تعطي الحياة الزوجيّة نقاءً وجمالاً، وتجعلها في تجدّدٍ دائمٍ وتقدّمٍ مستمرّ.

الخطّ البياني للعلاقة الزوجية:

إذا عدنا إلى **الخطّ البيانيّ للعلاقة الطبيعية التامّة بين أيّ زوج وأيّة زوجة**، نرى أن الأمور تبدأ بالتعارف (الخطبة)، وتتطور إلى المخالطة أثناء فترة الخطبة، وتنمو لتتوّج بـ(عقد الزواج)، ثم تتوهّج لتتوّج بـ(العرس)، ومن العرس إلى (شهر العسل)، ومنه غالباً إلى فترة الحمل التي تقارب التسعة أشهر، فتتوطّد علاقة الزوج بزوجته التي تحمل (ابنه) أو (ابنته) في بطنها، وأثناء هذه الفترات كلها تكون العواطف والمشاعر في صعود؛ أي أنّ الخطّ البيانيّ يتألّق ويغذّ السير إلى الأعلى بخطواتٍ حثيثة.

بعد هذه الفترات يتباطأ سير الخطّ البياني، إذ غالباً ما ينغمس الرجل في عمله، وتنشغل المرأة بوليدها، وتنسى أنها زوجةٌ لتتحول إلى أمٍّ ـ ومعذرةً شديدةً من كل السيدات ـ هي أشبه ما يمكن بالخادمةٍ، يقتصر دورها على تقديم الطعام وكيّ الملابس وتنظيف البيت والعناية بشؤون الأطفال، ويتحوّل الرّجل إلى ما يشبه نزيلَ الفندق وزبونَ المطعم، فيأتي ليأكل وينام، ويرتّب أمور عمله، ويطمئنّ على رعيته، وكلما انغمس الزّوجان أكثر في شؤونها التي ذكرناها، كلما خبت العواطف عندهما، وبردت المشاعر، وانحسرت أحاسيس الحّب الشديد، ليحلّ محلّها أحاسيس الإلفة والاعتياد... لا أكثر.

والخطير في هذا الأمر، أنه يتمّ دون انتباه الطّرفين، ومن غير وعي كامل، ودون قصدٍ أو تخطيط، إذ ينغمس كلّ منهما في شؤونه، تاركاً لهموم الحياةً اليومية ودورتها الروتينيّة أن تنخر في عظم المنزل، وأن تطلّ بمشكلاتها التافهة على حديقة الأسرة المهملة، لتحيلها إلى ما نرى في حياة معظم العائلات والأسر.

تأجيج نار الحب قبل أن تخبو:

من هنا، كان من الضرورة بمكانٍ أن يفكّر الزّوجان في اختراع لمسةٍ حلوةٍ جديدة، تؤجج نار الحب كلما خبت، وتقدّم للشريك البرهان تلو الآخر على أنه ما زال الشريك الأحلى والأغلى.

تعزيز ثقة الزوجة:

إنّ كتاب الشكر الذي افتتحنا به موضوعنا في البداية، أعجبني لأسبابٍ كثيرة، منها أنه يسعد أهل الزّوجة حين يؤكّد نجاحهم في تربية ابنتهم التربيةً السليمة، ومنها أنه يطمئنهم على مستقبل ابنتهم مع زوجها، ومنها أنه ينصفهم بإيصال الوجه الإيجابيّ لعلاقة ابنتهم مع زوجها، وهذا هو المقابل المهمّ للوجه السلبيّ الذي قد لا تخلو منه الحياة.

ولكنَّ الأهم من ذلك كلّه، أنَّ مثل هذا الكتاب يعزّز ثقة الزّوجة بنفسها وبزوجها: يعزز ثقتها بنفسها لأنه يترجم نجاح خطواتها في حياتها، والنّجاح يولِّد النجاحَ ويزيده.

وهو يعزّز ثقتها بزوجها لأنه يُشعرها أنه يرى بعين الملاحظة السليمة كلّ خيرٍ تقدّمه إليه، ويرى كلّ بارقةٍ حلوةٍ تمرّ أمامه دون أن يغفل عنها، فعين المحّب (عن كل ذنبٍ كليلَةٌ)، لكنها لكل حُسنٍ بصيرةٌ لمّاحة.

اختراع لمسات جديدة:

إنّ إصرار الزوجين على أن يكونا زوجين حقيقيين (كأنهما مخطوبين دائماً)، يعطي الحياة بينهما طعماً حلواً دائماً، فما المانع أن يدعو الرجل زوجته بين الفينة والأخرى إلى غداءٍ رومانسيٍّ خارج المنزل؟!

وما المانع في أن تفاجئ الزوجة زوجها بهديّةٍ لطيفةٍ في عيد ميلاده أو عيد زواجهما أو غير ذلك من المناسبات، حتى ولو اخترعت المناسبة اختراعاً؟!!.

ما المانع أن يفتح الرجل عينيه يوماً ليرى على مخدّته ورقةً سماويّة اللون، مزركشةً بوردةٍ على جانبها، مذيّلةً بعبارات حبٍّ وغزل، موجّهةً من الزوجة المخلصة إلى الزوج المحبوب؟!

أليس هذا من روح تعاليم الإسلام العظيم؟.

ألا يذكّرنا هذا بقول النبي ﷺ: **(رفقاً بالقوارير)**[1]، و قوله: **(استوصوا بالنساء خيراً)!**[2]

ألا يذكّرنا هذا بجوابه ﷺ عندما سأله أحدهم: من أحب الناس إليك؟ فقال: **(عائشة. قال: إنما أعني من الرجال. فقال: أبوها)!**[3]

طربٌ هَمى جُوايَ من (لينايا):

أعرف زوجاً شاعراً، كتب في زوجته قصيدة، (وقلّما يفعل الشعراء ذلك)، قال لها فيها، (وكان اسمها لينة):

طَرَبٌ هَمى جُـوَّايَ من (لينايا) فغدا الـوجـودُ بـأسرهِ لي نايا

كنزُ الجـمالِ شهدتُهُ بنواظري وشَـدَتْ بـهِ مخـمـورةً شفتايا

أمسكتهُ وعـزفـتُـهُ أنـشـودةً فأنا المليكُ ومنْ سـوايَ رعايا

وأعرف أيضاً زوجاً كان قد وعد زوجته بالعودة باكراً إلى المنزل مساءً، ولسبب أو لآخر اضطُرّ للتأخّر، فتوقّع أن يحصل بينه وبين زوجته شيءٌ من اللوم أو العتاب، فحمل معه أثناء العودة عشاءً خفيفاً، مما تحبّ الزوجة من المأكولات، ودخل عليها، فلما سألته مقطّبةً عن سبب تأخّره، قال لها مازحاً: لقد تأخّرت لأنني كنت أبحث عن مطعم ظريف نظيف، لأحضر لك منه هذا العشاء اللطيف، فضحكت الزوجة، وقبلت العذر الجميل، ومشى المركب بسلام.

كم هو رائع أن تكون الأسرة الإسلامية متماسكةً متناغمةً حلوة المعشر، يفيض السرور من أركانها ويغمرها غمراً!!

كم هو رائع ذلك المسلم الذي يغبطُ قلب النبي ﷺ في قبره الشريف، عندما يستوصي بالنساء خيراً، ويرفق بالقوارير اللواتي **لا يغلبهنّ إلا لئيم!!**

---

(1) ـ رواه البخاري عن أنس بن مالك ﷺ، في كتاب: الأدب، رقم (6149).

(2) ـ رواه البخاري عن أبي هريرة، في كتاب: النكاح، رقم (5186).

(3) ـ رواه البخاري عن عمرو بن العاص ﷺ، في كتاب: المناقب، رقم (3662).

صلى الله على من قال: (**حبّبَ إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**)[1].

عند هذه النقطة الجميلة انتهى مقال الكاتب الأستاذ المهندس محمد أنور وردة، **والحقّ يقال: لقد كان مقالاً مفيداً**، استطاع الكاتب من خلاله توضيح بعض **الطّرق العملية التي تمكّن الزوجين من تفريغ الشّحنات السلبية**، واستبدالها بشحنات ايجابيّة، بدل الاستسلام للتوافه تنخر في عظم المنزل، حسب تعبير المؤلّف.

مهمّة زوجية متبادلة:

حلُّ الخلافات والعقبات الزوجيّة يقع على عاتق الزّوجين معاً، وهناك مهمّةٌ متبادلةٌ بينهما لخرق الحياة الروتينيّة المملّة وتجديد بنائها، وعليهما أن يكونا مستعدّين معاً لتقديم التنازلات، والالتقاء ربّما في منتصف الطريق، وربّما في نهايته!

المهم أن يلتقيا عند نقطة واحدة...

ولا يمكننا أن ننكر أن المرأة (غالباً) أقدر من الرجل على التجاوب وتقديم التنازلات في سبيل رتق ما تفتّقه الخلافات، فهي صاحبة القلبِ الكبيرِ والعاطفةِ الجياشةِ والحنانِ العارم...

الاعتراف بالخطأ فضيلة:

المشكلة أن كثيراً من الناس يتبعون **بعض التقاليد التي تخالف التعاليم الإسلامية** في كثير من الأحيان، منها: وضع الرّجل في مكان القداسة المطلقة لأنه رجل... فالرّجل الذي هو ربّ العائلة لا يخطئ (حسب هذا المنظور)، وإن أخطأ لا يجب عليه أو حتى لا يجوز له الاعتذار، وكذلك إن أطلق حكماً جزافاً، لا يجب عليه أو لا يجوز له التراجع عنه، حتى وإن تيقّن أنه مخطئ، وخصوصاً

(1) رواه النسائي عن أنس بن مالك ﷺ، في عشرة النساء، رقم (3939). وحسّنه الألباني.

إن كان ذلك بعد جدالٍ ونقاشٍ بينه وبين زوجته، لأنَّ ذلك سوف يؤدي إلى اهتزاز صورته المقدسة أمام زوجته وأولاده.

أين هذا من حديث النبي ﷺ: **(لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفّرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير)**[1]!!

وأين هذا من مقولة: التّراجع عن الخطأ فضيلة.

ما المانع من اعتذار الزّوج من زوجته إن أخطأ في حقها؟!

التجربة تثبت أن احترام الزوجة لزوجها يزيد باعتذاره، وليس العكس، كما يُشعرها بأنها شريكته في الحياة العائلية، ومساوية له في الكرامة والإنسانية، الأمر الذي يعزّز ثقتها بنفسها، ويفجّر مواهبها، ويزيد في حبّها لزوجها وإعجابها به، وربما يدفعها أيضاً إلى مقابلة الحسنى بأحسن منها...

مقولات أعجبتني:

ـ الرجل الذي لا يغفر للمرأة هفواتها الصغيرة، لا يتمتّع بفضائلها الكبيرة.

ـ المرأة قيثارة، لا يجيد العزفَ عليها إلا الموسيقار البارع.

ـ إذا أردتَ أن تصطفيَ زوجةً، فكن لها أباً وأمّاً وأخاً، لأنّ التي تترك أباها وأمها وإخوتها لكي تتبعك، من حقّها عليك أن ترى فيك رأفة الأب وحنان الأمّ.

ـ ستبقى المرأة أبداً رحماً ومهداً، ولن تكون قطُّ رمساً (قبراً).

مقوّمات الزواج الناجح:

الحقيقة أن الزواج الناجح هو الذي يبنى على أسسٍ متينةٍ من المحبة والاحترام والمصارحة...

هو ذاك الذي ليس في قاموسه التعسف والاستبداد الذكوريّ.. بل نقاشٌ وحوارٌ وعطاءٌ مستمرٌّ من كلا الطرفين.

---

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الأيمان والنذور، رقم (6623).

وهـو أيضـاً تلـك العلاقـة التبادليـة، التـي يحـاول فيهـا كلٌّ مـن الطرفـين أن يمتـصّ غضـب الآخـر واسـتنفاره، كـما يمتـصّ الإسـفنج المـاء.

وعندمـا نقـول: كلا الطرفـين، فـإن هذا لا يعنـي أن يكـون الطرفان عـلى قدم وسـاقٍ في كفّتـي ميـزان، بـل المهـم أن يبدأ كلاهمـا بهـذا، ويحاولانه بـكل إخلاصٍ ورغبـة، وليـس ضروريـاً بعد ذلـك وجود الميـزان...

قصص واقعية:

أعـرف زوجـةً كلـما غضب منهـا زوجها لسـببٍ أو لآخـر تبكـي وتنزعج، ثم تـسرع إلى غرفتهـا وتغلق عليهـا الباب.

حـاول مـراراً وتكـراراً اسـترضاءها والاعتـذار عـما بـدر منـه بأسـلوب غـير مبـاشر، لكنهـا أصرّت عـلى موقفهـا، بحجّـة أنهـا إنسـانةٌ لهـا كرامتهـا، وأنهـا لـن تسـمح لأحـدٍ أن ينـال من هـذه الكرامـة، وأنها ليسـت ألعوبـةً بيده، يغضـب منها متـى شـاء، ويسـترضيها متـى أراد!

النتيجـة: صـار زوجهـا يخرج من بيتـه بعد كل شـجار، يصفق الباب بقـوّةٍ بعد أن يلقـي همومـه في المنزل، ويخرج ليموّه عن نفسـه هنـا وهناك...

أما هي، فتظلّ حبيسةً في منزلها، تتجرّع كؤوس الألم والغضب والغيظ...

ويستمر الخصام لأسابيع، تضطرّ بعدها الزوجة للتنازل وقبول المصالحة...

ونتساءل هنا: من الخاسر ومن الرابح؟!

لدينا ثلاثة احتمالات:

1ـ كلاهما خاسر.

2ـ كلاهما خاسر، ولكنَّ الزوجة أكثر خسارةً من الزوج.

3ـ الزوج رابحٌ والزوجة خاسرة.

في اعتقـادي أنـا: كلاهمـا خـاسر، ولكـنّ الزوجـة أكثـر خسـارة، لأنهـا أرقّ إحساسـاً وأرهـف عاطفـةً وأكثـر تأثّـراً...

ومقابل هذه القصة هناك قصة أخرى:

غضب الزوج من زوجته، وقذفها بالشّتائم يمنة ويسرة!

دخلت الزوجة غرفتها وهي تبكي...

بعد قليل.. غسلت وجهها وأصلحت هندامها، وخرجت مبتسمةً...

صنعت فنجانين من القهوة، ودخلت إلى غرفة الجلوس وهي تحمل الصينية بيدها، وعلى ثغرها ابتسامة عتاب...

بعد دقائق دوّت أصداء ضحكاتهما في أرجاء البيت، وقفزت الذكريات الجميلة عن شهر العسل والبصل، لتعيد إليهما شيئاً من المرح والبهجة، التي افتقداها منذ فترة من الزمن...

السؤال المطروح هنا: هل فعلت الزوجة هذا لأنها الأضعف جانباً؟!

الحقيقة أنها كانت تشعر أنها قويّةٌ وقادرةٌ على ردّ الصاع صاعين، ولكنها كانت تشعر أيضاً أنها بصفحها وتسامحها سوف تصبح الأقوى خُلقاً وإرادة وصبراً وتحمّلاً...

وهذا ما نراه في الواقع، إذ لا أسهل على المرء من أن يسبّ ويشتم ويقابل السّيئة بالسيئة، ولكن ليس سهلاً أبداً أن يتسامح ويضبط نفسه ويقابل السيئة بالحسنة أو بالأحسن!

الزوجة الذكيّة:

أختي الزوجة: الزوجة الذكيّة هي التي تستطيع أن تنقذ عشّها من عواصف الغضب، لتجعله في مأمنٍ من الهزّات والأعاصير.

أما الزوجة المتهوّرة، فهي تلك التي يرتفع صوتها بالصراخ، إذا ما ارتفع صوت زوجها، وتقابل الشّتائم والكلمات الجارحة بمثلها، على مبدأ: العين بالعين والسنّ بالسن والجروح قصاص...

وهذه الزوجة لا يمكن لها إلا أن تخسر المعركة، وتخسر معها زوجها وأسرتها ونفسها، وعندها لا يفيدها ندمٌ ولا حسرةٌ ولا ألم.

الزوج العاقل:

أما أنت أخي الزوج، فاعلم أنّ **الزوج العاقل هو الذي يعرف عندما ينتابه الغضب**، كيف يضبط أعصابه، ويضغط على فرامله في الوقت المناسب.

أما الزوج المتهوّر، فهو ذاك الذي لا يستطيع التحكّم بفرامله، فتنعدم أمامه الرؤية، وتتضاءل فرص النجاة، ويهوي بعد ذلك إلى قاع البؤس والشقاء، محطّماً نفسه وزوجته وأسرته، ومعرّضاً صحته لأخطر الأمراض الجسدية والنفسية، ليعيش عمره في ندمٍ وحسرةٍ وضياع...

* * *

يبحث الزوجان عن طريق يوصل أحدهما إلى قلب الآخر، ويشتكي أحدهما دائماً من ضياعه عن هذا الطريق، فهل هو طريقٌ صعبٌ معقّدٌ، يحتاج السير فيه إلى مهاراتٍ عاليةٍ وأثمانٍ غالية؟!

سنبحث معاً في هذا الموضوع في الصفحات التالية، التي تتحدث عن **الطريق إلى قلب الحبيب**..

الطريق القرِيب
إلى قلبِ الحبيب

سأتحدث الآن عن الطريق.. ولكن ليس عن أيّ طريق.. إنه طريق مهمٌّ جداً.. سهلٌ جداً.. صعبٌ جداً.. هو طريقٌ يبدأ البحث عنه مع بدء الحياة الزوجية، ويستمر باستمرارها.. إنه طريق الزوجين إلى قلب بعضهما البعض.

كيف يصل الزوجان إلى ذاك الطريق؟!

سؤالٌ يؤرّق بال كل الأزواج.

قد يصل بعضهم إليه، فيجنون رحيق العسل وبريق الإلفة وسعادة المحبة، وقد يتيه عنه آخرون، ليجنوا بدلاً من العسل الزقّومَ والعلقم، ويقاسوا لهب سياط الألم والحسرة، بدلاً من الاستمتاع بالسعادة والإلفة...

قصة سناء وعصام:

تزوجت سناء من عصام.. أحبته من كل قلبها، وكذلك هو أحبها من كل قلبه..

بعد ثلاث سنوات من الزواج، بدأت سناء تشعر ببرودٍ وجمود في عواطف الحبّ ومشاعره المتبادلة بينهما..

جلست أمام المدفأة تفكر فيما آل إليه حالهما.

لفت انتباهها لهب النار المتوقّد في المدفأة، فتأملته.. كان قبل قليلٍ متوهجاً شديد الحرارة والحركة.. وهو الآن ضئيلٌ ضعيف..

اعترتها قشعريرةٌ، حين أغلقت الوقود عن المدفأة، فبدأت النار تهمد قليلاً قليلاً.. دمعت عيناها، حين تذكرت ما كان بينها وبين عصام من حبٍّ متألّق حتى الذروة، ووهن قلبها خوفاً من أن يهمد الحب الذي بينهما، كما همد لهيب النار في المدفأة.. أدركت أن من واجبها أن تغذّي لهب الحبّ بالوقود، حتى لا ينطفئ ويهمد ويخمد.. فكرت في أعماقها وقالت:

الحب الذي بيننا أقوى من الرياح ومن النار ومن البحار والجبال..

صحيح أن هناك منغّصاتٍ، تفسد علينا متعة الحب وصفاءه.. مشاكل الأولاد.. مشاكل العمل.. مصاريف الحياة وتكاليفها الشاقة.. منغّصات الأهل والمعارف..

ولكن.. علينا ألا نستسلم، وأن ندافع عن حبنا، فلا ندعه يتآكل أو يصدأ أو يموت..

هبّت واقفة.. أسرعت إلى المطبخ تهيّئ بعض المأكولات اللذيذة، التي يحبها زوجها، ثم أسرعت إلى غرفة النوم، تتزيّن بأجمل ما تملك من الثياب، وتتعطر بأروع ما لديها من العطور..

نظرت في ساعة الحائط، ثم هتفت:

الحمد لله.. ما يزال هناك نصف ساعة حتى يصل عصام.

أمسكت بورقة وقلم، وبدأت تكتب على عجلٍ رسالةً إلى عصام.

انتهت من كتابة الرسالة، فوضعتها على الطاولة بجانب المائدة.

عندما دخل عصام، فوجئ بما رآه، وتساءل: **ماذا جرى!!**

منذ مدّةٍ لم تتزيّن له سناء بسبب انشغالها بالبيت والأولاد..

عانقته بدلالٍ وهي تقول: كل سنة وزواجنا وحبّنا بألف خير..

قادته من يده إلى طاولة الطعام، وأومأت بعينيها إلى الرسالة..

فتح عصام الرسالة، وبدأ يقرأ:

حبيبي عصام..

اليوم هو الذكرى السنوية الثالثة لزواجنا..

في هذه الذكرى أحببت أن أفصح لك عما يدور في خلدي عن تلك السنوات..

لم أعرف سواك في حياتي يا حبيبي..

كنتُ زهرةً على وشك الذبول، فضممتني إلى صدرك، وسقيتني من عطفك وحبك، وأغدقتَ عليَّ من ندى حنانك ورعايتك، حتى غدوتُ زهرةً يانعةً معطّرةً بشذا حبك وأريج حنانك..

أنت اليوم يا حبيبي زوجي وأخي وأبي وأمي..

أشعر أن روحي تذوب في روحك، وقلبي يمتزج في قلبك، وعقلي ومشاعري تتوحّد مع عقلك ومشاعرك..

أحسّ بأنني وإيّاك واحد... أنت لي وأنا لك..

أشعر بالأمان يسكن نفسي، وبالسعادة تغمر قلبي..

كيف أخاف وأنت معي؟! وكيف أشقى وأنت بقربي!!

لا أستطيع أن أحبس دموعي سروراً وفرحاً..

أحمد ربي لأنه وهبني رجلاً يحميني ويحبني ويرشدني ويرعاني..

أدعوك ربي أن تحفظ زوجي عمري كله.. وأن تجمعني به في الآخرة، فأنا لا أبتغي غيره زوجاً.

* * *

أوصاف الحبّ:

سئل جبران خليل جبران عن الحبّ فقال:

تأملت الطبيعة مليّاً، فوجدت فيها شيئاً لا حدّ له ولا نهاية.. شيئاً لا يشترى بالمال، ولا تمحوه دموع الخريف، ولا يميته حزن الشتاء، ولا يوجد في بحيرات سويسرا ولا منتزهات إيطاليا..

شيئاً يتجدد، فيزهر في الربيع، ويثمر في الصيف..

لا يذبل في الخريف، ولا يعرى في الشتاء..

إنه المحبة والحب...

وقال آخر يصف من لم يتزوج، ومن لم يعرف قلبه حبّ الزوجة:

رأيته يسير وحيداً في موكب الحياة من دون رفيقة، كأنه يعلّق على صدره لوحةً كبيرةً كتب عليها: قلبٌ للإيجار!

الحبّ كالزهور بحاجة إلى رعاية:

البعض يتساءل باستغراب:

هل يكفي الحب بين الزوجين لمنحهما السعادة والاستقرار؟!

أقول: الحب كالزهور، يحتاج إلى سقايةٍ ورعايةٍ مستمرة، وإلا أصابه الذبول ثم الموت...

العاطفة وحدها لا تكفي لتسقي تربة القلب بالماء وتمدّه بالغذاء، ولا بد لهذا من أمورٍ تساعدها وتساندها...

ما هي هذه الأمور؟ وما هي **الخطوات إلى قلب الزوج أو الزوجة؟**

هل يمرّ الطريق إلى قلب الزوج بمعدته؟

من النساء من تظن أن الطريق إلى قلب الزوج يمرّ عن طريق معدته، فتظل نهارها في المطبخ تتفنّن في طبخ المأكولات اللذيذة.

أعرف زوجةً ماهرةً في طبخ الطعام، ولكنها فاشلة في طبخ العلاقة الناجحة بينها وبين زوجها.

اجتمعتُ بها مرةً فاشتكت قائلة: أعكف نهاري في المطبخ أجهّز له ما يحبّ ويشتهي، ومع هذا فالمشاكل بيننا على قدم وساق، ولست أعلم لماذا أشعر بجفوةٍ كبيرة بيني وبينه، رغم أني أبذل جهدي للوصول إلى قلبه...

سألتها: كيف تبذلين جهدك، وما هي وسائلك لذلك؟!

أجابتني بسذاجة: عن طريق معدته، أما سمعت المثل القائل: الطريق إلى قلب الزوج يمرّ بمعدته!

مسكينةٌ هي هذه الزوجة، بل وجاهلةٌ أيضاً، لأنها تجهل أن الطعام الدسم الذي تتفنّن بطبخه كل يوم، ليس بوابتها إلى قلب زوجها، بل هو بوابتها للتخلص منه ومن قلبه، لأن المعدة بيت كل داء، والحمية رأس كل دواء...

الحقيقة أن مقولة **(الطريق إلى قلب الزوج يمرّ بمعدته)** باتت مفهوماً شائعاً عند أغلب الناس، فنجد الزوجة تمضي معظم نهارها في المطبخ مغموسةً في طبخ المأكولات المنوّعة: الغربية والشرقية، وعندما يعود الزوج من عمله يجد مائدةً عامرةً بأطايب الطعام، ولكنه يفتقد ابتسامة زوجته المنهكة، ومظهرها الأنيق، ورائحتها العطرة، إذ غالباً ما تستقبله بثياب المطبخ، وبرائحة السمن البلدي واللحم المقلي أو المشوي، التي تفوح من شعرها وثيابها، والسبب هو أنها لم تجد الوقت الكافي لاستحمامها وإصلاح هندامها والتزيّن لزوجها...

(طبعاً لن أتحدث عن رائحة الثوم والبصل والبهارات ورب البندورة.. فلهذه الروائح شأنٌ آخر وبحثٌ آخر).

بعد تناول طعام الغداء، ينام الزوج نومة القيلولة، أما الزوجة فيلزمها وقتٌ طويل للانتهاء من غسل الأطباق المكوّمة وتنظيف المطبخ.

يستيقظ الزوج ويعاود الخروج من البيت، وزوجته ما تزال مشغولة.. ربما مع الأولاد تشرف على تدريسهم وتعليمهم، وربما بكيّ الملابس.. أو على الهاتف أو مع إحدى الجارات على باب الدار...

كل هذا لا يهمنا الآن، ما يهمنا هو أنه عندما يعود الزوج في المساء، تكون الزوجة المتعبة قد استهلكت كل قواها في النهار، ولم يعد لديها طاقة للمسامرة والممازحة والدردشة الحلوة الجميلة..

وغاية ما يمكنه الحصول عليه في ذلك المساء، (إن كان محظوظاً)، هو ثوبٌ أنيقٌ ورائحةٌ جميلة، وخلاصةٌ عن نشاطات الأولاد ومشاكلهم، مع شيءٍ من التثاؤب وتذبيل العيون.. نعَساً لا ظُرفاً ودلالاً!

ولا يمكننا هنا أن نغضّ الطرف عن الغصّة التي تعتري الزوج عندما يدرك أن هذه الزينة ليست مخصّصة له، بل بقايا آثار زيارتها لبيت فلانة، أو مشوارها للتسوق مع علاّنة! وأنه (كزوجٍ): مركونٌ على الهامش...

تزيّن الزوجة لزوجها:

أعرف كثيراً من الزوجات لا يتزينّ إلا عند التهيّؤ للخروج من المنزل: تلبس إحداهن أجمل ما لديها، وتصفّف شعرها، وتصبغ وجهها، وتتحلى بالخواتم والأساور، ثم لا تكلّف نفسها بعد ذلك عناء أن تجلس مع زوجها بتلك الزينة، تشعره ولو مجاملةً ومداهنة أنه أحقّ من يجب أن يراها بذلك المظهر الجميل! أستغرب عندما أجد سيدةً لا تعنيها زينتها في بيتها من قريب أو بعيد... المهمّ عندها أن يراها الناس بالمظهر اللائق...

حدثتني إحدى قريباتي عن (سذاجة ابنها الصغير)، الذي يهتف قائلاً عندما يراها متزيّنة: ماما.. إلى أين تريدين الذهاب؟! خذيني معك..

تعجّبت في سرّي، وقلت لنفسي: مسكينةٌ هذه السيدة.. تضحك من سذاجة ابنها، والمفروض أن تبكي لا أن تضحك، لأنَّ صغيرها اكتشف بعفويته وبراءته ما لم تستطع أن تكتشفه هي...

والمدهش في هذا أن هذا النوع من النساء دائم التضجّر والشكوى، تقول إحداهن:

لا أعلم لماذا لا أستطيع الولوج إلى قلب زوجي! أشعر وكأنه يعيش في عالم آخر غير عالمي...

وتقول أخرى: قلبي يحدّثني أنه متزوّج بأخرى.. لديّ إحساس قويّ بهذا.. أنا متأكدة من هذا، فأنفي لا يخطئ أبداً..

وتقول ثالثة: أنا أفعل ما بوسعي لإسعاده ... أجهّز له البيت على أحسن ما يرام... البيت دائماً نظيفٌ ومرتّب، ثيابه على أتمّ حال، طعامه من أشهى ما يؤكل، ومع هذا كله لا أشعر أنه مرتاح ولا مسرور...

الحقيقة أن هذه الأمور، (أعني أناقة المنزل وحسن ترتيبه والعناية بالأولاد والسهر على تربيتهم تربيةً صالحةً) هي خطوات هامة في طريق ولوج الزوجة إلى قلب زوجها، ولكنها ليست هي كل الطريق، ولا هي أهمّ شيء فيه...

الطعام اللذيذ والصحي، وأضع هنا خطوطاً تحت كلمة «الصحي»، هي جزء من الطريق.

التزيّن والظهور بمظهرٍ جميلٍ هي جزءٌ آخر...

كوني ظلاً وصدى لزوجك:

لكنَّ الأهم من هذا **اكتشاف الزوجين لطرق عمليّة أخرى، تزيد في تعميق الحب بينهما، وتجدّد روافده وتمتّن روابطه.**

يقول أحد الحكماء: ليس هناك سوى امرأة واحدة تفوز بحب زوجها وتقديره، إنها ليست أجمل بنات حوّاء، ولا أذكاهنّ وأقواهنّ حجة وأسرعهنّ بديهة، إنها تلك التي تجعل فلسفتها منحصرة في الحكمة القائلة: كوني ظلاً وصدى لزوجك...

دور الزوج في الوصول إلى قلب الزوجة:

قد يعترض البعض على ذلك قائلاً:

لماذا يطالب الجميع المرأة بالولوج إلى قلب زوجها، ولا يطالبون الزوج بذلك؟!

والحقيقة أن هذا سؤالٌ وجيهٌ ومهم...

إذ إنَّ أغلب الأزواج يطالبون زوجاتهم بذلك، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير ولو لمرةٍ واحدةٍ بطريقةٍ يلِجون فيها إلى قلوبهنّ، وكأنهم يجهلون أن الحب من طرفٍ واحدٍ حبٌّ عقيم، وأن السعادة الحقيقية تنبع من تفهّمِ الطرفين لواجباتهما قبل السعي لنيل حقوقهما...

كثيرون هم الأزواج الذين يطالبون زوجاتهم بالتزين الكامل لاستقبالهم، بينما يعجّ مظهرهم بالنشاز والشذوذ: شعرٌ أشعث.. أظافر متّسخة.. قميصٌ متعرِّق.. جوارب متملِّحة.. شاربٌ طويلٌ متعرّج.. (ومن الشوارب ما قد تتشابك أطرافه بسبب بقايا الأطعمة والأشربة التي تجد لها مأوى فيه)!!

وكثيرون أيضاً هم الأزواج الذين ينظرون إلى بيوتهم على أنها مطعمٌ أو فندق، فينحصر نشاطهم فيها بالنوم والطعام! وتصبح زوجاتهم وكأنها المديرة والمدبّرة لهذا المطعم أو الفندق!

بل إن منهم من ينظر إليها على أنها خادمة فقط!! وربما كانت الخادمة في نظره أوفر تكلفةً وأقلّ إزعاجاً... وما أكثر الخادمات اليوم، وما أسهل الحصول عليهن!

بعد ذلك يقول أحدهم:

أحسّ أن بيني وبين زوجتي آلاف الأميال التي تفصل بيننا! هناك حواجز كبيرة بين قلبينا، ولست أعلم السبب في ذلك؟!

ويقول أخر:

أنا أفعل ما بوسعي للتقرّب إليها، فلا تطلب شيئاً إلا وألبّيه.. أعمل ليل نهار لأُشبع نهمها للنزهات والملبوسات وأطايب الطعام...

الهدي النبوي:

عندما نعود إلى **الهدي النبوي**، نرى فيه غير هذا الكلام، ونرى النبي ﷺ يتوجّه بالنصائح إلى كلا الطرفين: الزوج والزوجة.

من هذا قوله في وصف الزوجة الصالحة:

(خير نساءٍ ركبن الإبل نساء قريش: أحناهنَّ على ولدٍ في صغره، وأرعاهنَّ على زوجٍ في ذات يده)[1].

ويقول ﷺ: (خير النساء من تسرّك إذا أبصرت، وتطيعك إذا أمرت، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك)[2].

ويقول: (خير نسائكم الولود الودود، المواسية المواتية (المطاوعة)، إذا اتقين الله)[3].

ولما جاءته أسماء بنت يزيد الأنصارية تقول: بأبي أنت وأمي، إني وافدة النساء إليك، إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً ومرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابا، وربينا لكم أولادكم، أفنا نشارككم في الأجر يا رسول الله ؟ قال: فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها، ثم قال لها: (انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله). قال : فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبّر استبشارا[4]..

---

(1) ـ رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب النفقات، رقم (5365).

(2) رواه الطبراني عن عبد الله بن سلام ﷺ، (9/ 456). وصححه الألباني.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى، عن أبي أذينة الصدفي، في النكاح، رقم (7/ 82). وصححه الألباني.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (8484). وإسناده ضعيف.

وإن لزوجك عليك حقاً:

وكان ﷺ يعلِّم الأزواجَ الطريقَ إلى قلوب زوجاتهنّ، فيقول:

(حبّب إليّ من دنياكم النساء والطّيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة)[1].

ويقول: **(خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)**[2].

وعندما رأى عليه الصلاة والسلام زوجة عثمان بن مظعون بهيئةٍ رثّة، استنكر ذلك وقال لزوجته عائشة: ما أبذّ هيئة خويلة! فقالت عائشة: يا رسول الله، امرأةٌ زوجها يصوم النهار ويقوم الليل، فهي بلا زوج، فتركت نفسها وأضاعتها.

وعند ذلك توجه النبي ﷺ إلى عثمان بن مظعونٍ، يعظه وينصحه، ويبيّن له حقّ زوجته عليه قائلاً: **(يا عثمان أرغبة عن سنّتي ؟ ! فقال: لا والله يا رسول ولكن سنّتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصلِّ ونم)**[3].

وفي رواية أبي يعلى: **(فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرةً وكأنها عروس)**[4].

إكرام الشعر والتطيّب:

وكان ﷺ يقول: **(من كان له شعرٌ فليكرمه)**[5].

وكان عليه الصلاة والسلام يتطيّب ويتزيّن بالجميل من الثياب، ليعلّم صحابته بأفعاله قبل أقواله.

---

(1) رواه النسائي عن أس بن مالك ﷺ، في كتاب: عشرة النساء، رقم (3939) وحسّنه الألباني.

(2) رواه الترمذي، عن عائشة رضي الله عنها، باب فضل أزواج النبي، رقم 3895، وصححه الألباني.

(3) رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الصلاة، رقم (1369) وصححه الألباني.

(4) رواه أبو يعلى عن أبي موسى الأشعري ﷺ، (7242). وهو حديث حسن.

(5) رواه أبو أبي داود عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب: الترجل، رقم (4163) وقال الألباني: حسن صحيح.

يروي البراء بن عازب رضي الله عنه فيقول: **كان ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، له شعرٌ يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلّةٍ حمراء، لم أرَ شيئاً قط أحسن منها**[1].

وتروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: **كنت أطيّب النبي ﷺ عند إحرامه بأطيب ما أجد.**[2]

وكان ﷺ يحث على تغيير الشيب عن طريق خضب الشعر وصبغه، فيقول: **(إنّ أحسن ما غُيّر به هذا الشيب الحنّاء والكتم)**[3]. **ويقول: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم)** [4].

والكتم نباتٌ بريّ له حبوب، يستخرج منه صباغٌ بين السواد والحمرة.

وروى الإمام البخاري أن **النبي عليه الصلاة والسلام كان يتحلّى بخاتمٍ من فضة، فتحلّى الصحابة بخواتيم من فضةٍ اقتداءً به.**

عشرة من الفطرة:

وعدّد النبي صلى الله عليه وسلم أموراً اعتبرها من الفطرة السليمة، منها: **(قصّ الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقصّ الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة)**[5].

وقد نهى النبي أن يطرق الرجل أهله ليلاً بعد سفرٍ دون أن يعلمهم بقدومه، فقال: **(أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً، لكي تمتشط الشَّعِثة، وتَستحدَّ المغيَّبة)**[6].

وذلك أن الزوجة إذا غاب عنها زوجها، ربما تهمل نفسها، فأحب النبي ﷺ ألا يرى الزوج من زوجته إلا كل كمالٍ وجمال...

---

(1) رواه البخاري عن البراء بن عازب، في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (3551).

(2) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: اللباس، رقم (5923).

(3) رواه أبو داود عن أبي ذر ﷺ، في كتاب: الترجل، باب: في الخضاب (4205)، وصححه الألباني.

(4) رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب: الخضاي، رقم(5899).

(5) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الطهارة باب: خصال الفطرة (261).

(6) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ، في كتاب: النكاح، باب: طلب الولد (5245).

الحبّ يزيد وينقص:

سألتني مرة إحدى معارفي:

يقولون: الحب هو الأساس في العلاقة الحميمة بين الزوجين، ولكن ما بيني وبين زوجي يتناقض مع هذه المقولة، فقد تزوّجنا بعد قصة حبٍّ طويلة، عانينا فيها المرّ والأمرّ، حتى يسّر الله لنا التزوّج بعد معارضةٍ من أهلي وأهله.

لقد كنت أعشقه وكذلك هو، ولا أعلم لماذا خبا حبّنا بعد الزواج، وخمدت جذوته حتى إنها لتكاد تنطفئ وتموت!

أقول: الحب كالإيمان، يزيد وينقص...

المشاكل الزوجية تُنقص شحنات الحبّ وتخفض من وتيرته.

تكاليف الحياة الكثيرة، وضيق ذات اليد، عاملٌ آخر يفسد صفاء الحب ورونقه.

الهموم العائلية، مشاكل الأولاد وطلباتهم التي لا تنتهي، النمنمات اليومية الصغيرة.. عقارب الروتين القاسية التي تسير برتابةٍ كدقات الساعة: كل يوم مثل الذي قبله، لا شيء جديد..

كل هذا سكاكينُ جارحةٌ تعبث بشريان الحب، لتوقف تدفّقه وجريانه..

روافد ترفد الحب بالغذاء:

ماذا يفعل الزوجان أمام كل هذه العقبات التي تفسد عليهما متعة الحب؟!

الحب وحده لا يكفي لاستمرار العلاقة الزوجية سعيدةً هنيئة، بل لا بد لهذا الحب من روافد ترفده بالغذاء، وتخرجه إلى أرض الواقع مترجماً إلى أعمال...

قد تكون البداية بأن يفصح كل طرفٍ للآخر عن حبه وعشقه وهيامه بين الفينة والأخرى...

مجرد الإفصاح عن الحب، وتكرار هذا الإفصاح كلما سنحت الفرصة، يثبّت الحب في القلب ويوطّد دعائمه، كما يجدّد المشاعر المكبوتة التي كادت أن تخبو، ويمدّها بالوقود لتلتهب بالحب من جديد...

ربما يخجل الزوجان من ترديد عبارات الحب أمام أولادهما أو أمام الأهل، بل إن بعضهم إذا ما شاع أمر حبّه لشريكه الزوجي يسارع إلى نفيه، وكأنّ الحب الزوجي تهمة!!

إني قد رُزقت حبها:

دعوني أحدثكم عن حب النبي لزوجاته، وعلى وجه الخصوص لزوجتيه خديجة وعائشة رضي الله عنهما...

سأل عمرو بن العاص النبي ﷺ: من أحبّ الناس إليك؟ (ولكأنه كان يطمع أن يقول له النبي: أنت).

فأجاب النبي جواباً لم يكن يخطر في بال عمرو أن يجيب به. قال له: **(أحب الناس إليّ عائشة. فقال عمرو: فمن الرجال يا رسول الله؟! فقال: أبوها)**[1].

وكان يقول لابنته فاطمة رضي الله عنها: **(أي بنيّة ألست تحبين من أحب؟ قالت: بلى، قال: فأحبي هذه)**[2]، أي عائشة.

النبي ﷺ أراد وتعمَّد أن يشيع حبه لزوجته بين صحابته، ليكون بهذا قدوةً عمليةً يهتدون بهديها في علاقاتهم مع زوجاتهم..

وكانت عائشة رضي الله عنها تعرف ذلك تمام المعرفة..

أليس في هذا هديٌ نبوي لكل زوجين يفتقدان دفء العاطفة الزوجية؟!

كثيرٌ من الأزواج يسأل أحدهما الآخر: أتحبني؟ فيجيبه: نعم.. وعندما يكرّر السؤال يجيبه بغيظ: كم مرّةً عليّ أن أخبرك أني أحبك!!

والحقيقة أن أوّل حبٍّ في الإسلام كان حب النبي ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها، حتى إن عائشة رضي الله عنها كانت تغار من خديجة وهي في قبرها تحت التراب، **تروي عَائِشَة رضي الله عنها فتقول: مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ**

(1) رواه البخاري عن عمر بن العاص رضي الله عنه، في كتاب: المناقب، رقم (3662).

(2) رواه النسائي، باب حب الرجل بعض نسائه، رقم (3961). وصححه الألباني.

-صلى الله عليه وسلم- إلاَّ عَلى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا. قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ: أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ. قَالَتْ فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا)[1].

يروى أنها قالت له مرة: ما تذكر من عجوزٍ من عجائز قريش، حمراء الشدقين (كناية عن سقوط أسنانها)، هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها، فغضب وقال: **(والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد، ولم يرزقني من غيرها من النساء)**[2].

إذاً، تكرار كلمة (الحب) والإفصاح عنه خطوة هامة في طريق تمتين العلاقة الزوجية السعيدة وترسيخ جذورها...

من الخطوات الهامة أيضاً **تزيّن أحد الزوجين للآخر**، كلٌّ بحسب ما يتيسّر له...

عندما تتفنّن الزوجة باختيار اللباس الذي يحبه زوجها، وتصفّف شعرها بالطريقة التي يرغب، وتصبغ وجهها بالمكياج الذي يستهويه ويستحليه، ويعلم الزوج أنها تفعل ذلك من أجله فقط، لا من أجل الآخرين، وأنها لا تهدف من وراء ذلك سوى استمطار عبارات المدح والثناء من فمه، لا شك أنه عندها سيرضيها ويستجيب لنداء الأنوثة فيها...

ابتكار طرقٍ جديدة:

يقال: الاعتياد على الأشياء يفقدها بريقها الأخّاذ، وأنا أقول: لا بدّ للزوجين من البحث عن طرقٍ جديدةٍ تعيد إلى الحب بريقه ولمعانه وجماله...

قد تكون رسالة حبٍّ من زوجة لزوجها، أو من زوج إلى زوجته، إحدى الخطوات الهامة في هذا الطريق كما رأينا في بداية حديثنا...

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضائل خديجة، رقم (6431).

(2) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها، رقم (24343) وإسناده ضعيف.

قد تكون وردةٌ أو ما يشبهها من الهدايا الرمزية، يقدّمها أحدهم إلى الآخر، مرفقةً بابتسامةٍ نديّةٍ نابعةٍ من القلب، مع لمسةٍ أو قبلةٍ حانيةٍ مليئةٍ بدفء المشاعر ولهبها، أفضل طريقةٍ للمس أوتار القلب وتأجيج مشاعر الحب وإعتاق الزوجين من إسار الروتين..

تصنّع المحبة:

وربَّ قائلٍ يقول:

هذه النصائح موجهة لزوجين يحبّ أحدهما الآخر، ليعملا ما في وسعهما للحفاظ على حبهما.

ولكن ماذا يفعل من لا يحبّ شريكه الزوجي؟! كيف يدخل إلى قلبه مستميلاً مستعطفاً؟!

وكيف يختلق السعادة لمسيرته الفاقدة إلى الحبّ، المليئة بالملل والكآبة والمشاكل والمنغّصات؟!

يحكى أن أحد الحكماء أتته امرأة تشتكي سوء العلاقة بينها وبين زوجها، وأفصحت له عن كرهها إياه، وطلبت منه أن يعينها على الخلاص منه بأية وسيلة.

فكر الحكيم مليّاً ثم قال: نعم، سأعينك على الخلاص منه، ولكن عليك في البداية أن تنفّذي ما أطلبه منك، حتى لا ينكشف أمرك ويذاع سرّك.

عليك أن تتظاهري أمام زوجك والآخرين بأنك تحبينه، وذلك لمدة أسبوعٍ كامل.

بعد أسبوع عادت الزوجة إلى الحكيم، فقال لها: أظنك أتيت لأدلّك على وصفةٍ تريحك من زوجك.

هزّت المرأة رأسها بالنفي وقالت: لا أيها الحكيم.. لقد اكتشفت أني أحب زوجي ولا أستطيع العيش دونه.

لا شكّ أنكم تتساءلون عن السبب في هذا الانقلاب المفاجئ!

لقد كان لتظاهر الزوجة وتصنّعها محبة زوجها في ذلك الأسبوع مفعولاً سحرياً على الزوج، فقد صدّق أنها تحبه، فبادل حبها المتصنّع حباً حقيقياً، وأظهر لها ما بداخله من مشاعر جميلة كانت مكبوتةً خافية، وكان ذلك سبباً في زرع بذور الحبّ بين هذين الزوجين.

كم من زوجين يعيشان مع بعضهما عقوداً طويلة، لم يسمع أحدهما من الآخر كلمة حبّ أو حتى ثناء..

كذبة بيضاء:

المشاعر الزوجية متناقضة متداخلة في كثير من الأحيان، تؤثّر فيها المشاكل والخلافات الزوجية والصعوبات والعقبات الجانبية، فتختلط الأمور على الزوجين، وقد يشعران أو يشعر أحدهما بالكره يتسلّل إلى قلبه تجاه الآخر، دون أن يكتشفا أن ذلك شعورٌ سطحيّ لا يلبث أن يزول إذا ما أحسنا التصرف والمواجهة...

إذاً قد يكون تحبّب الزوجين إلى بعضهما مجرّد تمثيلية، ولكنها لا تلبث أن تنقلب إلى حقيقةٍ حين يستخرج كلّ منهما ما لدى الآخر من جواهرَ ثمينة ومعادن نفيسة كانت مخبوءةً دفينةً، تنتظر اليوم الذي تتفجر فيه، لتفيض بالصدق والدفء والود والحب.

وفي هذا يروي أحد الصحابة قائلاً: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث كان رسول الله ﷺ يقول: (**لا أعدّه كاذباً: الرجل يصلح بين الناس، يقول القول، ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدّث امرأته والمرأة تحدث زوجها**)[1].

طبعاً الكذب المباح هنا هو الكذب الذي يؤدي إلى إصلاح الحال بين الزوج وزوجته، ليرضيها وترضيه، وتتقرّب منه ويتقرب منها، بحيث يزيد في

(1) رواه مسلم عن أم كلثوم بنت عقبة، باب: الأدب، باب: إصلاح ذات البين (4921).

متانة الرابط المقدس، الذي يربط بينهما ويدعّمه، دون أن يكون فيه إساءةٌ لأحدٍ أو تلعبٌ على أحدٍ أو أكلٌ لحقوق أحد.

أما ما قد يفهمه البعض من أنه إباحةٌ للكذب المطلق، فهو أمرٌ يتناقض مع المقاصد الشرعية، ومع ما يُفهم من روح الحديث الشريف وحكمته.

أناشدك بالله: أتحبينني؟

يحكى أن أبا عذرة الدؤلي كان يُكثر من تطليق النساء اللواتي يتزوج بهن، وذلك في زمن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله مرّة عن سبب ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين إنني أناشد زوجتي بالله تعالى: أتحبينني؟

فتجيبني: أما وقد استحلفتني بالله تعالى فإني لا أحبك أبداً. فهل من المعقول يا أمير المؤمنين أن أعيش مع زوجةٍ لا تحبني؟!

فأرسل عمر إلى زوجته، فلما جاءت قال لها: أنت التي تحدّثين زوجك أنك لا تحبينه؟

قالت: يا أمير المؤمنين إنه ناشدني بالله تعالى، فتحرّجتُ أن أكذب، أفأكذبُ يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم فاكذبي. فإن كانت إحداكن لا تحبّ زوجها فلا تخبره بذلك، فإنّ قليلاً من البيوت التي تبنى على الحب، وإنما يتعاشر الناس بالإسلام.

* * *

أخي الزوج.. أختي الزوجة..

تذكرا المثل القائل: اكذب ثُم اكذب ثم اكذب تصبح الكذبة حقيقة...

كذبة الحب كذبةٌ بيضاء، لا تلبث أن تصبحَ حباً حقيقياً مع مرور الزمان...

وهنا لي سؤال: هل حياة الحب الحقيقي، بما فيها من البياض والجمال والسعادة والهناء، تخلو دائماً من الصعوبات والأشواك؟

لا أظن ذلك، ومع ذلك دعونا نبحث هذا الموضوع في الصفحات التالية.

صُعوباتٌ
وأشْواك

يعتقد أغلب الشباب أن طريق الحياة الزوجية طريقٌ سهلةٌ معبّدةٌ مفروشةٌ بالأزاهير والرّياحين والورود.
وتظلّ الفتاة تحلم بيوم الزّفاف.. بالفستان الأبيض وعقد اللؤلؤ والألماس.. بزغاريد النسوة وهدايا الأقارب والأحباب.

تحلم بذاك اليوم الذي سيحملها فيه زوجها إلى عشّ الزوجية، ليطير بها في عالم الرومانسيّة والحّب والهيام، بعيداً عن مشاكل الحياة وصعوباتها.

بينما يحلم الشابُّ باليوم الذي تطوّق فيه ذراعاه خصر تلك الحبيبة، ويتخيّل يدها تمسح عن جبينه ألم الحاضر وحسرة الماضي وخوف المستقبل، ويترقّب قلبها النابض بالحبّ يمدّه بالأمل والسعادة...

فهل حقاً طريق الحياة الزوجية سهلة معبدة مفروشة بالأزاهير والرّياحين والورود؟!

وهل يمكن للحياة الزوجية أن تقطف ورود الحبّ دون أن تتأذى بأشواكها؟!

وهل يمكنها أن تجني عسل الإلفة والسّكينة دون أن تنالها إبر النّحل بلسعاتها؟!

لا بدّ دون الشّهد من إبرِ النّحلِ:

الحياة الزوجية ليست كلها زهوراً جميلة وابتساماتٍ لطيفةً وعواطفَ رقيقةً..

هذه الحياة غير موجودةٍ إلا في الأحلام والأفلام، أما الواقع فهو غير ذلك..

والقاعدة العلمية تقول على لسان الشاعر:

لا تحسب المجد شهداً أنت آكله لا بدّ دون الشّهد من إبرِ النّحلِ

ففي الحياة أزماتٌ وصعوباتٌ وأشواك، ولا بد لكل علاقةٍ زوجيّةٍ من أن تمرّ بها، وقد يتأخّر وقوعها أحياناً، وقد يسرع أحياناً أخرى، وقد تنتهي تلك الأزمات والصعوبات بستر وسلام، ليعود الوئام والحبّ إلى نقائه وألقه من جديد، وقد تكون العاقبة وخيمةً، تنتهي بمأساةٍ وآلام، فتقوّض عشّ الزوجية، وتنخر جذوره، وتهدّم أركانه..

مختارات من أقوال الحكماء:

– الزواج جنّة، والمرأة الجاهلة الحمقاء، والرّجل الجاهل الأحمق، جحيمها..

– من يعرف الغير فهو ذكيّ، أما من يعرف نفسه فهو مستنير، ومن يغلب الغير فهو قويّ، أما من يغلب نفسه فهو جبّار..

– لكي يكون الزوجان سعيدين على الزوج أن يكون أطرشاً، وعلى الزوجة أن تكون عمياء..

– ليس الحبّ أن يطيل أحد الزوجين النظر إلى الآخر، وإنما الحّب أن ينظر كلاهما في الاتّجاه ذاته..

– القاعدة الذهبية لكل زوج وزوجة: تذكّر أن تنسى..

– إذا لم يستطع الزوجان أنْ يزيّنا طريق حياتهما بالزّهور، فلا أقلَّ من أن يزيّناه بالابتسام..

– الزّوجان السعيدان هما الزّوجان اللّذان يكفّان عن مقارنة حياتهما بحياة الآخرين.. هما اللذان يعرفان كيف يكتفيان ومتى يكتفيان، متّخذين من فضيلة الاكتفاء والقناعة زاداً، يغذّي حياتهما بالحبّ، وزهوراً تفرشها بالسعادة..

الإنصات لكلام الناس أمّ المشاكل:

اشتكى لي أحد أقاربي زوجته قائلاً:

– أكون وإياها مثل السّمن على العسل، ولكنها عندما تجتمع بصديقاتها تعود إلى البيت مقلوبةً رأساً على عقب.. لا أدري لماذا تصبح متوثّبةً مستفرسة، تنتظر أيّ فرصةٍ تمكّنها من اختلاق مشكلة، لتقلب بعدها جو البيت (فوقاني تحتاني).

اجتمعتُ أنا بتلك الزوجة، وتجاذبنا أطراف الحديث، واستطعتُ أن أستشفّ ما يعتلج في داخلها من مشاعرَ متناقضةٍ، تدفعها لتتصرّف بهذه الطريقة الخاطئة...

مشكلتها هي مشكلة الكثيرين من الأزواج والزّوجات: الإنصات إلى كلام الناس! يجتمع الزوج أو الزّوجة ببعض الأصدقاء، ويبدأ أحدهم بسرد مشاكله وهمومه الزوجيّة أمام الآخرين، فيبدأ الآخرون بالتعليق على ذلك.. وغالباً ما يكون تعليقهم بداية المشاكل!

كنتُ مرةً في جلسةٍ نسويةٍ جرى فيها الحديث عن الأزواج.. بداية الحديث كانت لزوجةٍ تشتكي سوء معاملة زوجها لها.. وبدلاً من مدّ هذه المسكينة بالصبر وشحذها بالتحمّل وطول البال، راحت كل واحدةٍ من المجتمعات تفرد عضلاتها، وتختلق في هذا قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان.

هذه تقول: مسكينة والله.. قلبي تقطّع عليك... الحمد لله، أنا زوجي دائماً يطلب رضاي وسعادتي..

وأخرى تعقّب: وماذا فعلتِ يا فهيمة؟ أرجو أن لا تكوني قد سكتِّ على فعلتِه! والله لو فعل زوجي هذا معي لرددتُ عليه الصّاع صاعين.. أما سمعت المثل القائل: زوجُكِ على ما عوّدتيه، وابنُك على ما ربّيته!

أعتقد أن هذا ما يحدث أيضاً مع الأزواج!

يقول أحدهم مشتكياً: زوجتي امرأةٌ متمرّدةٌ، لا تطيع أوامري، ولا تستمع لكلامي.

فيجيبه أحدهم: مسكينٌ أنت والله. أنا زوجتي طوع بناني ورهن إشارتي، ودائماً هي أمامي: شبَّيك لبَّيك.. عبدك بين يديك..

ويعقّب آخر قائلاً: إياك أن تصمت وتستكين، أدّبها ولو اضطّر الأمر للضرب والطرد من البيت!

وهكذا دواليك في كل قصةٍ أو حادثة تثار، يعزف الجميع على أوتار الشحّن والإثارة النفسية، فتكبر على الطرف المشتكي مصيبته، ويعود إلى منزله وقد نفدت لديه وسائل الصبر، وعميت عينه عن رؤية أيّ حسنة من حسنات شريكه، ولم يعد يرى فيه إلا شخصاً سيّئاً رديئاً لا يحسن إلا عمل المثالب والنّواقص.

الزواج المثالي لا يوجد إلا في الأحلام:

وبغضّ النظر عن مدى صدق أو كذب الأصدقاء فيما يذكرونه من قصص وحوادثَ عن بطولاتهم في بيوتهم، وبعيداً عن مدى سلامة نواياهم أو خبثها، وبغض النظر عن الخطأ الذي يرتكبه هؤلاء الأصدقاء في حقّ المشتكي، فإنني أقول لكل من يفعل هذا: اسمع معي حديث النبي ﷺ: **(ليس منّا من خبّب (أفسد) امرأةً على زوجها)**[1].

وأقول لكل زوج وزوجة: من يعطي أذنه للناس يتعب كثيراً..

ومن المفترض أن يكون الزوج المشتكي أو الزوجة المشتكية أكثر ذكاءً ونضجاً وفهماً وعقلانيّةً وواقعيّة، حتى يستطيع أحدهم أن يتخطّى العقبات التي تعترض مسيرته الزّوجية.

فليس هناك زواجٌ مثاليٌّ كما يحلم أغلب الشباب والشابّات.. وليس هناك زوجٌ كامل الأوصاف، ولا زوجةٌ كاملة الأوصاف!

---

(1) ـ رواه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الطلاق، رقم (2175). وصححه الألباني.

انظروا إلى من هو أدنى منكم:

وعلى فرض صحة كلام الأصدقاء فيما يذكرونه عن حياتهم الزوجيّة، والتي يحاولون أن يبرزوا أجمل ما فيها، (عن حسن نيةٍ أو سوئها.. الله أعلم)، فإنَّ هناك جوانب أخرى سيّئةً حاولوا أن يغيّبوها عن ساحة ذلك النقاش، وربما تكون في الواقع أسوأ بكثيرٍ من تلك الأوصاف، التي يشتكي منها الزّوج أو الزّوجة..

قد يكون صحيحاً أن زوج فلانة يعاملها بلطفٍ ولباقة، فلا يرفع صوته في وجهها، ولا يحاسبها موبّخاً على كل صغيرةٍ وكبيرة، ولكنه بالتأكيد يمتلك صفاتٍ سيئةً من جوانب أخرى، فقد يكون مستهتراً لا يلتزم بالمواعيد ولا يتحمّل المسؤولية، أو قد يكون رجلاً كسولاً لا يحبّ العمل ولا يقوم بدوره في الإنفاق على الأسرة وتلبية متطلباتها، وربما يكون زوجاً زائغ النّظرات هنا وهناك، يبحث عمّن ترضي شهوته بالحرام، ويعود إلى زوجته في المساء فيمطرها بكلمات الحب الكاذبة، ليغطّي بها أفعاله المشينة...

وقد يكون صحيحاً أن زوجة فلان تطيع أوامره لدرجة (شبيك لبيك.. عبدك بين يديك)، ولكنها ربما تكون غبيةً أو مائعةً أو مهزوزة الشّخصية...

وعندما يحدّث الزوجان نفسيهما، فيذكّرانها بمساوئ الآخرين المحتملة، لن يريا العلاقة بين بعضهما البعض في صورةٍ سّيئةٍ أبداً.. ففي كل إنسانٍ محاسن ومساوئ، إيجابيّاتٌ وسلبيّات، وعندما يُعرض أحد الزوجين عن رؤية حسناتِ شريكه وإيجابيّاتِه، ويقتصر على رؤية المثالب والمساوئ، بينما ترى عيناه حسناتِ الآخرين وإيجابيّاتهم، دون إدراكٍ لمثالبهم ومساوئهم، عندها ستكون النهاية دمارَ الحياة الزوجية وتمزقَها وتشرذمَها...

النبي ﷺ يقول: **(انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله)**[1].

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، في الزهد والرقائق (2963).

لماذا لا ينظر أحدهما إلى من هو أسوأ من شريكه بدل النّظر إلى من هو أحسن؟ لا شكّ أنه عندها سيكتشف المحاسن الكثيرة، التي لم يكن يراها من قبل في شريكه، ولا شك أيضاً أنه سيشعر بالغبطة والسعادة تطرق فؤاده، وسيعود إلى شريكه يتلقّاه بالحّب والحنان والدّفء والعاطفة، ليستمتع بفضائله الكثيرة، محاولاً التأقلم مع مساوئه القليلة...

النظر إلى الإيجابيّات:

ما أجمل هذه المقولة:

الحياة كوبٌ نصفه مملوءٌ ماءً، ونصفه الآخر فارغٌ لا ماء فيه، فمن رأى النصف المملوء، وتفاءل بالريِّ سعد، ومن ظلّ ينظر إلى النصف الفارغ، ويخاف من الموت عطشاً شقي وتعس.

ومعنى هذا أنّ بإمكان أيّ زوجٍ أو زوجةٍ أن يدرّب نفسه على تقبّل وضعه والتعايش معه بسرورٍ وسعادة.

كيف يكون ذلك؟!

ينظر إلى الإيجابيّات والمحاسن وما أكثرها... سواء من شريكه الزوجيّ أو أولاده أو أهله أو بيت حماه، أو حتى جيرانه!!

وإذا ما واجهته مشاكلُ ومنغّصاتٌ أغاظته وعكّرت عليه حياته، فعليه أن يجذب إلى ذاكرته صور الإيجابيات والمحاسن، ويتصوّر المتعة التي يحصل عليها جرّاء ذلك، ثمّ يذكّر نفسه بأن ليس هناك حياةٌ خاليةٌ من المصاعب، ثم يحمد الله تعالى أنّ مصيبته كانت كذلك، ولم تكن أكبر من ذلك.

يحكى أن عمر بن الخطاب مرّ على رجلٍ مبتلى، مصابٍ بالجذام والشّلل والعمى، فقال لأصحابه: هل ترون هذا في نعمةً من نعم الله تعالى؟! أجابوا وقد أصابتهم القشعريرة من هذا المنظر: لا يا أمير المؤمنين.

فقال: بلى! ألا ترون أنه إذا تبوّل أو تغوّط لم يعتصر ولم يتلّو من الألم!!

أخي الزوج.. أختي الزوجة.. استمعا معي إلى هذا الشعر الجميل:

أيّها المشتكي وما بك داءٌ ... كيف تغدو إذا غدوتَ عليلا
أيها المشتكي وما بك داءٌ ... كنْ جميلاً ترى الوجودَ جميلا
إنَّ شرّ الجُناةِ في الأرض نفسٌ ... تتوقّى قبل الرحيلِ الرّحيلا
وترى الشّوك في الورود وتعمى ... أن ترى فوقها النّدى إكليلا
والذي نفسُه بغيرِ جمالٍ ... لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلا
فتمتّع بالصّبح ما دمتَ فيهِ ... لا تخفْ أن يزولَ حتّى يزولا

* * *

علّموا أولادكم الحياة الزوجية السعيدة:

الحياة الزوجية السعيدة بحاجةٍ ماسةٍ إلى توجيه الأهل وملاحظاتهم عليها وعلى ما فيها من صعوباتٍ وأشواكٍ منذ سنِّ الفتوة والصبا والشباب.

أغلب الأمهات يربّين أجساد أولادهنّ، فيطعمنهم أحسن الطعام، ويلبسنهم أحسن اللباس، وينسين أن يربين عقولهم وأرواحهم وأفكارهم...

أتمنّى أن يأتي اليوم الذي تجلس فيه الأمهات مع أولادهنّ الشّباب والشّابات، ليحدثنهم عن الزّواج ومسؤولياته، وعن ضرورة الصّبر على مصاعب الحياة الزّوجية وأشواكها، بدلاً من أن يأخذوا هذه المعلومات من أفلام الحّب والغرام...

الفتاة تمتلك حسّاً مرهفاً وعاطفةً جيّاشةً أكثر من الشّاب، وهي بالتالي أكثر تأثّراً بأشواك الحياة الزّوجية ولسعات إبرها...

أغلب الفتيات (إن لم نقل جميعهنّ) يحلمن بيوم الزفاف والفستان الأبيض والأساور والخواتم.. تتشوّق إحداهنّ إلى ذاك اليوم، الذي سيحملها فيه عريسها إلى منزلها الزوجيّ، ليشبعها حبّاً ودلالاً ورومانسيّة...

لا شكّ أنّ هذه الفتاة ستصطدم عندما تتزوّج بواقعٍ مختلف، فما رسمته في مخيّلتها لن يتحقّق كما تخيلته تماماً، والواقع الذي تعيشه قد يجعلها تشعر بالكآبة والجزع والحظّ التعيس! فتغيم الدنيا في عينيها، وتظنّ نفسها أبأس وأتعس زوجةٍ في العالم، وتبدأ ذروة الحب التي كانت تشتعل في قلبها في فترة الخطوبة تخمد رويداً رويداً بسبب مشاكل الحياة وقلّة خبرتها على مواجهتها.

درّبي ابنتك على كيفية قطف الورود:

هنا يأتي دور الأمّ المربّية العاقلة في توجيه ابنتها وتفهيمها أسرار الحياة الزّوجية والصّعوبات التي تكتنفها، فتدرّبها على قطف الورود دون أن تتأذّى بأشواكها، وتعلّمها كيف تجني العسل دون أن تلسعها إبر النحل...

تأخذ بيدها خطوةً خطوةً في درب الحياة الزوجيّة، وتعلمها:

- كيف تتعامل مع اختلاف طبائع زوجها وأهله والبيئة الجديدة التي ستحلّ عنصراً أساسيّاً فيها.
- كيف تقوم بواجباتها تجاه أسرتها الجديدة قبل أن تطالب بحقوقها.
- كيف ترى المحاسن وتقدّرها، وتبصر المساوئ وتعالجها.
- كيف تكون لزوجها عضداً في السّراء والضّراء، يواجهان معاً أمواج الحياة العاتية، ويبنيان يداً بيدٍ صرح سعادتها لبنةً لبنة...

والأهم من هذا أن تعلّمها أنَّ العوائق والمصاعب التي ستعترض طريق حياتها الزوجية لا تعني انهيار آمالها، ولا تستلزم حدوث شرخٍ عاطفيّ بينها وبين زوجها، كما تظنّ كثيرٌ من الفتيات، حتى إنّ بعضهنّ تعلّق قائلةً: الحب أكذوبةٌ كبيرة.

الواقع أن الحبّ الزوجيّ شيء مقدّس يجمع بين الزّوجين، وأنّه يزيد وينقص، ولكنه (برأيي) لا يموت.

الحب يزداد بالتفاهم والتجاوب والتوادد والتعاضد والمعاشرة الحسنة، وينقص عندما تسود لغة المشاكل والانتقام والأنانيّة، والزّواج القائم على المحبّة والاحترام والمصارحة والمسامحة يستمر عامراً بالدفء والمحبّة، مهما واجهته المصاعب والأزمات.

المرحلة الأولى من الزواج خدمة عسكرية:

أعرف زوجةً كانت تشبّه مصاعب الفترة الأولى من الحياة الزوجيّة بمصاعب الفترة الأولى من الخدمة العسكرية، وكانت تقول: هذه فترةٌ مؤقّتةٌ لا تدوم، وهي رغم صعوبتها ومشاقّها ذات أهمّية كبيرة في حياة الزوجين من ناحية صقل مواهبهما وبلورة شخصيّتهما.

وهذا صحيح، فالفترة الأولى من الحياة الزوجية فترةٌ قد تكون شاقّةً وصعبةً على الزوجين معاً، ولكنها مؤقّتةٌ، وهي قادرةٌ على أن تبلور حياتهما وتصقل شخصيتهما، ويعود تقدير طولها وقصرها إلى مدى قوّة إرادة الزوجين وتصميمهما على تحدّي تلك المرحلة ومواجهتها، من خلال الصّبر على قشورها وأشواكها، ريثما يستطيعان الوصول إلى ورودها الشذيّة العطرة، وإلى لبِّ صبّارها الحلو المذاق الطيب الطّعم...

وصية والدين لابنتهما في يوم زفافها:

كنت أتصفّح **كتاب (جمهرة خطب العرب) ذات يوم، فقرأتُ فيه وصيّتين للفتاة يوم زفافها، إحداهما من أمٍّ لابنتها** قالت فيها:

– يا بنيّة، احملي عنّي هذه الخصال تكن لك ذخراً وذكراً: الصّحبةُ بالقناعة، والمعاشرةُ بحسن السمع والطاعة، والتعهّدُ لموقع عينه، والتفقّدُ لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمّ منك إلا أطيب الطيب.. وعليك مراعاة وقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإنّ حرارةَ الجوع مَلهَبة، وتنغيصَ النوم مَفسدة، ولا تفشي له سرّاً، وكوني أشدّ ما تكونين له إعظاماً، يكن أشدَّ ما يكون لك إكراماً.

والوصية الثانية من أبٍ لابنته التي توفيّت أمّها، فلما كان يوم زفافها قال لها:

يـا بنيّـة، إنّ الأمّهـاتِ يؤدّبن البنـات، وإنَّ أمّك هلكت وأنـت صغيرة، فعليك بأطيـب الطّيب: الماء، وأحسـن الحسـن: الكحل، وإيّـاك وكثرة المعاتبـة فإنّها قطيعة للـودّ، وإيّـاك والغَـيْرَة فإنّهـا مفتاح الطّـلاق، وكوني لزوجـك أَمَةً، يكنْ لـك عبداً، واعلمـي أني القائل لأمّك:

خذي العفوَ منّي تستديمي مودّتي ... ولا تنطقي في سَورَتي حينَ أغضبُ

ولا تنقِريني نقرةَ الـدُّفِ مرّةً ... فإنّك لا تدرينَ كيف المغيّبُ

فإنّي وجدتُ الحبّ في الصّدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبّ يذهبُ

حلاوة العسل وشذا الورود:

في الحيـاة الزوجيـة صعوباتٌ وأشـواك.. لكنَّ فيها من حلاوة العسـل وشـذا الورود مـا هـو أكثـر من ذلك بكثـير، وأعطر مـن ذلك بكثـير، وأطيب من ذلـك بكثير.

المهـم أن يعـرف الزوجـان كيف يصـلان إلى كنوز الحب ليسـتخرجاها، فـإن تاها عـن طريـق ذلـك أو عجـزا عنه، فليسـألا أهل الذكـر.. فإنَّ فـوق كلِّ ذي علـمٍ عليم.

* * *

قـد تطلـب الزوجـة مـن زوجهـا بعـض الأمـور فـلا يسـتطيع تلبيتهـا، فتظن أنـه يتعمـد التقصـير معهـا، لأنـه لا يحبها، فيقسـم لهـا أنه يحبها بـل ويعشـقها، وأنه لـو يسـتطيع أن يأتيهـا بلبـن العصفـور لأتاها بـه دون تأخـير، ولكن مـاذا يفعل إن كانـت العـينُ بصـيرةً واليـد قصـيرة، فما معنـى هذا الـكلام؟!

سنرى معناه في صفحاتنا التالية.

العينُ بصيرة..
واليدُ قصيرة

تحلم الفتيات عادةً بفارس الأحلام: الشاب الوسيم الثري الذي يستطيع تلبية طلباتهنّ التي لا تنتهي، وعلى ثغرة ابتسامة رضى، ولسانه يتمتم قائلاً:

– شبّيكِ لبَّيكِ، عبدك بين يديكِ، طلباتُك أوامر يا سيدتي...

طلبات الفتيات متشابهة عادة رغم اختلاف الألوان والأعراف واللغات والعادات:

بيتٌ جميل، سيارةٌ حديثة، ثيابٌ فاخرة، أطعمةٌ لذيذة، خدمٌ وحشم، بالإضافة إلى الرحلات الترفيهية حول العالم لاكتشاف عجائب الدنيا... من فيينا وحتى باريس.. ومن أمريكا إلى سنغافورة...

ولكن غالباً ما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن! وتتزوج الفتاة شاباً لا يملك من متاع الدنيا إلا اليسير: بيتٌ صغير، وسيارةٌ قديمة، ووظيفةٌ بسيطة، أو محلٌ متواضعٌ في مكانٍ ما!

وفي بعض الأحيان لا يملك حتى البيت الصغير والسيارة القديمة، فيضطر للاستئجار وركوب الباصات.. وتضطر معه الفتاة التي تزوجته للعيش بنفس الطريقة.

أمام هذا الواقع تتراجع الأماني والأحلام، ولكنها لا تموت، بل تبقى معشّشةً في مكانٍ ما في مخيّلتها، على أمل أن تتجسد على أرض الواقع يوماً ما...

وتكبر المشكلة وتستفحل عندما تستولي هذه الأماني على عقل الفتاة ولبِّها، فتعكّر عليها صفو حياتها الزوجية، وتدفعها إلى الإلحاح على زوجها بطلباتٍ لها أول وليس لها آخر...

والسؤال المطروح: ماذا يجري عندما يحدث هذا؟ وكيف يمكن إقناع الزوجة بالرضا والاستسلام للقضاء والقدر؟ وكيف يتصرف الزوج أمام متطلبات زوجته الكثيرة وإلحاحها في ذلك؟!

هل ينساق لرغباتها، فيسعى لتحقيقها بأي وسيلة، بالحلال أو بالحرام؟

أم أن إيمانه بالله ووقوفه عند نواهيه، يبقى أقوى من رغبات الزوجة وإلحاحها؟

* * *

عضُد خير أم عضد شرّ!!

يقال: وراء كل رجل عظيم امرأة، ويقال أيضاً: الزوجة عضدٌ وسندٌ لزوجها.

ولكن، هل هي دائماً عضد خيرٍ، أم أنها تكون أحياناً عضدَ شرٍّ وسوء؟!

سؤال جوابه في القصتين التاليتين:

تزوجت لمياء من وفيق، وهو شابّ متدينٌ خلوق، ولكنه فقير..

عاشت معه في بيتٍ متواضعٍ في مكانٍ ناءٍ عن المدينة..

لم يكن راتب وفيق يكفي لإعالة أسرته، خصوصاً بعد أن رزقهما الله تعالى بولدين: علي وسمية.

قررت لمياء أن تعمل لإعانة زوجها في مصروف الأسرة..

كانت تعمل خارج المنزل منذ السابعة صباحاً وحتى الثالثة ظهراً، وكان عليها عندما تعود أن تتابع أعمالها المنزلية في بيتها ومع ولديها، ولم تكن تجد وقتاً للراحة أو التسلية، رغم أن زوجها وفيق كان يعينها في كثير من أعمال المنزل..

كانت لمياء تقبض راتبها فتضعه كله في جيب زوجها..

لم يخطر في بالها يوماً أن تقول له:

هذا راتبي، وهذا راتبك!

هذا مالي، وهذا مالك!

بل كانت دائماً تنظر إلى زوجها على أنها وإياه واحدٌ، وليسا اثنين..

طموحاتهما واحدة.. آمالهما وأمانيهما واحدة..

وكثيراً ما كانا يجلسان في المساء، يدردشان ويخططان لكيفية إكمال الشهر بالمبلغ القليل المتبقّي في حوزتهما..

النتيجة: سلامٌ وأمانٌ نفسيّ وجسديّ وأسريّ.. دنيويّ وأخروي.

ربما يكون هناك تعب جسدي، ولكن هذا التعب لا يساوي شيئاً أمام الراحة النفسية والاستقرار العائلي..

تقول لمياء: صحيحٌ أني أعمل خارج المنزل وداخله، ولكنني سعيدة جداً، دائماً أرى الامتنان في نظرات زوجي إليّ، وأشعر بحبه، وألمس تقديره واحترامه.

أنا أعتبر السعادة شيئاً نفسياً لا يحصَّل بالمال ولا الجاه، بل بالقناعة والرضا بما قسمه الله تعالى..

الأمر الذي يدهشني هو البَركة التي أجدها أنا وزوجي وأسرتي في ذاك المال الضئيل الذي نحصّله بعد عناءٍ ومشقة، ولكنه والحمد لله يكفينا حتى نهاية الشهر..

نشكر الله الذي أغنانا من فضله، ولم يعوزنا لغيره.

أما قصتنا الثانية فتتحدث عن زوجٍ ميسور الحال يدعى رامز.

رامز رجلٌ ابتلاه الله تعالى بزوجةٍ لا تملك في قلبها ذرةً من قناعةٍ ورضا!

كانت دائمةَ التذمّر والشكوى من ضيق الحال، تطالب زوجها ليل نهار بالمزيد من الأموال والممتلكات: أريد سيارةً أجمل من سيارة أختي.. أريد بيتاً أكبر من بيت صديقتي.. أريد مزرعةً أحلى من مزرعة جارتي.. خذني اليوم إلى المطعم الفلاني.. خذنا في العطلة إلى البلد العلتاني!!!

دفعه تذمّرها الدائم ومتطلباتها الكثيرة وإلحاحها المتواصل إلى أن يمدّ يده إلى الحرام، ولم يعد لديه قواعد ولا ضوابط في عمله وتعامله مع الناس، وغدا جمع المال وتكديسه بأي شكلٍ وبأية طريقةٍ هاجساً مزروعاً في نفسه ومسيطراً على تحركاته..

وكانت النتيجة: سجن الزوج ودمار الأسرة، إلى جانب ما لحقهم من عارٍ في الدنيا وإثمٍ في الآخرة...

ذكرتني هذه القصة بقصةٍ أخرى تشبهها في بعض التفاصيل: الزوج فقيرٌ والزوجة لا تحسن الصبر ولا تمتلك القناعة...

كل يوم مشكلةٌ سببها نَهَم الزوجة إلى المزيد من الأموال.

في البداية حاول الزوج الصبر على هذه البلوى واحتساب الأجر عند الله تعالى، ولكنه أخيراً ضاق ذرعاً بها فطلّقها، لأنه أيقن أنَّ بقاءها عنده سيدفعه إلى الوقوع في الحرام، وطلاقُ ألفِ امرأةٍ في نظره أهونُ من درهم حرامٍ، يدخلُ جوفه وجوف أولاده!

* * *

الزوجة الصالحة والزوجة الطالحة:

والسؤال الآن: ما هو دور الزوجة في حياة الزوج؟!

وهل هناك فرق بين الزوجة الصالحة والزوجة الطالحة؟

ومن هي الزوجة الصالحة، ومن هي الزوجة الطالحة؟!

الزوجة الصالحة هي تلك التي قال فيها النبي ﷺ: **(خير نساءٍ ركبن الإبِل صالح نساء قريش، أحناهنّ على ولدٍ في صغر، وأرعاهنَّ على زوجٍ في ذات يده)**[1].

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب النكاح، رقم (5082).

ورعاية الزوج في ذات يده تشمل الرعاية المعنوية والمادية، وتحمّل عسره ويسره.

سأل معاوية رضي الله عنه أحد الحكماء: أي النساء أشهى إليك؟ فقال: المواتية لزوجها فيما يهوى..

المشكلة أن كثيراً من زوجات اليوم تضع نفسها في خندقٍ مضادٍّ لزوجها، وكأنها في ساحة حرب، تقتنص الفرصة المناسبة للانقضاض على غريمها..

كثيراً ما نرى زوجاتٍ ميسورات الحال، أكرمهن الله بإرثٍ أو بعملٍ جعلهنَّ في بحبوحةٍ ويسر، يطالبن أزواجهنَّ بالنفقة ومصروف المنزل ومتطلباتٍ الأولاد، دون أن يشعرن بأي بأسٍ أو حرج ولو كلَّفنه فوق طاقته، ودون أن يكلفن أنفسهنّ عناء التفكير بمساعدته أو الاشتراك معه في تحمّل الأعباء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لمن تدّخر تلك النسوة هذا المال؟! أو ليس في مساعدة الزوجة الميسورة لزوجها تفريجٌ لهمومه وهمومها معاً؟!

زوجك وولدك أحقّ من تصدّقت عليهم:

مِن النساء من تعترض على هذا الطرح قائلة:

– أليس هو الرجل القوّام والمطالب بالنفقة؟ أم أنه يريد التمتع بحقّ القوامة دون أن يقوم بواجبه في الإنفاق؟!

أقول: هذا صحيح من الناحية الشرعية، فالنفقة على الزوج لا على الزوجة، حتى ولو كان الزوج فقيراً وزوجته غنية.

ولكن هناك فرقٌ كبيرٌ بين الواجب والمندوب..

فصحيح أنّ الشرع لم يكلفها بالإنفاق على أسرتها، ولكن هذا لا يعني أنه لا يحثّها على النفقة، ويثيبها عليها..

فحين تملك الزوجة مالاً من إرثٍ أو من عملٍ يدرُّ عليها مردوداً، يندب لها معونة زوجها في الإنفاق على الأسرة في حال ضعف مورده، وهي بهذا تحقق فضائل عديدة: فضيلة مساعدة الزوج وبناء الأسرة معه يداً بيد، وفضيلة صلة

القربى، لأنها تنفق على عيالها، مع أنها غير مكلّفة بذلك شرعاً، وفضيلة البذل والتصدق في سبيل الله تعالى، لأنها إن احتسبت إنفاقها لوجه الله تعالى، كتبه الله في صحيفة حسناتها صدقات.

ورد في هذا أن زينب زوجة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما أتت إلى النبي ﷺ تسأله إن كان لها أجر الصدقة في إنفاقها على زوجها وأولادها، فقال ﷺ: **(زوجك وولدك أحقّ من تصدقت عليهم)**[1].

وفي رواية أنه قال: **(لك أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة)**.

ونتذكر هنا أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد كانت من أثرياء مكة، أنفقت مالها كله في سبيل الوقوف بجانب زوجها محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فكانت بعون الله تعالى العضد والمعين الأول له في تبليغ رسالة ربه إلى الناس، وقد ظل النبي ﷺ يذكر لها ذلك عمره كله، وفاءً لتلك الزوجة الراحلة التي استحقت لقب (الزوجة الوزيرة) بكل جدارة.

ومما قاله النبي في امتداح خديجة: (آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء)[2].

إيّاك والحرام:

قد يتساءل البعض: ماذا إذا كانت الزوجة فقيرةً، لا تملك المال، ولا تملك مهنة أو عملاً، يمكّنها من مساعدة زوجها؟!

أقول: عندها عليها أن تصبر على شظف العيش وضيق ذات اليد، وعليها أن تُشعر زوجها أنها راضيةٌ بما قسم الله تعالى، وأن تذكّره دائماً بأنها تصبر على ضيق الحال ولا تصبر على الحرام...

---

(1) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ، في كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب (1462).

(2) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها، (6/ 117ـ118). وإسناده ضعيف.

إياك أختي الزوجة أن يكون إلحاحك وتذمّرك وتضجّرك سبباً في انغماس زوجك في سلوك محرم لا يرضى عنه الله.

واعلمي أن مصير الجسم الذي ينبت ويغذّى بالحرام نار جهنم وبئس المصير، فالنبي ﷺ يقول: لا يدخل الجنة لحم نبت من السُّحْت (أي المال الحرام)، وكل لحم نبت من السحت كانت النار أولى به](1).

من أين لك هذا المال؟

كثيراتٌ هنّ الزوجات اللواتي لا يسألن أزواجهن: من أين لك هذا المال؟ وكيف حصلت عليه؟

المهم عندهنَّ أنه يهيئ لهنَّ متطلباتهنَّ على أتمّ وجه وأكمله! أما مصدر المال فلا يهمهنَّ من قريب أو بعيد.

في الحقيقة أنت مسؤولةٌ ومؤاخذةٌ أختي الزوجة عن المال الحرام الذي تجنيه يدا زوجك، إن كان هذا بسبب تشجيعك أو إلحاحك وطلباتك الكثيرة، التي ليس لها حدود!

لذلك احرصي على أن يكون المال الذي تنفقين منه وتطعمين منه وتتنزهين منه أنت وأولادك مالاً حلالاً طيباً، لأن المال الطيب الحلال مالٌ يبارك الله تعالى فيه، بينما يمحق بركة الخبيث، فيذهب طيّبه ويبقى إثمه..

القناعة كنز لا يفنى:

اشتكت لي مرة إحدى الزوجات حالها مع زوجها فقالت:

رزقة زوجي قليلةٌ مع أنه يعمل ليل نهار! ما يجنيه من عمله بالكاد يكفي لضروريات الحياة من طعامٍ وشرابٍ ولباسٍ ومصروفٍ وتدفئةٍ وكهرباء وهاتف..

(1) أخرجه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، رقم14815، وصححه الألباني.

ولستُ أخفيكِ أنني منزعجةٌ جداً من هذا الوضع، وأكثر مشاكلي مع زوجي تعود إلى هذا السبب، وخصوصاً عندما أنظر إلى من هم أحسن حالاً مني كأختي أو جارتي أو صديقتي! عندها أشعر باليأس والضجر، وأحياناً كثيرةً أعترض على ربي وأتساءل: لماذا لا يرزقنا الله المال كما رزقهم؟ وهل هم أكثر استحقاقاً منا لنعم الله؟! وهل يتوجّب علينا الصبر على البلاء، بينما ينعم غيرنا بالمال والجاه والفخفخة؟!

ذكّرتُ الأخت المشتكية بحديث النبي ﷺ: **(انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)**[1].

فالحياة فانيةٌ زائلة، وزادُ الإنسان فيها القناعةُ والرضا بما قسمه الله تعالى.

وعندما ينظر إلى الإنسان إلى من هو دونه في المرتبة والمال والجمال، سيرى نِعمَ الله عليه، وسيقنع بما رزقه الله، وسيحمده على نعمه الكثيرة التي أعطاها إياها.

كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول لابنه: يا بني، إذا طلبتَ الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن لم تكن لك قناعةٌ فليس يغنيك مال.

فعندما يعلم الفقير أن الله تعالى يبتليه بالفقر كما يبتلي الغنيّ بالغنى، وأن صبره على ما ابتلاه الله تعالى به ونجاحه في ذلك الامتحان ليس له ثوابٌ إلا الجنة، عندها يستطيع أن يقنع ويرضى ويسعد.

وعندما ينظر الفقير إلى من هو أفقر منه وأحوج، يستطيع أن يرى نعم الله عليه.

لا خير في مُلكٍ يساوي شربة ماءٍ وبولة:

يحكى أن الخليفة هارون الرشيد سأل أحد العلماء أن يعظه، فقال العالم وهو يشير إلى كأس الماء الذي بيد الخليفة:

أرأيت يا أمير المؤمنين إن كنتَ تائهاً في الصحراء وأشرفتَ على الهلاك عطشاً، ومنع عنك كأس الماء إلا بنصف ملكك، أكنت تدفعه؟

(1) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب صفة القيامة، رقم (2513). وإسناده صحيح.

قال: نعم.

قال العالم: أرأيت إن احتبس الماء في جسدك بعد أن شربته، وأشرفتَ على الهلاك من احتباس البول فيك، وأتاك طبيبٌ وعرض عليك إخراجَ الماء منك مقابل نصف ملكك الثاني، أكنت تدفعه؟ قال: نعم.

قال العالم: لا خير في مُلكٍ يساوي شربة ماءٍ وبَولة..

فالعاقل في هذه الدنيا هو من استقام على طريق الحق، وابتعد عن الحرام وعن الشبهات، واستعدّ لما بعد الموت..

يقول النبي ﷺ: **(والله ما الدنيا في الآخرة، إلا مثُل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار بالسبّابة- في اليمّ، فلينظر بمَ يرجع)**.[1]

هذه هي الدنيا دار ابتلاءٍ واختبار، أما الآخرة فدار بقاءٍ وجزاء، والخاسر الخاسر من استعاض بالفاني عن الباقي...

يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

نجاح زوجك متوقّف عليك:

ما أجمل أن تكون الزوجة عوناً وظهيراً وسنداً لزوجها في الغنى والفقر، في البلاء والرخاء، في السراء والضراء، في الشباب والهرم، في الصحة والمرض، في العسر واليسر، في الشدة والفرج.

نساء النبي عليه الصلاة والسلام كنّ من هذا النوع المعين المعاضد له في سرّائه وضرّائه، في شدّته ورخائه..

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها كيف كان يمرّ الشهر والشهران ولا

(1) رواه مسلم عن مستورد بن شداد رضي الله عنه، في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، رقم (2858).

(2) سورة هود: الآية: (١٥-١٦).

يُوقد في بيت رسول الله نار، إنما هما **الأسودان التمر والماء**[1]...

وتقول أيضاً: **لقد تُوفي النبي ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبدٍ، إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ**[2].

ولا نبالغ إن قلنا: إن نجاح الزوج في عمله متوقّفٌ على راحته وسعادته وهناءة باله داخل منزله..

إياك أن يكسب أعداؤك الرّهان:

يحكى في هذا أن رجلاً كان يعمل في صنع الزجاج، وكان ناجحاً في عمله، ماهراً ومتقناً لصنعته.

وكان جيرانه ينظرون إليه بانبهار وهو يقلِّب الزجاج بين كفيه بمهارة، والابتسامة لا تفارق ثغره في صباح أو مساء.

تبارى الجيران لمعرفة سرّ نجاحه ومهارته، فقال أحدهم: السّر في هذا يعود إلى طبيعته المرحة، وقال آخر: بل إلى شطارته وفهلويّته.

عقّب أحدهم قائلاً: بل السّر يعود إلى زوجته..

لم يفهم الآخرون علاقة الزوجة بذلك، فقال الرجل: أمهلوني مدةً لأثبت لكم صحة كلامي.

وافق الآخرون على هذا الشرط، وأمهلوه مدةً مقابل مبلغٍ من المال يدفعه إليهم في حال فشله في إثبات ادّعائه.

بادر هذا الرجل إلى العمل، فأرسل زوجته إلى زوجة بائع الزجاج، وأوصاها أن تنغّص عليها عيشتها، وتفتح عينيها على مساوئ زوجها، ولبّت المرأة طلبه ببراعة ومهارة، فبدأت بالحديث: كيف تستطيعين العيش مع هذا

---

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ (6459).

(2) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الرقاق، باب: نفقة نساء النبي (3097).

الرجل؟! ألا ترين أنه قصير؟ ألا ترين كيف يلثغ بحرف الراء؟ ألا تشمّين رائحته عندما يعود من العمل؟ ألا تتضايقين من إنفاقه على أمه؟ ألستِ أولى بالمال من أهله؟! لماذا لا يأخذك إلى النزهة كما يفعل أخوه مع زوجته؟ ألا ترين أن بيتكِ صغيرٌ ويكاد الإنسان أن يختنق فيه؟ هل فكرتِ لماذا يتأخر زوجك في العودة إلى البيت؟ هل تصدقين أنه يتأخر في العمل؟ أنت امرأة بسيطة.. بل بصراحة: أنت امرأةٌ ساذجة!!

تكررت زيارات هذه المرأة وأسئلتها المريبة وأحاديثها الفاسدة المفسدة..

بدأت هذه الأحاديث تؤثّر في نفس زوجة بائع الزجاج، فانقلبت طبيعتها القنوعة الهادئة الهانئة، وتحوّلت إلى امرأةٍ متطلبةٍ نكدةٍ لا يرضيها شيءٌ! لم يعد يعجبها حتى شكل زوجها.. أوعمله! صارت تشكّ في حركاته وسكناته.. إن ذهب من البيت باكراً أو عاد إليه باكراً!! إن ذهب من البيت متأخراً أو عاد إليه متأخراً!!!

وفي نهاية المهلة المتفق عليها كان صانع الزجاج يجلس في محله عابس الوجه، مضطرب الحركات، مرتجف اليدين..

فساءت صنعته وذهب نقاؤه، ولم يعد الزجاج ليّناً هيّناً بين يديه! بل بات يتكسّر وتتناثر شظاياه هنا وهناك.. وكسب أعداؤه الرهان!

أرأيتم كيف انعكس هناؤه في بيته هناءً عاماً، وشقاؤه في بيته شقاءً عاماً في حياته؟!

وأنت أختي الزوجة: إياك أن يكسب أعداؤكِ الرهان.. فأنت وزوجك واحد لا اثنان.. راحته من راحتك.. وسعادته من سعادتك.

تذكري حديث النبي ﷺ: **(من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح)**[1].

* * *

(1) رواه أحمد بن حنبل عن نافع بن عبد الحارث ﷺ، (3/ 408). وصححه الألباني.

من ألذِّ الأوقات في حياة الإنسان وقتٌ يخصّصه للدردشة والثرثرة والوشوشة مع أهله وعياله وأحبابه.. مع أمه وزوجته وأولاده، صغاراً كانوا أم كباراً، ينبشون فيها ذكرياتٍ جميلةً عن أيام الطفولة والخطوبة وشهر العسل وغير ذلك من الأيام الحلوة.

هذه الأوقات اللذيذة يفتقدها كثيرٌ من الناس رغم بساطتها وضرورتها وقلّةِ تكاليفها.

ما أهمية ساعة الدردشة في حياة الأسرة؟! سأخصّص الصفحات التالية لأتحدث عنها وعن دورها المهمّ.

ساعةُ دردشة

كلما عاد أبو سمير إلى منزله وجد زوجته بثياب الصلاة، تمسك بالمسبحة، أو تقرأ القرآن، أو تصلّي ما تيسّر من النوافل..

يتمنّى أبو سمير أن يفتح باب المنزل، فتهرع إليه زوجته متزيّنة متعطّرة، لتستقبله بابتسامةٍ لطيفةٍ وقبلةٍ ألطف..

ويتمنّى أيضاً أن يجلس مع أم سمير جلسة صفاء، يدردشان فيها بأنواع شتّى من الأحاديث، عن ذكريات الطفولة والشباب.. عن شهر العسل وفترةً الخطوبة.. عن الأولاد وأفانينهم، وعن غير ذلك مما يرّوح عن النفس ما علق بها من همومٍ وغموم..

عندما يفاتح أبو سمير زوجته بذلك، تدمع عيناها، وهي تلقي عليه النصائح واحدةً تلو الأخرى قائلةً: يا أبا سمير.. الدنيا فانيةٌ زائلة، ولن ينتفع الإنسان يوم القيامة إلا بعمله الصالح، فهذا مما يبقى ولا يزول..

هل تريدني يا أبا سمير أن أنشغل بما يفنى عما يبقى؟!

علينا أن نتزوّد لآخرتنا بالذكر والصلاة وتلاوة القرآن، ولسوف نُسأل يوم القيامة عن كل ساعةٍ مرّت بنا دون أن نذكر الله تعالى فيها!

أمام هذه النصائح القيّمة يطأطئ أبو سمير رأسه خجلاً، ولكنَّ متطلباتِ النفس العطشى إلى شيءٍ من اللهو والترويح عن النفس وتبادلِ الأحاديث الجميلة بينه وبين زوجته، تشغل تفكيره وتستولي على لبّه.

لم يجد أبو سمير من يحلّ مشكلته ويريح باله، فهل يجد لديكم الحلّ؟!

أهميّة الدردشة الأسرية:

هـذه قصـةٌ مـن آلاف القصـص التي يعـاني فيهـا أحـد الزوجـين أو كلاهما مـن هجـرة الدردشـة الحلـوة، التـي تزيـد في ربـط قلبيهـما بالحـبّ والمـودة، وقد يكـون السـبب في ذلـك أحيانـاً المفهـوم الديني، الـذي يظـنّ صاحبـه أنّ كل لهو محـرّمٌ في الإسـلام، وأنَّ الحيـاة كلها عملٌ، ولا يجـوز للمرء أن يضيّـع ثانيةً باللغو والسـهو واللهو..

وقد يكون السـبب انشـغال الزوجـين أو أحدهما بزينـة الحياة الدنيـا.. كانهماك الـزوج في تكديـس المـال وتجميعـه، وانغـماس الزوجـة في أعـمال المنـزل مـن طبـخ وغسـيل وكـيٍّ وتنظيـف وتربيـة لـلأولاد، إلى جانـب البحـث الدائـم عـن الموضة في الثيـاب والمكيـاج والمجوهرات، ومواعيـد الصبحيّات والعصريّات والمسـويّات مـع الجـيران والمعـارف والأصحاب..

والحقيقـة أن نتيجـة كلا السـببين واحدةٌ حسـب المنظور الواقعـي، وهي غياب الصلـة المتينـة بين الزوجين، وازديـاد فجوة البعـد الروحي والعاطفـي بينهما، الأمر الـذي يؤثّـر بشـكلٍ أو بآخر عـلى مـدى قدرتهـما في الارتقـاء بالعلاقـة الزوجية إلى أوج الحـب والتفاهـم، ويسـمح بحـدوث ثغـراتٍ في تلـك العلاقـة، تمكّـن ريـاح المشـاكل والصعوبـات والخلافات مـن أن تعصف بحياتهما كما تشـاء ومتى تشـاء..

قـد يكـون الأمر سـهلاً مـع أولئك المنشـغلين بزينـة الحيـاة الدنيـا، لأنّ معادلةً بسـيطةً قد تعيـد الأمـر إلى نصابه:

الانشـغال عـن الدردشـة مـع الشريـك الزوجـي = جفـوةً في العلاقـة + فقدان جـزءٍ كبيرٍ مـن زينـة الحيـاة الدنيا.

ولذلـك يعود كثـيرٌ من هـؤلاء أدراجهـم إلى جادّة الصـواب، عندمـا يتأمّلون النتائـج القاسـية، التـي قـد يـؤدي إليهـا ابتعادهـم عـن تـودّد وتحبّـب أحدهمـا إلى الآخر..

اللغو واللهو المذموم:

ولكنّ المشكلة ليست سهلة أبداً مع أولئك الذين ينظرون إلى الدين من زاويةٍ واحدة، ويعرضون عن رؤية الزوايا الأخرى..

هم يفسّرون الدين حسبما يفهمون، أو حسبما يراد لهم أن يفهموا، ويغمضون أعينهم ويصمّون آذانهم عن أية مفاهيم أخرى مخالفةٍ لما يعرفون، بل ويظنون أنهم على الحق وحدهم، وأن كل من يخالفهم خارجٌ عن الدين أو مفتئتٌ عليه أو مقصّرٌ فيه أو مسيءٌ له، فهل بإمكان هؤلاء أن يعودوا أدراجهم إلى جادة الصواب؟! وهل يمكن الوصول معهم إلى قاسمٍ مشتَرَكٍ وكلمةٍ سواء؟!

يقرأ هؤلاء قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1] ويقرؤون قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[2]، فينظرون إلى من حولهم إما نظرة الشذر، وإما نظرة الإشفاق، وإما نظرة اللوم والعتاب، ويقولون لهم بلسان الحال والمقال: أرأيتم؟! أسمعتم؟! والذين هم عن اللغو معرضون.. والذين إذا مرّوا باللغو مروا كراما!

لا يجوز لكم أن تضيّعوا أوقاتكم فيما لا فائدة فيه!!

وبناءً على هذه الآيات يؤطّرون حياتهم الدنيوية، متجافين عن أيِّ نوعٍ من أنواع اللهو واللغو، لأنه (في نظرهم) محرّم على المؤمنين..

هؤلاء الناس تغيب عنهم أدلةٌ شرعيةٌ، تؤكّد أنَّ **اللغو واللهو المذموم هو اللغو الذي يداوم عليه صاحبه، ويضيّع بمقابله بعض الواجبات، ويتشاغل عن أدائها، أو هو اللهو بأمور حرّمها الشرع..**

وهناك حالات يستحبّ فيها اللهو واللغو، ويحثّ عليها الشرع الكريم، نظراً للفائدة المترتبة عليها، إذ كل ما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة أمرٌ مطلوب في الإسلام.

---

(1) سورة المؤمنون: الآية: (1ـ3).

(2) سورة الفرقان: الآية: (72).

ولأهلك عليك حقاً:

عندما آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما، زار سلمان مرة دار أبي الدرداء، فرأى أم الدرداء بثياب رثّة، فقال لها: ما شأنك؟

فقالت: أخوك أبو الدرداء لم يعد له حاجة في الدنيا. فأراد سلمان أن يخفّف من غلواء أبي الدرداء في العبادة، فلما جاء أبو الدرداء وكان صائماً، قال سلمان: كل، **فقال**: إني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقومه، فقال سلمان: نم فنام. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصلّيا، فقال له سلمان: **إنّ لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حقٍّ حقّه**. فأتى أبو الدرداء النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: **(صدق سلمان)**[1].

وعندما جاءت زوجة عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ ورآها في هيئة رثّة، استنكر ذلك وقال لزوجته عائشة: ما أبذّ هيئة خويلة! فقالت عائشة: يا رسول الله، امرأةٌ زوجها يصوم النهار ويقوم الليل، فهي بلا زوج، فتركت نفسها وأضاعتها.

وعند ذلك توجه النبي ﷺ إلى عثمان بن مظعون يعظه وينصحه، ويبيّن له حق زوجته عليه قائلاً: **(يا عثمان أرغبتَ عن سنّتي ؟ ! قال: لا والله يا رسول، ولكن سنّتك أطلب. فقال ﷺ: فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإنّ لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصلِّ ونم)** [2].

وعندما اشتكى عمرو بن العاص ما يفعله ولده عبد الله بن عمرو من هجران زوجته وانقطاعه للعبادة، قال ﷺ لعبد الله: **(يا عبد الله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صُم وأفطر، وقُم ونَم، فإنَّ لجسدك عليك حقاً، وإنّ لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً)**[3].

---

(1) رواه البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه، في كتاب: الصوم، رقم (1968).

(2) رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الصلاة، رقم (1369) وصححه الألباني.

(3) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، في كتاب: في الصوم، رقم (1975).

وفي بُضع أحدكم صدقة:

العبادة في الإسلام مطلوبة، وهي صلةٌ بين المرء وربه، ولكنَّ كثيرين يفهمون العبادة أنها صلاةٌ وصيامٌ وحجٌ وزكاةٌ وتلاوةٌ للقرآن والأذكار، ويجهلون أن الإحسان إلى الآخرين عبادة، وقضاء حوائجهم وتنفيس كروبهم عبادة أيضاً، وأن إنفاق الرجل على أهله عبادة، وأن معاشرته لزوجته وحديثه معها ودردشته وإياها عبادة، وأنّ النية الصالحة تحيل اللهو المشروع إلى قُربة والمباح إلى طاعة..

ورد في هذا أن بعض فقراء الصحابة جاؤوا إلى النبي ﷺ يشتكون قائلين: ذهب أهل الدثور (**أي الأموال**) **بالأُجُور ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ.** فقال ﷺ : (**أَوَلَيسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُم مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكلِّ تَسْبِيحةٍ صَدقةً، وَكلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ (المعاشرة الزوجية) صَدَقَةٌ**). **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهوتَهُ، وَيَكُونُ لَه فيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكانَ عَلَيهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذا وَضعَهَا فِي الحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ)** [1].

كما يجهلون أن المُنبتّ الذي يقطع عمره في الصلاة وتلاوة القرآن والأذكار، ويحبس نفسه على ذلك، ويحرِّم عليها المباحات من النوم والطعام والتسلية، يكون مَثَلُه كالمسافر الذي يقطع طريق سفره على دابّته ليلاً ونهاراً، لا يسمح لها بالاستراحة لتناول طعام أو شراب أو نوم، الأمر الذي يؤدي لهلاكها، فيكون: لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قَطع..

(1) رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، باب: **اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ**، رقم(2376).

ترويح القلوب وتسلية النفوس:

دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت فقال النبي ﷺ: **(لا، حلُّوه.. ليصلّ أحدُكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد)**[1].

وكان ﷺ يردد على أصحابه قائلاً: **(أحب الأعمال إلى الله، أدومها وإن قلّ)**[2].

فالحياة ليست كلها عملٌ ودأبٌ وسعي، ولا بد للجسد أن يأخذ حظّه من الراحة والطعام والشراب والنوم، ولا بد للنفس أن تأخذ حظها من الراحة أيضاً، وراحة النفس تكون بالترويح عنها عن طريق التسلية والدردشة المباحة...

ولذلك كان **علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: أجمّوا هذه القلوب، أي روّحوها، فإنها تمّل كما تمّل الأبدان.**

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: إني لأجمّ فؤادي ببعض اللهو لأنشط للحق..

فترويح النفس يفرّغ ما فيها من هموم وآصار، ويعيد إليها حيويتها، ويجدّد استعدادها لاستقبال المزيد من المتاعب والمَصاعب.

ورد في هذا أن النبي ﷺ مرّ على غلمان من الحبشة، يتراقصون بِحرابهم، فأقرهم على ذلك قائلاً: **(خذوا يا بني أرفِدة.. حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة)** [3].

الهدي النبوي في الدردشة الأسرية:

تعالوا بنا نرى هدي النبي ﷺ في علاقته مع زوجاته.

تروي السيدة عائشة فتقول: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن. فقال للناس: تقدموا، فتقدموا (ابتعدوا). ثم

---

(1) رواه البخاري عن أنس بن مالك ﷺ، في كتاب: الجمعة، رقم (1150).

(2) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الرقاق، رقم (6462).

(3) رواه أحمد في مسنده، رقم 25597، وصححه الألباني.

قال لي: تعالي حتى أسابقَك، فسابقته فسبقته. فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم، وبدنت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: تقدموا فتقدموا. ثم قال: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، وهو يقول: **(هذه بتلك)**[1].

ماذا نسمي هذه المسابقة بين النبي ﷺ وزوجته عائشة؟! أليست لهواً مباحاً يمتّن الحب ويدعّمه؟!

أليس في هذا **هديٌ نبويٌّ لكل زوجين**؟! أم أن السنة النبوية هي فقط كما يظن البعض: ركعتان بعد الصبح وركعتان بعد المغرب وسواكٌ عند الصلاة!

النبي ﷺ قدوةٌ لنا في مطعمنا ومشربنا وعلاقاتنا الزوجية والأسرية.

كان ﷺ يعلّم أصحابه أهمية ملاعبة ومداعبة الزوج لزوجته لكسب قلبها وودّها، فيقول: **(كلّ ما يلهو به الرّجل المسلم باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهنّ من الحق)**[2].

وقال مرة لجابر بن عبد الله: **(هلّا بكراً** (أي هلّا تزوجت بكراً) **تلاعبها وتلاعبك)**[3].

إذاً، لهو الزوجين مع بعضهما، والحديث الحلو الذي يكون بينهما، والملاطفة والملاعبة والمضاحكة والدردشة، كل ذلك لغوٌ ولهوٌ مشروعٌ، إذا كان ضمن الحدود المعقولة، لأنه يزيد من قوة الرباط المقدس الذي يربط بينهما، ويرفع وتيرة الحب، ويشحنها بالمودة والسكينة.

تروي أم المؤمنين عائشة كيف قام الحبشة يلعبون ويتسابقون بالحراب في مسجد النبي ﷺ، فاشتهت أن تستمتع برؤية تلك المسابقة، فاستجاب لها

---

(1) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها، رقم (25745). وإسناده صحيح.

(2) رواه الترمذي عن عقبة بن عامر ﷺ، في كتاب: فضل الجهاد، رقم (1637). وقال «حديث حسن صحيح».

(3) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، في كتاب: النكاح، رقم (5247).

الـزوج الكريـم محمـد ﷺ، فقـام على بـاب حجرتـه، ووقفت هـي من خلفـه تنظر إليهـم، وظـلّ واقفـاً يسـترها بردائـه حتـى سـئمت وانصرفت.

تعقِّـب عائشـة عـلى هذا قائلـةً: **فاقـدروا قـدر الجاريـة الحديثة السـنّ الحريصة عـلى اللهو**[1].

بعـض الأزواج يعيشـون حياةً مليئـةً بالروتين الـذي يهدم سـعادتها الزوجية: كل يـوم مثـل الـذي قبلـه.. لا جديد يضفي عـلى حياتها بهجـة ورونقـاً وألقاً..

ترى هل كانت حياة النبي ﷺ مع زوجاته هكذا؟!

كنت لك كأبي زرعٍ لأم زرع:

تـروي أم المؤمنين عائشـة الحديـث الودّي والدردشـة الحلوة التـي دارت بينها وبـين النبـي ﷺ في إحـدى الليالي، وذلك حـين سردت له قصة إحـدى عشرة امرأة اجتمعـن سـويّة وتعاهدن وتعاقـدن على أن لا يكتمـن من أخبار أزواجهن شـيئاً.

ولم تكتـف عائشـة رضي الله عنهـا بإجمـال القصـة، بـل راحـت تذكـر للنبـي ﷺ الأوصـاف التـي اسـتفاضت فيهـا كل واحـدة مـن النسـاء، وهـي تصـف زوجهـا، إلى أن وصلـت إلى قصـة أم زرع، وأم زرع هـذه ذكرت أوصاف زوجها ومحاسـنه الكثيرة وخلاله الجميلـة، ثـم استرسـلت في وصفِ أمّ أبي زرع، أي والـدة زوجها، ثمّ ابـن أبي زرع، ثم ابنة أبي زرع، ثـم جاريـة أبي زرعٍ، كل هـذا والنبـي ﷺ يسـتمع لعائشـة، ولسـت أشـكّ في أنـه كان يسـتمع إليهـا وابتسـامةٌ حلوةٌ على ثغـره، وإلا لما تابعت عائشـة الحديث واسـتفاضت فيـه، إلى أن وصلـت إلى قصـة طـلاق أبي زرع لزوجتـه أمِّ زرع، وتزوّجه من امـرأة أخرى، وتـزوّج أمِّ زرع مـن بعـده برجـل آخر، تصفـه أم زرع بأوصاف حسـنة، ولكنهـا بعد ذلك تقـول مَتحسّرةً: فلـو جمعـتُ كلَّ شيء أعطانيـه ما بلـغ أصغر آنيـةِ أبي زرع.

وعندمـا انتهت عائشـة مـن سرد هـذه القصة الطويلة، ابتسـم النبـي ﷺ وقال لهـا: (**كنـت لـك كأبي زرعٍ لأم زرع**)[2]، (وفي رواية للطبراني: **إلا أنـه طلقها وإنّي لا**

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، رقم (5236). بتصرف.

(2) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل (5189).

أطلقك)، فاستدركت عائشة قائلةً: يا رسول الله، بل أنت خيرٌ لي من أبي زرعٍ لأم زرع[1].

هل نجد من أزواج اليوم من يتّسع صدره لسماع أمثال هذه القصص النسوية المملوءة بالعاطفة والمشحونة بالمشاعر الرومانسيّة، كما استمع إليها النبي ﷺ، أم تراه يعرض عن زوجته بأسلوب محبّط ساخر؟!

انظروا إلى هذا الحديث الودّي بين النبي ﷺ وزوجته عائشة، عندما كانت صغيرةً تحب أن تلهو باللعب الصعيرة.

تروي عائشة رضي الله عنها كيف رأى النبي ﷺ يوماً لعبها، فقال لها: **ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي. فرأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع (جلد)، فقال: ما هذا الذي أرى وسطهنّ؟ قالت: فرس، قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان. فقال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أنّ لسليمان خيلاً لها أجنحة!! قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه**[2].

مشاهد واقعية:

ما رأيكم لو قمنا بزيارة مفاجئة لبعض البيوت! ماذا سنجد فيها؟!

في المشهد الأول: أزواجٌ يعودون إلى منازلهم بعد نهارٍ حافلٍ بأعمالٍ شاقّةٍ متعبة، ليجدوا زوجاتهم بلباس المطبخ، شعورهنّ منكوشة ورائحة الطعام تعشّش في ثيابهنّ، أغلبهنّ مشغولاتٌ بحفر الكوسا والباذنجان وكبكبة الكبّة تهييئاً لما سيطبخنه في الغد! وربما تستقبل إحداهنّ زوجها بقبلة المساء فتدمع عيناه، لا من الفرح أو الحزن، بل من رائحة الثوم والبصل المركّزة تركيزاً عالياً في ثيابها وشعرها!!

---

(1) رواه الطبراني في الكبير عن عائشة رضي الله عنها، (23/ 172).

(2) رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الأدب، رقم (4932). وصححه الألباني.

في المشهد الثاني: زوجاتٌ يلبسن ثياب الصلاة، ويمارسن بعض العبادات من صلاةٍ وذكرٍ وتلاوةٍ للقرآن، بينما يتّكئ الزوج على الأريكة، وهو يمسك بيده الريموت كونترول، ويتنقّل مع ما في التلفاز من قناةٍ إلى أخرى.

في المشهد الثالث: الله أعلم.

في المشهد الرابع والخامس والسادس: الله أعلم!

اللهو المشروع بين الزوجين:

لو عدنا إلى الوراء قليلاً في مقارنةٍ بسيطةٍ بين ما تفعله بعض نساء القرن الواحد والعشرين، وبين ما كانت تفعله النساء منذ قرونٍ طويلةٍ لعلمنا الفرق..

يحكى أن الأصمعي كان في البادية يوماً من الأيام، فرأى امرأةً وعليها قميصٌ أحمر، وقد خضبت إحدى يديها بالحناء، وأمسكت بيدها الأخرى مسبحة، فقال الأصمعي في نفسه: ما أبعد هذا من هذا! فسمع المرأة تقول:

ولله مني جانبٌ لا أضّيعه ... وللزوج منّي والبطالةِ جانبُ

يقول الأصمعي: فعلمت أنها امرأة صالحة تتزيّن لزوجها.

أجل.. هذا ما نحتاجه اليوم.. فقه الموازنة.

فالحياة ليست كلّها جدٌّ وعمل، ولا كلّها لهوٌ وعبث.. وعلى المرء أن يوازن بين الأمور، فلا يدع مجالاً لاختلاط الأوراق بعضها ببعض، بحيث تتلاشى الفواصل والحدود بين المباح والمحرَّم والمندوب..

اللهو المشروع بين الزوجين هو ما يزيد في تمتين ما بين قلبيهما من محبةٍ ومودة، ويكون على هامش الحياة اليومية، بعد أن يقوم كلٌّ من الطرفين بأداء ما عليه من واجباتٍ تجاه ربّه وأسرته ومجتمعه.

أما ما يفعله الكثيرون من تقصيرهم في القيام بالواجبات، وخصوصاً الواجبات العبادية، ثم يعكفون جلّ وقتهم على اللهو والدردشة، فهذا أمرٌ مذمومٌ لا ينبغي للمؤمن أن يخوض فيه.

وهناك أمر آخر لا بدّ أن ننوّه إليه، **وهو ضرورة التزام الزوجين في دردشتهما ولهوهما بما أباحه الله تعالى وأحلّه**، إذ كثيراً ما نبصر أزواجاً ينغمسون في المحرمات كالغيبة والنميمة والكذب والسخرية من الآخرين، يفعلون كلّ هذا وهم يظنون أنهم يطبقون الهدي النبوي في اللهو المباح المشروع!!

على عاتق من تقع مهمّة الدردشة؟

سؤال آخر يخطر ببال الكثيرين: **على عاتق من تقع مهمّة الدردشة؟ وهل هي واجب الزوج أم واجب الزوجة؟**

الحقيقة أن مهمّة التودد والتحبّب والدردشة والمداعبة والمضاحكة واختراع السير الجميلة اللطيفة والنّكات المؤدّبة المضحكة، تقع على عاتق الطرفين: الزوج والزوجة، ولكن بما أن المرأة توصف دائماً بأنها كثيرة الكلام، (وهذا حق)، فإن عليها مسؤوليةً مضاعفةً في هذا المجال، لما تمتلكه من خيالٍ واسعٍ وعاطفةٍ متقدةٍ ومشاعرَ مستفيضةٍ متأججة.

وعلى الزوج أن يبادل مبادرتها بالتفاعل والتشارك الوجداني والحسي..

تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ، فتقول: **(كان ألين الناس، وكان رجلاً من رجالكم، إلا أنه كان ضحّاكاً بسّاماً)**[1]. (أي كثير التبسم).

مشكلة بعض الأزواج اليوم أنهم يطالبون زوجاتهم بالقيام بهذا الدور، ولا يخطر في بالهم أن يطالبوا أنفسهم به! بل ولا يكلفون أنفسهم عناء الابتسامِ أو المجاملةِ أو حتى الاستماعِ وتصنُّعِ الاستماع!

وقديماً قيل: ترى القذاة في عينِ أخيك وتنسى الجَزع في عينك.

ما أجمل أن يطالب كل منا نفسه بواجباته قبل أن يطالب بحقوقه!

ما أروع أن تلبس الزوجة أجمل ما لديها، وتتعطّر وتتزيّن، ثم تنتظر زوجها وفي جعبتها الكثير مما يسّلي ويمتع ويموّه عن الروح والنفس..

---

(1) رواه أبو بكر القرشي في مكارم الأخلاق عن عائشة رضي الله عنها (397). وضعفه الألباني.

وكذلك الزوج، ما أحلى أن يعود إلى المنزل، فيسارع إلى الاستحمام والتزين، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]، ثم يجلس إلى جانب زوجته، وكله انتباهٌ وشوقٌ لما ستجود به هذا المساء من الدردشة والتواصل الزوجي..

فنّ الكلام:

مشكلة بعض الزوجات أنها تُحسن تزيين مظهرها، ولكنها لا تتقن فنّ ومهارة الكلام...

فتبدأ جلستها المسائية بذكر القصص المزعجة، التي تنكّد زوجها وتزيد همومه هموماً: ماذا فعل الأولاد في الصباح، وماذا قالت جارتها عند الظهيرة، وما هو حساب اللحّام والبقّال والكوّى، وربما تردف هذا بمشاكلها مع أهل الزوج: الكلام الجارح الذي وبّختها به والدته، والفصل الناقص الذي عملته معها زوجة أخيه.. وهكذا دواليك..

لا شك أن مثل هذه الجلسة ستكون نهايتها مشكلةً لها أولٌ وليس لها آخر، وبعد ذلك تتساءل الزوجة: أين هي الدردشة الحلوة التي يفترض به أن يهديني إياها هذا المساء؟!

فنّ الاستمتاع:

بعض الزوجات لا تفهم من اللهو المندوب إليه بين الزوجين، سوى أن تطالب زوجها بأن يسلّيها ويمتعها ويمطرها بالنزهات، الواحدة تلو الأخرى..

أقول: اللهو والتسلية والمتعة ليست بالمكان..

أعرف زوجين كلما ذهبا في نزهةٍ عادا إلى منزلهما متشاجرين! أما أسباب الشجار فهي دائماً تافهة، ولكنها كشرر النار، لا تلبث أن تشتعل: لماذا نظرتَ إلى فلانة؟ ولماذا لا تضحك وتبتسم؟ أين ذهب تفكيرك؟ ولماذا شردتَ وسهوت؟!

---

(1) سورة البقرة: الآية: (228).

ربما تكون النزهة متواضعةً بمظهرها وتكاليفها، ولكنها غنيةٌ بمحتواها ومضمونها.. وجلسةٌ رومانسيةٌ منزليةٌ في المساء لدى من تملك فنّ الاستمتاع مع الزوج، أفضل بكثيرٍ من جلسةٍ غنيةٍ بالمظاهر والبهارج، ولكنها تفتقر إلى السرور الداخلي والانبساط الروحي والقلبي..

لحلّ المشاكل وقت أخر:

قد تتذمّر بعض النساء قائلةً: ولكنَّ لدينا مشاكل كثيرةً مع الأولاد والجيران وأهل الزوج وغيرهم، وأنا بحاجةٍ لحلِّها والحديث فيها مع زوجي، فمتى يجب أن أحدثه بها؟

عندما تدرك الزوجة أن الحكمة هي: فعل ما ينبغي، على الشكل الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، تعرف متى تسرد مشاكلها أمام زوجها، ومتى تطلب إليه المساعدة في حلّها!

يحكى أن أحد الملوك رأى رؤيا، فطلب من أحد مفسري الأحلام أن يفسّرها له، فقال: أرى يا ملك الزمان أنَّ جميع أهلك وأحبابك سيموتون في حياتك وعلى مرأى من ناظريك.

استشاط الملك غضباً لدى سماعه هذا الكلام، وأمر قائد شرطته أن يعاقب ذلك المفسر الغبي، وطلب من مفسرٍ آخر أن يفسّر له رؤياه، فقال له:

يا ملك الزمان، إنَّ الله تعالى أراد أن يكرمك بعطاياه وهباته، فمتّعك بالصحة والعافية، وجعل عمرك أطولَ من أعمار جميع أهلك وأحبابك..

سرّ الملك بكلامه، وأمر له بهدية قيّمة..

عندما نتمعّن في كلام ذينك المفسرين، نرى أن مفادهما واحد، ولكن المختلف فيهما هو طريقة العرض وأسلوبه..

اختيار الوقت المناسب:

ولذلك أختي الزوجة: تخيري الوقت المناسب للبوح بما يعتلج في صدرك من مشاكل وهموم، وتخيري أيضاً الشكل والطريقة واللغة المناسبة.

الحياة الزوجية والمحافظة على سعادتها واستمرارها، جديرة بأن نتعلم فنّ التواصل ومهارات التحبّب...

كيف يصل أحدنا إلى قلب الآخر وعقله وروحه...

وكيف يستلّ ما بنفسه من همومٍ وكروبٍ ومتاعب...

بيدك أخي الزوج وبيدك أختي الزوجة مفتاح الهناء والسعادة، وبيدكما مفتاح التعاسة والشقاوة... فأيَّ المفتاحين تختاران؟!

* * *

طالما أننا نتحدث عن مفاتيح التعاسة والشقاوة، فلنتحدث عن الغيرة، فأنا أنثى وأعرف معنى الغيرة وطعمها في حياة النساء، لكني أعرف أيضاً خطورتها على حياتهنّ وحياة أسرهنّ.

سأنتقل في الصفحات التالية للحديث عن الغيرة.. تلك القنبلة الموقوتة الجاهزة للانفجار في كل لحظة!

الغِيرة..
قنبلة الزّواجِ
الموقُوتة

يقال: تولد المرأة وتولد معها الغَيرة، وتشبّ وتترعرع في داخلها بنفس المقدار الذي تنمو فيه أعضاؤها، وربما أكثر، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف طبيعة الغيرة ودرجتها بين أنثى وأخرى.

اجتمعت مرّةً بزوجة تخاطب زوجها قائلة: أنا أحبك.. أنا أعشقك.. أغار عليك من كل شيء.. لا أستطيع أن أراك تتكلم أو تنظر إلى أنثى غيري، باختصار: أنا أغار عليك حتى من نسمة الهواء وقطرة الماء!

أنا أحبّك يا حبيبي..

أنت لي وحدي.. ولن تكون لسواي.

هل تعرفون نتيجة هذه الغيرة؟!

بعد سنواتٍ من صبر الزوج المحبّ لزوجته على هذه الغيرة اللّا منطقية واللا مبرّرة، أجابها بصراحةٍ: سئمت منك ومن غيرتك، اذهبي فأنت طالق... لقد حررتك من الغَيرة والقلق معاً... لن أكون لكِ ولا لغيرك، فقد كرهت جنس حواء وما تلده حواء!

هذه قصة حقيقية، قد تشترك مع آلاف القصص في السبب والنتيجة، وإن كانت تختلف في بعض التفاصيل.

الغَيرة أمرٌ نسويٌّ شائع، حتى إنه عندما يُذكر لفظ الغيرة أو مشتقّاتها، لا يكاد يخطر في البال سوى الغيرة النسويّة...

فما هي الغيرة؟ وهل هي مقصورة على النساء؟ أم أن هناك من الرجال من يتّصف بالغيرة ويمارسها؟!

غيرة محمودة:

الغَيرة مشتقة من تغيّر القلبِ وهيجانِ الغضب فيه بسبب إحساس المرء بمشاركة الآخرين له فيما يخصّه وحده.

وبناء على هذا، فإن هناك غَيرةً محمودةً وغَيرةً مذمومة.

الغَيرة المحمودة هي غَيرة أحد الزوجين على الآخر بناءً على موقفٍ ريبةٍ صدر منه، وهذه الغيرة يؤيدها الشرع الحنيف، لأنها تعبير عن مروءة المرء وحرصه على صيانة أهله وإبعادهم عن كلّ محرّم لا يرضى عنه الله تعالى، وفي هذا يقول النبي ﷺ: **(إنّ الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حرّم الله)**[1].

فإذا كان الله تعالى يغار على عبده أن يأتي ما حرّمه عليه، فإنّ غيرة المرء على غيره حين يأتي ما حرّمه الله هي غيرةٌ محمودة، لأنها جاءت وفقاً لنهج الله ومرضاته.

بعض الأزواج والزوجات يعيشون كالخنازير، وأنا أعتذر من قرّائي سلفاً لاستخدامي هذا التعبير، ولكني لم أجد خيراً منه لأصف حالة أزواج يزجّون بزوجاتهم بين الأصدقاء والمعارف بشكل لا يرضي الله.. يرى أحدهم زوجته وهي بكامل زينتها، سافرةً حاسرة الرأس، تصافح الرجال ويصافحونها، تؤانسهم ويؤانسونها، تمازحهم ويمازحونها، تغازلهم ويغازلونها، ويقف هو حولها، بعيداً عنها أو قريباً منها، يبتسم ببلاهةٍ أمام ما يراه، لأنه (حسب رأيه) شخص حضاريّ لا يغار..

وأسوأ من هذه الحالة، حالةُ الرجل الذي يدفع بامرأته أو أخته أو ابنته إلى الخضمِّ الموبوء المشبوه، لتكون طُعماً يكسب منه صفقةً تجاريةً أو مغنماً مادياً أو علاقةً مع فلانٍ أو فلانٍ من ذوي المناصب والنفوذ.

وليس الأمر للأسف مقتصراً على الأزواج، بل باتت بعض الزوجات اليوم تتفاخرن بأنهنّ أقوى من الغيرة، وأنهنّ استطعن التغلّب عليها،

---

(1) ـ رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب: النكاح، باب: الغيرة، رقم (5223).

وأن إحداهـنَّ لا تمانـع أن يصاحـب زوجهـا النسـاء أو يراقصهـنّ عـلى مرءاهـا ومسـمعها وبتشـجيع منهـا!

هـذا مـا حذّر منـه نبينـا محمد ﷺ حين قـال: (ثلاثـة لا يدخلـون الجنـة، العاقّ لوالديـه، والدّيـوث، ورجِلة النسـاء)[1].

والدّيـوث هـو: الرجـل الـذي لا يبالي مـن يدخل على أهلـه من الرّجـال، ولا يجـد حرجاً في أن تُسـاهر نسـاء بيتـه أو تصاحب من تشـاء...

أمـا الرَّجِلـة مـن النسـاء فهـن: النسـاء اللـواتي يتشـبهن بالرجـال في لباسـهنّ ومظهرهـنّ...

غبطة الآخرين:

وإلى جانـب الغـيرة المحمـودة التـي يغضـب صاحبهـا إذا مـا انتهكـت محـارم الله، هنـاك الغَـيرة بمعنـى (الغبطـة) وهي: تمنـي الوصـول إلى المراكـز المرموقة التي وصـل إليها الآخـرون..

والحقيقـة إن هـذه الغَـيرة هـي غَـيرةٌ إيجابيّـة، تحـث المـرء عـلى تحـدي عوامـل الفشـل، والاسـتمرار في المحاولـة حتـى حصول النجـاح.. وهي لا شـك موجودةٌ في كل إنسـان، ذكـر وأنثـى، وهـذه الغـيرة لا تفسـد حيـاة المـرء، بـل تضفـي عليها بريقـاً أخّـاذاً وطابعـاً مميّـزاً.. طالما أنهـا في الحـدود المعقولـة والمقبولة.

فعندمـا يشـعر الطالـب بالغـيرة مـن تفـوق زملائـه عليـه، سـوف يشـمّر عن سـاعدَي الجـدّ والمثابـرة، ويـترك الكسـل والتراخـي والتسـويف.

وعندمـا تشـعر الأنثـى بالغَـيرة مـن جارتهـا بسـبب تخطيطهـا لحياتهـا وفوزها بقلـب زوجهـا وأولادهـا، سـوف تدفعهـا هـذه الغـيرة (ربـما) إلى تغيـير مجـرى حياتهـا..

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (1/ 72). وقال الألباني: صحيح لغيره.

وأنا شخصياً أعرف قصصاً لكثيرين دفعتهنّ الغَيرة إلى النجاح والتفوق والمثابرة، ولكنّ المشكلة تبدأ حين تنقلب هذه الغيرة إلى غيرةٍ مَرضيّةٍ تدفع الشخص إلى حسد الآخرين وتمني زوال النعمة عنهم، وربما تدفعه إلى الإيقاع بهم في مكيدة ما، ليبقى هو الأفضل والأحسن والأكمل...

الغيرة المرضيّة:

لا ريب أنكم تذكرون المثل القائل: كل شيء زاد عن حده انقلب إلى ضده.

فغَيرة الزوجة على زوجها في حدود المعقول أمر جيد، لأن هذه الغَيرة سوف تدفعها إلى أن تبتكر الطرقَ والوسائل الايجابية للحفاظ على زوجها وعلى العلاقة الجيدة به...

أما عندما تنقلب هذه الغَيرة إلى غَيرةٍ مَرضيّةٍ، فتبدأ بالشك في تصرفاته، وتلاحقه أينما ذهب، وتكيل له التهمَ دون دلائل وبينات، وتؤوّل كلامه وأفعاله على الظنّ السيّء، فإنّ هذه الغَيرة ولا شك سوف تفسد الحياة الزوجيةَ، كما يفسد الخلّ العسل.

ربما يفرح الزوج في بداية الأمر بغيرة زوجته عليه، إذ يلمس الحب فيها، ولكن ما هو إلا وقتٌ قليل حتى يكتشف أنه مكبَّلٌ بهذه الغيرة، وأنها تعكّر صفوه وعيشته، ويشعر وكأنه يعيش في محكمة تحقيق، وأنه مراقبٌ كلما دخل أو خرج، كلما سكت أو تكلم، عندها يبدأ بالبحث عن مخرج من هذا الشعور القاتل، فلا يجد حلاً إلا بالهروب من البيت إلى مكان آخر يجد فيه الأمن والسكينة والاطمئنان...

أزواج غيورون:

وعلى الرغم من أن هذه الغَيرة المرضية بلاء متفَشٍّ عند كثير من الزوجات، إلا أنّ هذا لا يعني أن الأزواج بمنأى عن هذا البلاء...

وكم نسمع قصصاً لأزواج تعشّش في أذهانهم أوهامٌ وظنونٌ عن زوجاتهم، ما أنزل الله بها من سلطان.. فلا يتورّعون عن اتهام الزوجة إن رنّ الهاتف ولم

يجب أحدٌ، أو طُرق البابُ واختفى الطارق، أو عاد الزوج في غير ميعاد عودته فوجد زوجته متزيّنة متعطّرة...

لا شك أن مثل هذا السلوك الشاذّ يحيل الحياة الزوجية إلى جحيمٍ مردّه الغيرة والشك وعدم الثقة...

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يطرقَ (يأتي) الرجل أهله ليلاً، يتخوَّنهم أو يلتمس عثراتهم[1].

وذكر **أنّ من الغَيرة ما يبغضها الله، وهي الغَيرة من غير ريبة**[2]، أي: الغَيرة في غير موضعها وبدون دليلٍ وبرهان، وإنما لمجرد الظنون والأوهام...

الحدود المقبولة للغيرة:

قد يحلو للبعض أن يسمي الغَيرة طبعاً، والبعض الآخر يسميها خُلقاً، ولكن ما أستطيع تأكيده هو أن الغيرة تنشأ مع المرء وتترعرع معه بشكل لا إراديّ، وأنها توجد مع الأشخاص بدرجات متفاوتة...

وطالما أن الغيرة مضبوطةٌ بالحدود الشرعية المعقولة المعتدلة، فإنها أمرٌ محمود لا غبار عليه، ويصعب أن يتدخل أحدٌ محاولاً قمعها أو إلغاءها، لأنها شيءٌ طبيعيّ يُجبل عليه المرء، ولا يمكنه الاستغناء عنها أو التخلص منها.

كيف نتعامل مع الغيرة؟

وهنا سؤال: **كيف يمكن لأحد الزوجين أن يتعامل مع غَيرة الآخر؟!**

تختلف طرائق تعامل الناس مع غيرة الشريك، فبعضهم يحاول إثارتها وإشعالها (عن قصد أو عن غير قصد)، فينقلب البيت إلى جحيمٍ لا ينطفئ لظاه...

---

(1) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، باب: كراهية الطروق وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر. رقم (715).

(2) رواه النسائي عن جابر بن عتيك رضي الله عنه، في كتاب: الزكاة، رقم (5/ 78ـ79). وحسّنه الألباني.

وهناك بعضٌ آخر يترفّق بصاحبه ورفيق دربه، ويحاول قدر الإمكان أن يتجنّب كل ما يزعجه ويثير غيرته.

والحقيقة أن على الزوجين مسؤولية متبادلة لمواجهة الغيرة الزائدة عن حدّها، إذا وجدت في أحدهما أو كليهما...

على الشخص الغيور أن يراقب نفسه، وألا يترك لغيرته الحبل على غاربه، تنهش فيه وفي حياته لتفسدها وتعكر صفوها...

وعلى الطرف الآخر أن يترفّق في معالجة غيرة صاحبه، فيجتنب كل ما من شأنه إثارتها.. قدر ما يستطيع.

يحكى في هذا أنّ عمر بن الخطاب كان معروفاً بشدة غيرته على نسائه وأهل بيته، حتى أن النبي ﷺ كان يعلم عن عمر هذه الصفة، فكان يترفّق في معاملته، فلا يتعرّض لما يثير غيرته، ولو كان حلالاً.

ورد أن النبي ﷺ قال: (بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته، فوليّت مدبراً)، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟![1].

طبعاً لم يكن عمر رضي الله عنه ينساق لغيرته، بل كان يقوّمها ويكبحها طالما أنه لا يوجد لها مبرّر.

وورد في هذا أن امرأةً لعمر كانت تشهد صلاة الصبح والعشاء جماعةً في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وأنِت تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟! فقالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قيل لها: يمنعه قول النبي ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[2].

---

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة، باب: في بدء الخلق، رقم (3242)، ومسلم، في كتاب: فضائل الصحابة، رقم (2395).

(2) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، في كتاب: الجمعة، رقم (900).

غيرة أمّهات المؤمنين:

هـذا بالنسـبة لغَـيرة الأزواج، أمـا غَـيرة الزوجـات فالحوادث فيهـا أكثر من أن تحصيهـا هـذه الوريقـات، أولهـا وأشـهرها غَيرة نسـاء النبي ﷺ مـن بعضهن البعـض، وفي مقدّمتهـن غـيرة أم المؤمنـين عائشـة رضي الله عنهـا، فقـد حـازت السـبق في الغَـيرة مـن ضرائرهـا، حتـى أنهـا كانت تغـار مـن أم المؤمنـين خديجة وهـي في قبرها.

تـروي أم المؤمنـين عائشـة رضي الله عنهـا فتقـول: **مـا غـرتُ مـن أحـدٍ مـن نسـاء النبـي ﷺ كـما غـرت من خديجـة، وما رأيتهـا، ولكـن كان النبـي ﷺ يكثر ذكرهـا، وربما يذبح الشـاة فيقطعهـا أعضاءً، ثـم يبعثها لصديقـات خديجة، فربما قلـت لـه: كأنه لم يكـن في الدنيـا امـرأةٌ إلا خديجة! فيقـول: (إنها كانـت وكانت، وكان لي منهـا ولد)**[1].

ويـروى أن هالـة أخـت خديجة اسـتأذنت يومـاً عـلى النبـي ﷺ، وكان صوتها يشـبه صـوت خديجـة، فتذكّـر النبـي اسـتئذان خديجـة، فقـال فرحـاً: اللهـم هالة، فغـارت عائشـة وقالـت: ما تذكر مـن عجوز مـن عجائز قريـش، حمراء الشّـدقين، هلكـت في الدهـر، قـد أبدلـك الله خـيراً منهاً!!

فقـال النبـي ﷺ: **(مـا أبدلنـي الله عز وجـل خيراً منهـا، قد آمنـت بي إذ كفر بي النـاس، وصدقتنـي إذ كذبنـي النـاس، وواسـتني بمالهـا إذ حرمني النـاس، ورزقني الله عـزّ وجلّ ولدهـا، إذ حرمني أولاد النسـاء)**[2].

وفي روايـة الطـبراني أن عائشـة قالت إثر ذلـك: اعفُ عني عفـا الله عنك، والله لا تسـمعني أذكـرُ خديجة بعـد هذا اليوم بـشيء تكرهُه[3].

---

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: المناقب، رقم (3818)..

(2) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها، (24343). وإسناده ضعيف. وورد بعضه عند مسلم في صحيحه.

(3) رواه الطبراني في الكبير عن عائشة رضي الله عنها.

موقف النبي ﷺ من غيرة زوجاته:

يهمّنا هنا أن نرى كيف كان موقف الزوج النبي عليه الصلاة والسلام أمام غَيرة زوجاته، وكيف عالج هذه الغيرة..

واقع الأحداث يدل على أن النبي ﷺ كان يأخذ بعين الاعتبار طبيعة الأنثى وما جُبلت عليه من الغَيرة، وخصوصاً من ضرائرها، فكان يقف أحياناً موقف المتفرّج المبتسم، وأحياناً أخرى يتدخل موجّهاً بشكل مباشر أوغير مباشر، وذلك عندما تكون الغَيرة في حدودها المعقولة، التي لم تتجاوز شرع الله وحدوده، ولم تنقلب إلى غَيرة مرضية مفسدة..

غارت أمّكم:

ورد في هذا أن النبي ﷺ كان في بيت أم المؤمنين عائشة، وكان عنده نفرٌ من صحابته، (وذلك قبل أن يفرض الحجاب على أمهات المؤمنين)، فأرسلت إحدى نسائه، (قيل: إنها حفصة، وقيل: زينب بنت جحش)، قصعةً فيها طعامٌ إلى النبي ﷺ، فأخذت الغَيرة عائشة، فضربت يد الخادمة الممسكة بالقصعة، فوقعت القصعة على الأرض فكُسرت نصفين!

موقفٌ ربما لو حصل أمام زوج غير النبي ﷺ لرأيناه يصرخ ويشتم، ولكنّ رسول الله ومعلّم البشرية وقدوتَها، عالج الأمر بحكمةٍ بالغة، فنزل بنفسه إلى الأرض حيث القصعة المكسورة، وجمعها بيديه، ثم جمع الطعام فيها، وقال لصحابته مبتسماً: **(غارت أمّكم.. غارت أمّكم)**[1].

إنه يحاول أن يوجد لها مبرراً، ليس في نفسه فقط، بل في نفوس أصحابه الذين لا شك في أنَّ هذا التصرف من أمّ المؤمنين أزعجهم أو فاجأهم!

---

(1) أصل القصة رواها البخاري عن أنس بن مالك ﷺ، في كتاب: النكاح، باب: الغيرة، رقم (5225).

بعد أن جمع النبي الطعام، دعا أصحابه للأكل من القصعة، وأكل معهم، وبعد أن انتهى الجميع من الطعام، دفع إلى الخادم من بيت عائشة قصعةً صحيحةً بدل القصعة المكسورة.

ولطالما كان ﷺ يحاول أن يوجد لغَيرة عائشة مبرراً.

يروى أنه قال مرة عن غَيرتها: **ويحها.. لو استطاعت ما فعلت.**

وسألها مرةً قائلاً: (ما لك ياعائشة.. أغرت؟!) فأجابت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك![1]

لا تؤذيني في عائشة:

ولم تكن باقي زوجات النبي بمنأى عن الغَيرة من بعضهن البعض، وخصوصاً من ضرتهنّ عائشة، وربما كان عذرهنَّ في هذا هو شدة محبة النبي لها، وكان يزيد في غَيرتهن ما كان يفعله الناس، إذ كانوا يرسلون هداياهم إلى النبي ﷺ في اليوم الذي يكون فيه عند عائشة، فاجتمعت نساء النبي يوماً عند زوجته أم سلمة، وشكين إليها ذلك، وطلبنَ إليها أن ترفع شكواهن للنبي ﷺ، وأن يطلب النبي من الناس أن يهدوا إليه حيث كان.

تقول أم سلمة: فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ مرتين، فأعرض عني، وفي الثالثة قال لي: **(يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأةٍ منكنَّ غيرها)**[2].

شائعة طلاق النبي ﷺ لزوجاته:

ولكن، عندما بلغت غَيرة نساء النبي حدّاً لا يُحتمل، بادر النبي ﷺ إلى معالجتها، خصوصاً وأنها ترافقت مع الإلحاح في طلب زيادة النفقة، وذلك في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ يرى نفسه مسؤولاً عن إعالة فقراء الصحابة وخصوصاً أهل الصفّة...

(1) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، رقم (2815).

(2) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب: الهبة وفضلها، رقم (2581).

أتدرون ما هو العلاج؟

لم يضرب أو يشتم كما يفعل كثيرٌ من الأزواج اليوم، ولم يطلِّق، بل اعتزل جميع نسائه شهراً، عسى أن يكون في هذا الشهر فسحةٌ لهن، يراجعن فيها أنفسهن، ويكتشفن أخطاءهنّ...

كان شهراً قاسياً على نساء النبي ﷺ، وعلى الناس أيضاً، إذ شاع أن النبي طلّق زوجاته، فأصيبت الضرائر بالهلع، وأحسسن بالندم، ونزل قوله تعالى: (عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا).[1]

إذاً، عندما تنقلب غيرة الزوجة إلى مرض، أو تكاد تبلغ ذلك، يجب على الزوج أن يأخذ الموضوع بجدٍّ وحزم، لأن الغَيرة تصبح عند ذاك قنبلة موقوته، قد تنفجر في يومٍ ما، وتنفجر معها العلاقة الزوجية، وينهار الكيان الأسريّ الثمين.

علاج الغيرة المرضيّة:

علاج الغيرة المرضية يقع على عاتق الزوج والزوجة معاً...

على الزوج أن يعالج هذه الغيرة تارةً بالحزم وتارة باللين، ومن الخطأ والخطر أن يتركها تستفحل لتدّمر حياة الأسرة وتهدّد أمنها...

عليه أن يجتنب كل ما يثير غيرة زوجته إن أمكن ذلك، وعليه أيضاً ألا يسرد لها كل ما يجري معه من حوادث في يومه وعمله، إذا علم أن ذلك قد يشعل نار غَيرتها...

بعض الأزواج يظن أن إشعال نار الغيرة في زوجته سيجعلها تسهر على راحته، وتكثر من العناية به، ولكنَّ هذا في الواقع مفهوم مغلوط، وهو كالبنزين، يُصبّ فوق النار فيزيدها اشتعالاً.

ذُكر لي أنَّ زوجاً انزعج من زوجته، لأنها لا تغار عليه، ظناً منه أن الغَيرة تعني وجود الحبّ والحرص على ديمومته، وأنَّ انعدامها يعني انعدام الحب

(1) سورة التحريم: الآية: (5).

وتلاشيه، فظل يخترع الحيلة تلو الأخرى، حتى أوهمها أنه يحب امرأةً أخرى، ويريد الزواج منها، وهنا اشتعلت النار التي كانت مختبئة تحت الرماد ردحاً من الزمن... لكنها بعد أن اشتعلت لم تنطفىء، والتهمت في طريقها الأخضر واليابس، وعندها فقط عضّ الزوج على أصابعه وقال: ليتني ما فعلت!!

ولكن ما الفائدة من (ليتني) عندما تأتي بعد فوات الأوان!!

أما الشق الآخر من العلاج، فيقع على عاتق الزوجة الغيور نفسها، إذ عليها أن تدرك أن غيرتها الزائدة هي غيرة مرضية، وأنه إن كان مقصودها من الغيرة أن تحافظ على زوجها وتستأثر بحبه، فليس هذا هو الطريق السليم، بل العكس صحيح، إذ إنَّ هذه الغيرة وصفةٌ سريعةٌ لجلب الكراهية واجتثاث شتلات الحب.. الواحدة تلو الأخرى.

نصيحة لكل زوجة شديدة الغيرة:

اعلمي أختي أن الإيمان بالقضاء والقدر يُذهب الهم والحزن، وتذكّري المثل القائل: المكتوب على الجبين لازم تشوفُه العين.

ثم بعد ذلك عليك بمصاحبة النساء العاقلات، اللواتي يساعدنك في معالجة غيرتك وتخطيها بسترٍ وسلامة، بدلاً من إيقادها وإيقاظها..

وعليك أيضاً أن تفتّشي عن قصصٍ واقعيةٍ لزوجاتٍ أودت بهن غيرتهنّ المرضيّة إلى تدمير الحياة الزوجية وتشتيت شملِ الأسرة وضياع الأولاد..

والعاقل من اتّعظ بغيره، والأحمق من اتعظ بنفسه، أو اتعظ به غيره!

* * *

ما معنى قوامة الزوج على زوجته؟

وهل يتوجّب على الزوجة طاعة زوجها في كل صغيرة وكبيرة؟ في كيفية تسريحة شعرها وطريقة حديثها وكلامها ولون فستانها.. أم أن هناك حدوداً وضوابط للقوامة والطاعة؟ هذا ما سأبحثه في الصفحات التالية:

يا سيدي أمرك... أمرك يا سيدي...

يا سيدي أمرك..
أمرَك يَا سِيدِي

كانت سميرة تسرد لي قصتها مع زوجها، ودموعها تنسكب على وجنتيها المنتفختين من كثرة البكاء، لتحرق بشرتها السمراء بملوحة المرارة والكآبة، وتحرق معها آخر ما تملكه من أملٍ وطموحٍ وبسمة...

قصتها عجيبة غريبة، لم أسمع مثلها في حياتي...

فهي لم تكمل تعليمها المتوسط، أما زوجها فقد حاز على درجةٍ علميةٍ عالية.. ولكنّ من ينظر إلى طريقة تعامله مع زوجته، لا يصدّق أن لديه أدنى ثقافة أو معرفة أو تديّن!

يحشر أنفه في كل صغيرةٍ وكبيرة: نوع الصابونة التي ستغسل زوجته بها يديها وجسدها، يجب أن يتمّ تحت إشرافه..

ونوع المنشفة التي ستنشّف نفسها بها يتمّ من تحت مشورته..

لون الثياب التي ستلبسها لابد أن تكون على ذوقه ورغبته..

الطبخة التي ستطبخها، لا يجوز أن تُطبخَ دون سؤاله..

حتى تسريحة شعرها، ولون حمرة شفاهها، وكعب حذائها، وطول فستانها وعرضه.. من سيزورها من أقاربها وجيرانها، ومن ستزور منهم.. من ستحدّث على الهاتف، ومتى يجب أن تنام...

وعليها أن تفكر حسبما يريد، وألا يخطر ببالها إلا ما يرضى عنه، وأن لا تمشي وتأكل وتتحدث إلا بالطريقة التي تعجبه وتروق له..

والويل لها ثم الويل، إن تجاوزت أيّ قاعدة من هذه القواعد، عن قصدٍ أو غير قصدٍ، فإن هذا في رأيه خيانةٌ زوجيةٌ لها عقوبةٌ دنيويةٌ، وهي: استخدام سلطته الزوجية في تأديبها، وعقوبةٌ أخرويةٌ وهي: محاسبة الله تعالى لها على عصيانها..

لا ينفّك يردّد: أنا القوّام.. أنا السيد.. أنا الزوج.. وعليك طاعتي وسماع أوامري، هكذا يأمرك الله تعالى، وهكذا يرضى عنك..

* * *

مشكلة تسلّط الأزواج على الزوجات:

لم تغب صورة تلك السيدة المقهورة عن مخيّلتي.. واستحوذت مشكلتها على تفكيري، فتوقّفت عندها كثيراً..

الواقع أن مشكلتها هذه هي مشكلة كثير من النساء في مجتمعاتنا الشرقية: **مشكلة تسلط الأزواج على الزوجات**، وإن كانت حدّة هذا التسلط ونوعيته تختلف من زوج إلى آخر، إلا أن الرابط الذي يجمع بينهم هو توظيف الدين لإسباغ صفةً الشرعية والقدسية على ما يقومون به من استعباد واستبداد وتسلّط..

ذكّرني هذا بحكم قرقوش الذي سمعنا عنه في الحكايات الشعبية.. ذلك الحكم المستبد الأرعن، الذي لا مبرّر له إلا إرضاء الساديّة والأنانية والهمجيّة لدى صاحبه.. هكذا إذاً صار أغلب رجالنا قرقوش القرن الواحد والعشرين..

أزواج مرضى النفوس والعقول والدّين:

في حقيقة الأمر هؤلاء الأزواج هم مرضى وبحاجةٍ إلى علاج.. مرضى النفوس والعقول والدّين، وكان حريّاً بهم أن يتزوجوا لعبةً على الزنبرك أو على الريموت كونترول، يوجّهونها كيفما يشاؤون: تضحك- تبكي- تمشي- تقف- تنام- تستيقظ.. لا أن يطلبوا زوجةً حقيقيةً بشحمها ودمها وحيويّتها..

وقلت في نفسي متهكّمة: لم يبقَ على زوج صاحبتي إلا أن يتحكّم في أحلامها، ويحاسبها على أنها رأت في الحلم وجه ملاك، ولم تَرَ وجهه هو، وعليها لذلك أن تحمد الله أنه مازال بإمكانها أن تحلم كما تريد، وأن تتنفّس كما تريد، وأن تبتلع ريقها ودموعها أيضاً كما تريد..

لقطات حيّة من اسبداد الأزواج:

قد تقول إحداكن: قد تكون هذه القصة حقيقية، ولكنّها ولا شك قصةٌ مضى عليها زمنٌ غابر، ولا يمكن أن تحدث اليوم في القرن الواحد والعشرين، قرن الانفتاح العلمي والتكنولوجي.. قرن القنوات الفضائية والمواقع الالكترونية..

أقول: هذه القصة حقيقية حدثت كما هي وبكل تفاصيلها! ونحمد الله أنها لا تحدث مع كل النساء، لكنها وللأسف تحدث.

وحتى عندما لا يكون الاستبداد بهذه الصورة البشعة، إلا أنَّ **أغلب نسائنا يعانين بشكل أو بآخر من إحدى مظاهر استبداد الزوج وتسلطه**..

لاحظوا هذه **اللقطة** التي تحدث كل يوم تقريباً مع آلاف من الزوجات:

الزوجة: أريد أن أذهب اليوم إلى بيت أهلي.

الزوج: لماذا؟ ألم تذهبي إليهم منذ ثلاثة أيام؟

الزوجة: بلى.. ولكن أمي مريضة وبحاجة إلى أن أعينها.

الزوج: لتذهب أختك (فلانة) بدلاً عنك.

الزوجة: ولكنَّ أختي..

يقاطعها الزوج وينهي النقاش، وعليها أن تلتزم وتصمت، وتبتسم أيضاً...

ماذا تسمون هذا؟ قوامةً أم استبداداً؟!!

وما رأيكم بهذه **اللقطة!**

الزوج: زوجة صديقي أنجبت ولداً، حضّري لنا هديةً مناسبة، فسنذهب في المساء لنبارك لهم بالمولود.

الزوجة: ولكني لا أحب الذهاب إلى بيت صديقك هذا، فهو كثير المزاح مع النساء، وبصراحة أنا لا أشعر براحةٍ في بيته ولا مع زوجته.

الزوج: لا تناقشيني، سنذهب يعني سنذهب! نقطة.. انتهى الكلام.

وفي هذه المرة أيضاً عليها أن تطيع ولا تناقش، وعليها أن تبتسم بعد أن تبتلع غيظها وألمها..

هل يبيح الدين للزوج أن يستبدّ ويتسلّط؟

إذا أردنا أن نتتّبع أسباب المشكلة، نرى أنها ترجع إلى أمرين: سوءِ فهم الدين، وإلباسِ العادات والتقاليد لباسَ الدين..

والسؤال الذي أود طرحه هنا: هل يبيح الدين للزوج أن يستبدّ ويتسلّط ويتجبّر؟! وهل يجب على الزوجة أن تخضع وتستكين حتى للظلم، فلا تجادل ولا تناقش؟!

اجتمعتُ مرةً بزوجين: الزوج مستبدٌ متسلّط، والمرأة مقهورةٌ خاضعةٌ خانعة.. جرى نقاشٌ بيننا بخصوص معنى قوامة الزوج.. لم يدهشني دفاع الزوج وتبريره لتسلّطه بالآية القرآنية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، فقد اعتدتُ أن أسمع من الرجال هذا المنطق وهذا الجواب، ولكن أدهشني تأييد الزوجة وسرورها بتسلّط زوجها عليها واستبداده بها، ظناً منها أنها تطيع ربها في ذلك، وأن هذا هو الطريق إلى إرضائه تعالى..

فهل هذا حقاً هو طريق رضاء الله تعالى؟!

يستند البعض في هذا التسلّط الأرعن إلى حديثٍ ضعيفٍ لم يخرّجه رواة الصحاح، يروى فيه أن امرأةً مرض أبوها، فمنعها زوجها من خدمته والعناية به، فأتت النبي ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إنَّ أبي مريض، وزوجي يأبى أن يأذن لي أن أمرّضه. فقال عليه الصلاة والسلام: **(أطيعي زوجك)**، فلما مات أبوها استأذنت زوجها أن تذهب لتصلّي عليه، فأبى زوجها أن يأذن لها، فشكت

(1) ـ سورة النساء: الآية: (٣٤).

أمرها للنبي عليه الصلاة والسلام فقال لها: أطيعي زوجك. فأطاعت زوجها ولم تصل على أبيها، فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام: **(لقد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك)**[1].

الواقع أن هذا الحديث ضعيف السند من ناحية، ويتناقض مع ما أمر به القرآن الكريم من طاعة الوالدين من ناحية أخرى، كما يتناقض مع قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2].

طاعة بالمعروف:

فطاعة الزوج ليست طاعة عمياء، بل هي مقيدةٌ بشروط:

1. أن لا تكون في معصية.
2. أن يطلب الزوج من زوجته ما يريد بأسلوبٍ حسنٍ لطيف.
3. أن يكون الهدف من طلبه مصلحة الأسرة، وليس التعسف وفرض الرأي وإقصاء رأي الآخرين.
4. وألا يكون في طلبه تكليفٌ للزوجة بما يشقّ عليها فعله..

وعندما ننظر في سنة النبي ﷺ، نرى أنَّ ذلك الفهم الأعوج للقِوامة يتناقض معها، فالنبي ﷺ يقول: **(استوصوا بالنساء خيراً)** 2، ويقول: **(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)**[3].

هدي النبيّ ﷺ مع زوجاته:

ولقد أحببت أن أنقل لكم صوراً من حياة النبي مع زوجاته، لنفهم من خلال سنَّته العملية معنى هذه القِوامة..

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه، (7644)، وإسناده ضعيف.

(2) سورة النساء: الآية: (١٩).

(3) رواه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب الوصية بالنساء، رقم 3720.

تذكر كتب السيرة أن **النبي صلى الله عليه وسلم كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويمشي في مهنة أهل بيته**[1].. وعندما نترجم هذه الأعمال إلى مفهومنا المعاصر نقول: يمكن للزوج أن يساعد زوجته في جلي الأطباق، وتحضير مائدة الطعام، وتنظيف المنزل، وفي أي عملٍ يُشعرها أنه شريكها وحبيبها.

يقول عمر رضي الله عنه: كنا معاشر قريشٍ نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قومٌ تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من نساء الأنصار، فصخبتُ على امرأتي مرةً فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ولِمَ تنكرُ أن أراجعك؟! فوالله إنَّ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإنَّ إحداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل! فقال: خابت من فعلت ذلك منهن!

وشدّ عمرُ عليه ثيابه، وذهب إلى ابنته حفصة فسألها: يا حفصة، أتغضب إحداكنّ من رسول الله وتهجره اليوم حتى الليل؟

فقالت: نعم.[2]

إذاً، **نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهنّ حفصة، كنّ يجادلنه ويناقشنه في أمور معيشتهنَّ اليومية وحياتهنّ الزوجيّة**، أما في أمور الوحي والتشريع، فكنّ يدركن أنه نبيٌّ مرسل، وأنَّ عليهنّ السمع والطاعة.

وكان النبي يتحمّل من نسائه ذلك الجدل والصخب النسائي الجميل، طالما أنه في حدود الشرع، ولم يروَ عنه أنه قال لهنّ: أتجادلنني وأنا رسول الله!! أو: أتجادلنني وأنا الزوج القوّام الآمر النّاهي!!

لقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع زوجاته برفقٍ ولينٍ وحلم، آخذاً بعين الاعتبار طبيعة الأنثى ذات العاطفة الجيّاشة...

(1) رواه الترمذي، عن عائشة رضي الله عنها، باب فضل أزواج النبي، رقم 3895، وصححه الألباني.

حوار حضاري:

انظروا معي إلى هذا الحوار الحضاري بين النبي ﷺ وزوجته عائشة.

قال النبي ﷺ يوماً: (**يا عائشة، إني لأعلم إذا كنت عنّي راضية وإذا كنت عنّي غضبى**). فسألته: ومن أين تعرف ذلك؟!

فقال: (**أما إذا كنت عنّي راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غضبى قلتِ: لا وربّ إبراهيم**،. فأجابته: أجل والله، لا أهجر إلا اسمك. [2]

طريقة تعامل النبي عليه السلام مع زوجاته هي قدوة لجميع الأزواج، وعلى الذين يفهمون قوامة الرجل على المرأة مفهوماً خاطئاً، ويستعملونها استعمالاً متعسفاً، فلا يقبلون من زوجاتهم أي نقاش أو جدال، بحجة أنهم الرجال وأن على النساء السمع والطاعة، أقول: عليهم أن يدرسوا سيرة الحبيب المصطفى، وأن يسيروا على خطاه، إن كانوا يرون فيه أسوتهم الحسنة.

إنَّ قوامة النبي على زوجاته بوصفه زوجاً من جهة، ونبياً مشرّعاً من جهة أخرى، تبيّنُ لنا أنَّ **القِوامة تعني مقام إشرافٍ ورعايةٍ واهتمام وإنفاق**، لا مقام تعسّفٍ واستبدادٍ وتسلطٍ ومصادرةٍ لرأي الزوجة وفرضٍ لرأي الزوج.. حقاً كان أم باطلاً، مصيباً كان أم مخطئاً!

الخلاف بين الزوجين أمر طبيعي، يمكن أن يحدث لأسباب بسيطةٍ أو غير بسيطة، ولا يستوجب هذا الخلاف قمع الزوجة أو اضطهادها، بل العكس صحيح، يجب أن يستوعب كلٌ منهما الآخر.. وعندما يترك الزوج لزوجته مساحةً واسعةً لتتحرك من خلالها، وتنفِّس عمّا يعتريها من غضب وانزعاج، تعود المياه إلى مجاريها بعد ساعات قليلة فقط...

وإذا كان هـذا حـال النبـي مـع زوجاته، فهل هنـاك من يتجرّأ ويقـول: يفرض الإسـلام عـلى المـرأة أن تطيـع زوجهـا طاعـة عميـاء، ولا يجـوز لهـا أن تجادلـه أو تناقشـه، لأنـه القـوّام الآمـر الناهـي؟! لا أظـن ذلك...

* * *

ما الفرق بين القوامة والاستبداد؟

سيكون هذا موضوع حديثنا في الصفحات القادمة.

قوامةٌ
أم اسَتبداد؟!

حضرتُ مرةً خطبة الجمعة في أحد المساجد، وكان الخطيب يفسّر قول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1].

وقال الخطيب في جملة ما قال عبارةً ما أزال أذكرها إلى الآن:

– **الرجل قوّامٌ على المرأة، وهذا يعني أنه رئيسها وكبيرها**، وهو الحاكم عليها، ومؤدّبها إذا اعوجّت.. والقوّام لفظ مبالغةٍ يعني القيام على الشيء والاستبدادَ بالنظر فيه وحفظه.. والرجل بناءً على هذا أفضل من المرأة وخيرٌ منها بنص القرآن الكريم الذي يقول: **(الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض)**.

سكت الخطيب هنيهة، ثم رفع يده المرتجفة يشير بها تجاه المصلين، وقد قبضها باستثناء السبابة، وبدأ صوته يعلو رويداً رويداً، واحمرّ وجهه، واحتدّت نبرته، وهو يقول:

إخوتي المصلين: كل واحدٍ فيكم قوّامٌ على زوجته وأسرته، وعليه أن يقوم بذلك حق القيام. قوّموا النساء، أدّبوهنَّ، أمسكوهنّ في البيوت، لا تدعوهنّ يخرجن إلا بعد استئذانكم، ولا تتركوا لهنّ مجالاً للنقاش والجدال، وتذكروا معي الحديث الذي يقول: **(حقّ الزوج على زوجته، لو كانت به قرحةٌ فلحستها، أو انتثر منخراه صديداً أو دماً ثم ابتلعته، ما أدّت حقه)**.

(1) رواه أحمد في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها، رقم 25380، وصححه الألباني.

والحديث الآخر الذي يقول: **(ثلاثة لا تقبل لهم صلاة، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة: العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه، فيضع يده في أيديهم، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى، والسكران حتى يصحو)**[1].

ولم ينَس الخطيب قبل أن ينزل من على المنبر، أن يذكر المراجع التي رجع إليها في بحثه القيّم هذا، فقال: أيها الأخوة، قد يستغرب بعضكم ما أقول، ولكني لست أجتهد من نفسي، بل هذا ما قرره بعض المفسرين الأفاضل في تفاسيرهم القيّمة... وبدأ يسرد عدداً من التفاسير، التي تعتبر عمدة في مجال التفسير...

طبعاً لم أصدّق زعم الخطيب أنه اعتمد فيما قاله على هذه التفاسير، حتى عدتُ إلى المنزل، وفتحتُ هذه الكتب، وقرأتُ ما ذكره هؤلاء العلماء في تفسير قوله تعالى: **(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)**[2]. وكم كانت دهشتي كبيرةً واستغرابي أكبر، عندما تأكدتُ من صحة دعواه وزعمه!!

معنى القوامة:

لا شكَ أنكم تتساءلون كما أتساءل أنا، كيف فهم هؤلاء المفسرون قوله تعالى: ((الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء) هذا الفهم الخاطئ... وما دليلهم على أنّ الرجل أفضل من المرأة!

عندما نعود إلى لفظة «**قوّامون**» ونفسّرها بناء على قواعد التفسير الصحيحة، ونرجعها إلى أصلها المشتقة منه، نجد أنها من قام بالأمر، أي قام بشأنه واعتنى به، فالقِوامة بناء على هذا **تعني رعاية الأمر أو الشيء، والإشرافَ عليه والقيامَ بمصالحه خير قيام**، ولا نجد في مفهوم القوامة أيّ مكان لمعنى الاستبداد والتسلط، أو أيّ دليلٍ على أنه يُحظّر على المرأة مجادلة زوجها ومناقشته.

---

(1) رواه البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه، رقم 4895.

(2) رواه البخاري، عن عائشة رضي الله عنها، باب غيرة النساء، رقم 5228.

ويؤكد هذا المعنى للقِوامة ما ذكرناه في بحثنا السابق من طريقة تعامل النبي ﷺ مع زوجاته، فقد كنّ يناقشنه ويجادلنه ويراجعنه، وقد تهجره إحداهنّ إلى الليل، فلا يرى بذلك بأساً!

ومع أن النبي عليه السلام كان راضياً بمجادلة زوجاته له ودلالهنّ عليه في بعض الأحيان، إلا أن عمر رضي الله، الذي كان ينظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام بمنظار الرسول النبيّ لا بمنظار الزوج الرسول، استهجن ذلك، فهرع إلى ابنته حفصة زوجةِ النبي، مستفسراً منها عمّا أخبرته به والدتها من مناقشتها ومجادلتها لزوجها النبي، فلما تأكد من ذلك زجرها قائلاً: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكين؟! لا تستكثري رسول الله ولا تراجعيه ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك، ولا يغرّنك أن كانت جارتك، أي عائشة، هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

ثم خرج عمر من عند ابنته حفصة فدخل على أم المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها، وكانت هناك قرابةٌ بينهما، فكلّمها في ذلك، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب، دخلتَ في كل شيءٍ حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه!!

يقول عمر في ذلك: فأخذتني أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد. [2]

وأكثر من هذا، فمجادلة النبي لم تقتصر على زوجاته، بل إن بعض الصحابيات كنّ يناقشنه، وهنّ يسألنه عن بعض الأمور التي تخصهنّ، وربما تعلو أصواتهنّ على صوته، فكان النبي ﷺ يتحمّل ذلك بصدرٍ رحبٍ وابتسامةٍ لطيفة..

يروي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الحادثة التالية فيقول: استأذن عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلّمنه ويستكثرنه[3]، عاليةٌ أصواتهن على

(1) ـ سورة النساء: الآية: (٣٤).

(2) رواه الحاكم في المستدرك، رقم (2717). وحسّنه الألباني، بينما قال كثير من علماء الحديث: إسناده ضعيف.

(3) رواه ابن خزيمة في صحيحه، رقم 895، وضعّفه الألباني.

صوته، فلما استأذن عمر قمن وبادرن الحجاب[1]، فأذن له النبي ﷺ، فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنّك يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: **(عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي، فلما سمعنَ صوتك ابتدرن الحجاب)**، فقال عمر: فأنت أحقّ أن يهبن يا رسول الله.[2]

ويصف جابر بن عبد الله علاقة النبي ﷺ بزوجته عائشة رضي الله عنها فيقول: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيءَ تابعها عليه.[3]

وهذه الحوادث تؤكد لنا أن معنى القِوامة لا يمكن أن يكون قمعاً ومنعاً لأية معارضةٍ أو مناقشةٍ ومجادلةٍ نسائية، فقدوتنا وأسوتنا صلى الله عليه وسلم كان يتحمّل مناقشة نسائه وغضبهنّ منه طالما أنها في حدود الشرع...

كما أنها ليست قوامة تشريفٍ وأفضليةٍ وخيريةٍ للرجال على النساء.. بل هي في حقيقة الأمر قوامة مسؤوليةٍ ورعايةٍ وإشراف وتكليف..

مجال القوامة وأهمّيتها:

يرى كثيرٌ من العلماء أنَّ قِوامة الرجل على المرأة تنحصر في نطاق الأسرة فقط، أي: قِوامة الزوج على زوجته، وقوامة الأب على ابنته غير المتزوجة، لأن الآيات التي تتحدث عن القوامة في سورة النساء جاءت في معرض الحديث عن الأسرة.

بينما يرى بعض العلماء أن القوامة تنحصر بين الزوج وزوجته، وأنّ الوالد ليس قوّاماً على ابنته، ويستدلون لهذا بأنَّ آيات القوامة تتحدث عن نشوز الزوجة وكيفية علاجه، الأمر الذي يحصر القوامة في نطاق الزوجية.

وأنا أميل إلى ترجيح الرأي القائل بقوامة الوالد على ابنته التي تحت كنفه ورعايته، لأنه مسؤولٌ عنها ومكلّف بالإنفاق عليها، والآية الكريمة تصف

---

(1) ـ سورة النساء: الآية: (٣٤).

(2) رواه البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه، رقم 4895.

(3) رواه البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه، رقم 3765.

الرجالَ (وكلمة الرجال هنا أتت بشكلٍ عام، وليس معناها الأزواج فقط)، بأنهم قوّامون على النساء، (وكلمة النساء أتت هنا بشكلٍ عام أيضاً، وليس معناها الزوجات فقط)، وتعزو الآيةُ أحد أسباب هذه القوامةِ إلى ما أنفقوا من أموالهم.

أما أهمية قِوامة الرجل على الأسرة فتنبع من أنَّ صلاح حال الأسرة يوجبُ أن تقوم على أسس متينة منظّمة، ومن المعروف أنه لا بد لكل جماعةٍ أو مؤسسةٍ أو شركةٍ مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً من أميرٍ أو مديرٍ يرعاها، ويقوم بشؤونها، ويسهر على تسيير مصالحها.

وكما أنه لا بد للسفينة من ربّان، وللطائرة من ملاّح، وللسيارة من سائق، كذلك الجماعة: لا بدّ لها من أمير ومدير وقائد، وانطلاقاً من هذا المبدأ كان النبي ﷺ يحرص على أن يجعل لكلِّ جماعةٍ من المسافرين أميراً يقوم برعاية مصالحهم، ويخدمهم على مبدأ: سيدُ القوم خادمهم، ولهذا قال ﷺ: **إذا خرج ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمّروا أحدهم.**

والأسرةُ أحقُّ المجموعات البشرية بالعناية والرعاية، وأحوجُها إلى القائد المسؤول، الذي يسير بها إلى برِّ السلامة وشاطئ الأمان.

* * *

الولاية والقوامة:

يظن كثير من الأزواج أنّ القوامة التي منحهم إياها الشرع، تعني حق الولاية على زوجاتهم، فيتعامل أحدهم مع زوجته وكأنها إنسانٌ قاصرٌ، ينبغي عليه أن يستشير وليّه في كل شيء: في اللباس والطعام وطريقة التفكير والمشي والكلام وعدد ساعات النوم والاستيقاظ!

وقد رأينا أمثلةً من هذا الاستبداد في البحث السابق.

يتدخَّل هؤلاء الأزواج في ممتلكات الزوجة التي جنَتها أو ورثتها: في سيارتها وبيتها ومتجرها ومزرعتها وغير ذلك، ويمنعونها من التصرف وفق ما ترغب به أو ترى فيه مصلحتها، بحجة القِوامة التي أعطاهم إياها رب العالمين!

والحقيقة أنَّ هذا الظنَّ فيه خطأٌ واضح، فهناك اختلافٌ بيِّنٌ بين (القوامة) التي تعني الإشراف والرعاية، وبين (الولاية) التي تُمارَس على القاصر ناقص الأهلية، والتي تقتضي منع هذا القاصر من ممارسة حقوقه إلا بإذن وليّ أمرِه وتحت إشرافه!

صحيحٌ أنَّ الزوج قوّامٌ على زوجته، ولكنَّ الصحيحَ أيضاً أنه ليس وليّاً عليها، فللزوجة شخصيتها الحرَّةُ، وذمّتُها الماليةُ المستقلةُ عن ذمّة زوجها، ومن حقها أن تتصرف بممتلكاتها حسبما تريد، دون أن تنتظر إذن زوجها أو رضاه!

* * *

قد يستهجن البعض حديثي هذا، ويعتبره تشجيعاً للزوجة لتتمرّد على زوجها، وتتجاهلَ رأيَه وتُعرِض عن مشورته!

ولكنَّ هذا غير صحيح، فأنا في الواقع أضع النقاط على الحروف، ولستُ أؤلّب أو أشجّع على التمرّد، وأنا مع استشارة الزوجة لزوجها، وخصوصاً إذا كان الزوج من ذوي الحكمة والمعرفة والرأي الصائب، ولكنّ الاستشارةَ شيءٌ والولايةَ شيءٌ آخر!

فالاستشارة توسّع أفق الزوجة، وتمدّها بالمعلومات المهمّة، وتترك لها في نهاية المطاف حرية اتخاذ القرار وحرية التصرف، أما الولاية فهي نوعٌ من الوصاية الإلزامية، التي تفترض أنَّ الطرف الآخر عاجزٌ عن إدارة شؤونه بنفسه، وجاهلٌ بمصلحته، ولهذا يُطلب منه الرضوخَ والاستكانة للوليّ لأنه أدرى بالمصلحة، بينما لا يطلب من الوليّ أن يأخذ بعين الاعتبار رأيَ القاصر أو رضاه!

وعندما يرى الزوج أنه وصيٌّ على زوجته فإنه يقع في مطبٍّ خاطئ عقلاً ونقلاً، ويزداد خطؤه عندما يتصور أنه يفعل ذلك باسم الدين وباسم القوامة التي منحه إياها رب العالمين!

هذا من جهة..

ومن جهةٍ أخرى أحبّ هنا أن أعرّج على تسلّط بعض الآباء على بناتهم، أو تسلط الإخوة الذكور على أخواتهم، بحجة أنهم أولياء أمورهنّ والقوّامون عليهنّ!

بداية أقول: ذكرنا أن كثيراً من العلماء ذهبوا إلى أن مجال القوامة ينحصر في مجال الزوج مع زوجته، أو الوالد مع ابنته التي لم تتزوج، أما الأخ فليس له القِوامة على أخته.

أما ولاية الأب (أو الأخ في حال عدم وجود الأب) فلا تكون إلا في حالة واحدة، وهي صغر السنِّ، فصغير السنِّ يحتاج حقاً إلى من يقوم بشؤونه ويرعى مصالحه، ويقرر ما هو الأنسب له، وهذا ينطبق على الذكر والأنثى.

أما ولاية الأب أو الأخ على الفتاة البالغة (غير المتزوجة) فهي ليست ولاية تسلطٍ وإجبار، ولكنها ولاية مسؤولية وإرشاد، وليس لهم أن يتصرفوا بممتلكاتها إلا بإذنها ورضاها، كما لا يحق لهم أن يزوّجوها بدون إذنها ورضاها.

وعندما يرى الأب أو الأخ أنّه وصيّ على المرأة البالغة (أماً كانت او أختاً أو بنتاً)، وأنها لا يجوز لها أن تتصرف بشيء أو تعزم على شيء حتى تعود إليه وتنزل عند رأيه، فإنه يقع هو الآخر في مطبٍّ خاطئ، ويزداد الطين بلّةً حين يتصور أنه يفعل ما يفعله باسم الدين وباسم القوامة التي منحه إياها رب العالمين!

قد يقول قائل: لا بد للفتاة من وليّ عند زواجها، فالنبي ﷺ يقول: (**لا نكاح بدون وليٍّ**)[1]! وأقول: هذا صحيح، ولقد ذهب جمهور الفقهاء (باستثناء الحنفية) إلى اشتراط وجود الولي في عقد النكاح، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ من حقهم أن يزوّجوها بدون رضاها، فلقد جاءت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت له: يا رسول الله إن أبي زوّجني من ابن أخيه، ليرفع بي خسيسته (دناءته)، فجعل إليها النبي ﷺ الأمر، إن شاءت أن ترفض لها ذلك، فقالت: إني قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلّم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء عليهنّ[2].

---

(1) يستكثرنه: **يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه بحوائجهن وفتاويهن.**

(2) بادرن الحجاب: تسارعن للاختفاء خلف الستر.

فضّل بعضهم على بعض:

قد يتساءل البعض: **إذا كانت القوامة لا تعني أفضليةَ الرجل على المرأة، فما هو معنى (فضّلَ) في قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)**.

أقول: ليس في الآية ما يدل على أن الرجل أفضل من المرأة، كما يفهم بعض الناس، وإلا لقال تعالى: الرجالُ قوامون على النساء بما فضل الله به الرجالَ على النساء!

ولكنَّ تعبير)**فضّل اللهُ بعضَهم على بعضٍ**(يحتمل معنيين:

المعنى الأول هو أنَّ بعَض الرجالِ أفضلُ من بعض النساء، وبعضُ النساء أفضل من بعض الرجال!

والمعنى الثاني هو أنَّ الرجالَ (بشكلٍ عام) أفضل من النساء (بشكلٍ عام) في بعض الأمور، وأنّ النساء أفضل من الرِّجال في بعض الأمور الأخرى، وهذا يعود إلى اختلاف الأدوار الموكلة إلى كلٍّ منهم في هذه الحياة.

* * *

عاطفة المرأة وسامٌ على صدرها:

من الأدوار الأساسية للمرأة في هذه الحياةِ إنجابُ الأولاد وحضانتهم وتربيتهم، ورعاية الأسرة وتوفير مقوّمات السعادة لها، وهو دورٌ مهمّ جداً، ويخطىء كل من يحاول الغضَّ من شأنه، لأن التربية والرعاية الأسرية هي قوام صلاح المجتمع وأساسه، فإن صلحت الأسر صلح المجتمع، وإن فسدت الأسرة فسد المجتمع، ولذلك زوّد الله تعالى المرأة بما يصلح لأداء مهمتها الأساسية، سواء على الصعيد الفيزيولوجي الجسدي، أو على الصعيد النفسي.

ومن أبرزُ **ما فضّلت به النساء على الرجال على الصعيد النفسي**، هو العاطفة الجيّاشة التي تملأ كل ذرّةٍ من كيانها، تلك العاطفة التي يُعزى إليها سرّ نجاح المرأة في أسرتها، وسرّ عطائها وتحمّلها.

وتتجلى تلك العاطفة في مظاهر عديدةٍ، منها البكاء والرقّةُ واللطف والحنان والتسامح والغفران والنسيان!

وعندما يتعلق الأمر بالأسرة فإن المرأة - أماً كانت أو زوجةً- تنحّي قراراتها العقليةَ الصارمةَ والحازمة، لتحلّ محلّها العاطفة الغالبةُ والحنانُ المشتعل.. فتنسى الإساءةَ وتغفر الزلَّة وتحتضن المخطئ وتبكي لتغسَل بدموعها غبار الحياة الذي يصيب الأسرةَ لسببٍ أو لآخر!

والحقيقة تقول: إنّ عطاء المرأة لزوجها ومحبتها له، رغم صرامته ونزقه واستبداده في بعض الأحيان، لا يستمر بدون تلك العاطفة..

كما أنّ صبرها على أولادها في سنّ الصغر والمراهقة، مرهونٌ بدوام تلك العاطفة وتأجّجها، وهذا يخوّلنا أن نقول: **إنَّ العاطفة وسامٌ على صدر المرأة، وليست كما يحاول البعض تصويرها بأنها نقصٌ فيها وعيبٌ في تركيبها.**

وعندما نقول: إنجاب الأولاد ورعاية الأسرة هو دورٌ أساسيٌ في حياة المرأة، فإنّ هذا لا يعني أن هذه هي المهمة الوحيدة للمرأة، فكما قلنا: هذا أحدُ أدوارها الرئيسة، ولها أدوارٌ أخرى يمكن أن تقوم بها داخل وخارج منزلها، شريطة أن تستطيع التوفيق بين واجباتها المنزلية وبين أعمالها الأخرى، ويعتبر ما تقوم به من خدماتٍ نافعة لمجتمعها عبادةً تلي عباداتِها المفروضةَ في الأهمية.

* * *

الغُنم بالغُرم:

أما الرجل فقد فُضّل على المرأة بقوّته الجسديّة وقدرته النفسية على تنحية لغة العاطفة وتغليب لغة العقل، نظراً للدور الأساسي الملقى على عاتقه في السعي في مناكب الأرض لتأمين متطلبات الحياة الأسرية المادية، إلى جانب توفير الأمن والسكينة وحماية الأسرة من أي خطرٍ يهدّدها، ولذلك زوّده الخالق جلّ جلاله بما يتناسب مع مهمته تلك من جرأةٍ وإقدامٍ وعضلاتٍ وقدرةٍ على المواجهة والمجازفة والصِّدام.

وبسبب هذه الصفات تميل المرأة عادةً للاحتماء به، والسير في ظله، والتباهي برجولته وبقدرته على أن يدفع عنها طمع الطامعين وعبثِ العابثين، وغالباً ما نرى المرأة تنفر من الرجل الضعيف الجبان الذليل المهزوز المهزوم، لأنها لا تشعر أنه قادرٌ على أن يحميَ نفسه، فكيف يحميها؟!

إذن، وبسبب ما يمتلكه الرجل من صفات القوة التي تتناسب مع مهمته الأساسية في الحياة، وبسبب أنه مكلَّف بالإنفاق على المرأة، زوجةً كانت أم بنتاً، كانت له القِوامة على الأسرة.

هناك **قاعدةٌ شرعيةٌ تقول: الغُنمُ بالغُرم**، وهناك قاعدةٌ مماثلةٌ في النظام العالمي تقول: من يُنفق يُشرف، وهذا يعني أنه من الغبن والظلم أن يكلَّف الرجلُ بالإنفاق على أسرته، ثم لا يكون له الإمارة عليها والإدارة لها!

ولكن.. ماذا لو كانت الزوجة هي المنفقة على الأسرة من مالها، وهي التي تقدم المسكن لزوجها وأولادها، وهي صاحبة الشخصية القوية والجسد المتين، وهي التي تتفوّق على زوجها في العلم والحكمة، بينما نرى زوجها ضعيف البنية والشخصية، قليل العلم والخبرة، ولا يتكفل بإعالتها وإعالة أسرته، فهل تنتقل القوامة عند ذاك من هذا الزوج إلى هذه الزوجة؟

سؤال يصعب الإجابة عنه، ففي حين يتشبّث البعض بمقولة: القوامة دائماً للزوج بغضّ النظر عن مدى انطباق مواصفات القوامة عليه، نرى أن بعضاً آخر يربط بين هذه المواصفات وبين القوامة بشكل متلازم، بحيث يؤدي فقدانها أو اختلالها إلى انتقال القوامة إلى الزوجة، إن كانت تستحقها.

والذي نستطيع أن نجزم به هنا أنّ قِوامة الزوج على زوجته وأسرته ترتبط، بشكلٍ مقصودٍ أو غير مقصود، ملحوظٍ أو غير ملحوظ، بمدى تمتعه بهذه الصفات!!

* * *

وللرجال عليهنّ درجة:

قلنا: إنّ القِوامة لا تعني (كما قد يفهم البعض) أنَّ الزوج هو سيّدُ زوجته ومالك أمرها، وأنها لا يجوز أن تناقشه أو تجادله، فالله تعالى يقول: **(ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف، وللرجال عليهنّ درجة)**[1].

وهذا يعني أن الزوجة متساوية مع زوجها في الحقوق والواجبات، باستثناء درجةٍ واحدةٍ يعلو بها الزوج على زوجته، وهي درجة القوامة التي تستلزم طاعةَ الزوجةِ لزوجها بالمعروف.. وما أدراكَ ما المعروف!

أعجبني في هذا تشبيه أحدهم لهذه الدرجة بين الزوج وزوجته بالطيار ومساعده، فمساعد الطيار طيارٌ كاملٌ، يمتلك المعلومات اللازمة والمهاراتِ المناسبة والقدرة الكاملة للطيران بمفرده، ولكنَّ مهمته هي أن يساعد الطيار، ولهذه المهمة ضرورةٌ لا يمكن لأحد أن ينكرها، إذ لا يمكن للطائرة أن تستقيم أمورها على الوجه الأكمل إلا بوجود الطيار ومساعده، ويمكن لهذا المساعد أن ينصح الطيّار ويناقشه فيما تقتضيه المصلحة، ولكنَّ القرارَ الحاسمَ في النهاية هو قرار الطيار، وعلى مساعده أن ينقاد لقراراته، إذ لا يمكن أن يكون للطيارة قائدان، يقول أحدهما: افعل، ويقول الآخر: لا تفعل!

هذا أمرٌ غير معقولٍ ولا مقبول!

ولكنَّ دور هذا المساعد يبرز بشكلٍ كاملٍ ومستقلٍ عندما يطرأ على الطيار أمرٌ يُفقده القدرة على الطيران.

إذاً العلاقة بين الزوج وزوجته ليست كالعلاقة بين المعلم والتلميذ، أو بين القائد والجندي، ولكنها علاقةُ تشاركٍ وتكامل، وهي علاقةٌ منظمةٌ إدارياً بطريقةٍ سليمةٍ، يتولى فيها الرجلُ قيادة الأسرة والمسؤوليةَ عنها طالما أنه قادرٌ على ذلك وكفءٌ لذلك.

* * *

(1) رواه البخاري، عن سعد رضي الله عنه، باب مناقب عمر، رقم 3683.

إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم:

عندما نعود إلى ما ذكره القرآن الكريم عن العلاقة بين الرجل والمرأة خارج نطاق الأسرة، نراه يلغي الفوارق بين الذكورة والأنوثة، فالمرأة والرجل متساويان في أصل الخلقة لقول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1].

وهما متساويان في التكليف لقوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[2].

ومتساويان في أداء أدوارهما المجتمعية لقوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)[3].

إذاً، لا فرق بين ذكر وأنثى، ولا أفضلية لأحدهما على الآخر من حيث الجنس، وإنما مكمن الأفضلية يعود إلى الدور الوظيفيّ الأساسيّ الموكل إلى كل منهما في نطاق الأسرة، ففضّلت المرأة بصفاتٍ لا توجد لدى الرجل، وفضّل الرجل بصفاتٍ لا توجد لدى المرأة.

ولذلك كانت قوامة الرجل على المرأة محصورة في نطاق الأسرة الضيّق، أما خارج هذا النطاق فالمرأة والرجل سواء، بعضهم أولياء بعض.

* * *

(1) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه، باب بيان وجوه الإحرام، رقم 2998.

(2) رواه أبو داوود في سننه، باب في القوم يسافرون، رقم 2610. وحسّنه الألباني.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، باب: لا نكاح إلا بولي، رقم (1124)، وصححه الألباني.

الطاعة الزوجية:

دار ذاتَ مـرةٍ بينـي وبـين أحد المتشـدّدين جـدلٌ سـاخنٌ حول مفهـوم القوامة ومفهوم طاعـة الزوجـة لزوجها.

كان محدّثـي يـرى أن عـلى المرأة أن تطيـع زوجها في كل صغـيرةٍ وكبيرة، وأنه لا يجـوز لهـا أن تخالفـه أبـداً، ولـو كان ما يطلبـه منها أمـراً شـاقاً عليهـا، أو كان لها فيه وجهـة نظر، أو كان يتعـارض مع مصلحتها الشـخصية وتوجّهاتهـا العقلية!

وعليهـا (حسـب رأيـه) أن تستشـيره في كل شيء تريـد فعلـه: فيـما سـتلبس ومـا سـتطبخ.. فيمـن سـتزورهم ومـن سـيزورنها، ولـو كانـوا مـن أهلهـا.. فيمن سـتتحدث معـه، ولـو كان مـن محارمهـا!

وعليهـا إذا أرادت الخـروج من منزلهـا أن لا تخرج إلا بإذنـه، وإلا لعنتها الملائكة حتـى تعود، سـواء كان خروجها لأداء فريضـةٍ أو نافلةٍ أو لأمـرٍ مباحٍ أو ضروري!

ثـم راح محدثـي يدعـم موقفـه بالأحاديـث المنسـوبة إلى النبـي صـلى الله عليـه وسـلم، ومنهـا الحديثـان اللذان اسـتند إليهـما خطيب المسـجد الذي ذكـرتُ قصته في البدايـة، وهمـا حديـث: **(حقّ الـزوج على زوجتـه لو كانـت به قرحةٌ فلحسـتها، أو انتثـر منخـراه صديـداً أو دمـاً، ثـم ابتلعتـه مـا أدت حقـه)** 2، وحديـث: **(ثلاثـة لا تقبـل لهـم صـلاة ولا تصعـد لهـم إلى السـماء حسـنة: العبـد الآبـق حتـى يرجـع إلى مواليـه فيضـع يـده في أيديهـم، والمـرأة السـاخط عليهـا زوجهـا حتـى يـرضى، والسـكران حتى يصحـو)**[1].

كـما اسـتدل بحديـثٍ يقـول: **(إن المـرأة إذا خرجـت من بيتهـا وزوجهـا كاره، لعنهـا كل ملـكٍ في السـماء، وكل شيءٍ مـرّت عليـه غـير الجـن والإنـس، حتـى ترجـع)**.[2]

---

(1) أخرجه النسائي عن عائشة، في كتاب: النكاح باب: البكر يزوجها أبوها وهي كارهة رقم (6/ 87). وهو حديث صحيح.

(2) ـ سورة البقرة: الآية: (228).

وأورد قصةَ امرأةٍ مرض أبوها، فأتت النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ أبي مريضٌ وزوجي يأبى أن يأذن لي أن أمرّضه، فقال عليه الصلاة والسلام: **(أطيعي زوجك)**، فمات أبوها فاستأذنت زوجَها أن تصلي عليه، فأبى زوجها أن يأذن لها في الصلاة على أبيها، فسألت النبي عليه الصلاة والسلام فقال لها: أطيعي زوجك، فأطاعت زوجها ولم تصلِّ على أبيها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **لقد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك**[1].

نظرتُ إلى محدّثي باستغرابٍ وقلت له: جميعُ ما ذكرتَه من أحاديث هي **أحاديث ضعيفةٌ أو لنقل: في أحسن الأحوال هي أحاديث لا ترقى إلى درجة الصحيح**، ولا يجوز الاعتماد عليها في تقرير حكم شرعي هو فرض الطاعة العمياء على الزوجات للأزواج، خصوصاً وأنَّ هذا الكلامَ يتناقض مع نصوصٍ شرعيةٍ وصحيحة!

فالزوج الذي يمنع زوجته من زيارة أبيها وتمريضه دون سببٍ، يخالف القرآن الكريم الذي أمر الولد بطاعة والديه، وقرن ذلك بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك به، إذ قال تعالى: **(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)**[2].

فكما أنه لا يجوز للزوج أن يأمر زوجته بفعل معصيةٍ، لا يجوز له أن يمنعها من أداء فريضة، وبرّ الوالدين فريضة، وصلة الأرحام فريضة، والتعلُّم فريضة، ولا يحّق للرجل أن يستخدم سلطة القوامة ليمنع زوجته من برّ والديها وصلة أرحامها وارتياد المساجد وتحصيلِ العلم دون سببٍ مبرّرٍ ومشروع.

---

(1) سورة الحجرات: الآية (13).

(2) سورة النحل: الآية (97).

كان النبي ﷺ ينبّه الرجال إلى هذا قائلاً:

«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1] **«إذا استأذنكم نساؤكم إلى المساجد فائذنوا لهنّ»**[2].

ولهذا نجد أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ (رغم غَيرته الشديدة على زوجته)، لم يمنعها من الذهاب إلى المسجد، وقوفاً منه ﷺ عند حدود الشريعة الإسلامية، التي وضّحت مفهوم القوامة والطاعة الزوجية.

* * *

حدود الطاعة الزوجية:

استاء محدّثي من نقاشي، وبعد فترة صمت قصيرة، قال وقد نفخ صدره ورفع رأسه:

ألا تعلمين أن هناك أحاديث أخرى صحيحة تحثّ الزوجة على طاعة زوجها، وترهّبها من عصيانه؟!

قلتُ له: بلى أعلم. فالنبي ﷺ يقول: **خير النساء من تسرّك إذا أبصرتَ، وتطيعك إذا أمرتَ، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالِك**[3].

ويقول: **خير نسائكم الولود الودود، المواسية المواتية (المطاوعة)، إذا اتقين الله**[4].

وأنا من حيث المبدأ لا أعترض على مفهوم طاعة الزوجة لزوجها، بل أراه أمراً واجباً، ولكنني أعترض على إساءة استخدام الزوج لهذا المفهوم، واعتباره سلاحاً بيده يستعمله لقمع الزوجة واستعبادها، وهذا أمر يرفضه الشرع، بل ويحرّمه أيضاً..

---

(1) سورة التوبة: الآية (71).

(2) رواه الحاكم في المستدرك، رقم (2717). وإسناده ضعيف.

(3) رواه ابن خزيمة في صحيحه، رقم 895، وضعفه الألباني.

(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (214). وقال الألباني: ضعيف جداً.

فطاعة الزوجة لزوجها ينبغي أن تؤدي إلى تحقيق المراد منها، أي: إلى استقرار النظام في الأسرة وتحقيق النجاح والسعادة لأفرادها، وذلك لا يكون إلا إذا كانت **الطاعة في ظلّ الشورى وحرية الرأي**.

هكذا كانت حياة النبي ﷺ مع زوجاته: أمرٌ بمعروفٍ وطاعةٌ بمعروف!

والحقيقة أن هذه الطاعة فضيلةٌ تتوسط رذيلتين: رذيلة استبداد الزوج وتسلّطه الأرعن باسم الطاعة والقوامة، ورذيلة عصيان الزوجة وتمرّدها على قرارات ومطالب الزوج بحقٍّ وبغير حق، ولا شك أنَّ كلا الأمرين سيحوّلان البيت إلى ساحةٍ لمعارك خاسرة، بغضّ النظر عمّن هو السبب في ذلك.

* * *

الطاعة الزوجيّة مقيّدة:

نظرتُ إلى محدّثي فوجدتُه ساهماً واجماً، يبدو عليه الاستياء، فقلتُ له:

يا أخي الكريم، طاعة الزوجة لزوجها ليست مطلقةً، بل هي مقيدةٌ بشروطٍ، وهذه الشروط هي:

1- ألا تكون في معصية، لقول الله تعالى في حق الوالدين: **(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)**[1]، ويقاس على الوالدين بقية الناس من باب الأولى.

ولقول النبي ﷺ: **لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**[2].

2- أن يطلب الزوج ما يريد طلبه بأسلوبٍ حسنٍ لطيف، لقوله تعالى: **(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)**[3].

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه، (7644)، وإسناده ضعيف.

(2) سورة الإسراء: الآية (23).

(3) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه، باب خروج النساء إلى المساجد، رقم 1018.

3- أن يكون الهدف من الطلب مصلحة الأسرة، وليس التعسف وفرض الرأي وإقصاء آراء الآخرين وتهميشهم!

ولقد كان النبي ﷺ إذا حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها، يكفّر عن يمينه، ويفعل الذي هو خير.

4- أن لا يكون في الطلب تكليفٌ للزوجة بما يشقّ عليها فعله، لقوله تعالى: **(لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**[1].

* * *

استئذان الزوجة زوجها:

ما إن انتهيت من حديثي حتى أصلح محدّثي جلسته، وقال بلهجة المنتصر:

ما قولك إذاً في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **لا يحلّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهدٌ إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**[2] وفي قوله: **إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، لعنتها الملائكة حتى تصبح**[3]؟!

هل هذه الأحاديث صحيحةٌ أم لا؟!

أجبته: بلى، هذه الأحاديث صحيحة، وسؤالك هذا يفترض أنني لا أؤمن بالطاعة الزوجية، وهذا غير صحيح، فأنا أؤمن بأنَّ قوامة الرجل على الأسرة تستلزم طاعته، ولكنَّ الطاعة شيء، وتعسُّفَ الرجل في استخدامها شيء آخر!

ومن الطاعة المقبولة عقلاً والمطلوبة شرعاً، أن لا تستنكف المرأة عن فراش الزوجية، لأن ذلك ربما يدفع الزوج إلى الانسياق وراء الحرام ومغرياته، ولا يخفى ما في ذلك من أضرار على الأسرة أولاً وعلى المجتمع ثانياً.. ولهذا السبب

---

(1) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه، باب خروج النساء إلى المساجد، رقم 1019.

(2) رواه الطبراني عن عبد الله بن سلام ﷺ، (9/ 456). وصححه الألباني.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى، عن أبي أذينة الصدفي، في النكاح، رقم (7/ 82). وصححه الألباني.

منع الإسلام الزوجة أن تصوم نفلاً إلا بإذن زوجها، وقدَّم حق الزوج في هذا على عبادات النوافل بناءً على قواعد المصالح وموازنتها.

ثم إنَّ النبي ﷺ لم يتوجه بهذا الأمر إلى الزوجة وحدها، بل توجه إلى الزوج بما يماثله، وهاكم هذه القصة.

زوَّج عمرو بن العاص ولده عبد الله، وبعد مدةٍ سأل زوجته: كيف هو عبد الله؟

فقالت: نِعمَ الرجل عبد الله، إلا أنه لا يطأ لنا فراشاً!

يظلّ ليلَه مصلياً ونهارَه صائماً!

فشكا عمروٌ ولدَه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي ﷺ لعبد الله:

ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النّهار؟ فقال عبد الله: إني أفعل ذلك يا رسول الله، فقال: إذا فعلتَ ذلك هجمَت عينُك(1)، ونَفِهت نفسُك(2)، وإنَّ لنفسك حقاً، ولأهلك حقاً، فصُم وأفطر، وقُم ونَم (3).

أما رغبةُ الزوج في معرفة من يدخل بيته، والاستجابة لطلبه إذا كره دخولَ فلانٍ أو فلانةٍ من الناس (ولو كانوا من أقرب الناس إلى الزوجة)، فمن حقّ الإنسان أن يعرف من سيدخل للقاء زوجته، ولو كان من محارمها، لأنَّ للضيف تأثيراً على المضيف، وعندما يكون تأثيره سلبياً وهدّاماً ومصدراً من مصادر التخريب النفسي والعقلي، يكون من حقّ بل من واجب الزوج أن يحمي أهل بيته من هذا التأثير الهدَّام، لأن الزوج راعٍ، وهو مسؤولٌ عن رعيته.

وهذا الحق ممنوحٌ للزوجة بنفس الطريقة، ومن حقها أن تطالب زوجها بالامتناع عن استقبال الضيف الذي لا يحترم خصوصية البيت، ولا يقف عند حدود الله، ويتمادى في تخطّي عتبة الضيافة، لينقلب إلى معول هدمٍ ينخر في كيانها وبنيانها!

---

(1) سورة لقمان: الآية (15).

(2) رواه مسلم عن علي رضي الله عنه، باب وجوب طاعة الأمراء، رقم 4871.

(3) سورة النساء: الآية (19).

ومن حقها أن تمتنع عن استقبال الضيفة التي تتهادى في الميوعة والمزاح وتتبرّج في الهندام والمكياج، ولو كانت أقربَ الناس إليها أو إليه!

* * *

الأعمال المنزلية:

بعد برهة من الصمت سألني محدثي قائلاً: ما رأيك بما تفعله كثيرٌ من النساء اليوم، حين تهمل تنظيف منزلها، وتقصّر في كيّ الملابس وطبخ الطعام؟ هل يجيز الإسلام هذا؟!

قلت له: حكم عمل الزوجة في المنزل يعود إلى العرف الذي يُتعارف عليه في بلدهما. **وليس في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة نصٌّ واحدٌ يوجب على المرأة أن تقوم بأعمال المنزل** بمفردها، بحيث يعتبر تقصيرها في هذا إثماً تؤاخذ عليه في الدنيا من قبل زوجها، وفي الآخرة من قبل ربها!

بل هناك نصوص شرعية تلقي على كاهل الزوج مشاركة زوجته في هذه المهامّ المنزلية..

بهت محدّثي وقال مستنكراً: نصوصٌ شرعيةٌ تأمر بهذا؟!

أين هي هذه النصوص؟

هاتي أسمعينا !!

قلت: **تروي كتب السيرة أنَّ النبي ﷺ كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم**[1].

أليس هذا هدياً نبوياً لكل زوج؟!

عندما يتزوج الرجل اليوم يلقي بمسؤولية المنزل على كاهل زوجته وحدها، والويل لها إن قدم يوماً من عمله فلم يجد الطعام جاهزاً والبيتَ نظيفاً

(1) سورة البقرة: الآية (286).

والقميصَ مكويًّاً! وربما يشفع لها أو لا يشفع – والله أعلم- أن ابنها الرضيع مريض، وأن وقتها كان مستنزفاً في العناية به..

* * *

لقطات استبدادية:

سكتُّ هنيهةً وأنا أتذكر صوراً حقيقية لأسرٍ اغتالها الطلاق، بسبب نظرة الزوج إلى الزوجة نظرةً فيها الاستعباد والاستعلاء!

ابتلعتُ غصّتي وقلتُ لمحدثي: **اسمع معي اللقطات التالية.**

عاد الزوج من عمله.. فتح البابَ بالمفتاح، وصاح بأعلى صوته:

- فهمية.. فهمية.. أين الشحّاطة؟!

هرعت فهمية والرعب يأكل قدميها ويبتلع لسانها، وبحثت في كومودينة الأحذية عن الشحّاطة، فوجدتها بسهولة، ووضعتها أمام قدمي زوجها..

هزّ الزوج رأسه وهو يقول بلهجةٍ غاضبة: كم مرةً أمرتُكِ أن تضعي الشحّاطة بجانب الباب؟!

(فظاعة شو ما بتفهمي)!!

لقطة ثانية:

الزوج مضطجعٌ على الأريكة يتابع مباراةَ كرة القدم باهتمامٍ بالغ، والزوجة تجهّز طعام الغداء.

ينادي الزوج: سميرة.. يا سميرة.. هاتي كأس ماء.

تغسل سميرة يديها المصبوغتين بالبندورة، وتنفّذ طلب زوجها..

يتناول الزوج الكأس من يدها، وعيناه مثبّتتان على التلفاز..

تعود سميرة إلى عملها دون أن تسمع كلمة شكرٍ واحدة!

انتهت المباراة، وشعر الزوج فجأةً بالجوع، فنادى بصوتٍ حادّ: أين الطعام يا سميرة؟

أجابت سميرة: دقائق فقط ويصبح جاهزاً.

نظر الزوج إلى الساعة، فوجدها تشارف على الثالثة، فقال: كم مرةً أخبرتُك أن تجهّزي الأكل في الساعة الثانية؟!

هذه اللقطات هي غيضٌ من فيضٍ من اللقطات الواقعية، التي ينظر فيها الزوج إلى زوجته على أنها خادمةٌ فقط، ولا يكلّف نفسه عناء مساعدتها في شيء مما يكلّفها به!

* * *

مهمّة الزوجة:

تساءل محدّثي محتداً: أنت تقولين إنَّ على الزوج أن يساعد زوجته في أعمال البيت!

ما هي إذن مهمة الزوجة؟ ولماذا يتزوجها الرجل؟

أجبتُه: هنا مكمن الخطأ، فعندما نَقصُر مهمةَ الزوجة على إنجاب الأولاد وطبخ الطعام وتنظيف المنزل وكيِّ الملابس، نكون بذلك قد أسأنا إلى مؤسسة الزواج والأسرة إساءةً بالغة.

قاطعني وهو يقول مستنكراً: وما هي مهمّة الزوجة إذن؟

قلت: **مهمّة الزوجة الأولى هي رعاية الأولاد وتربيتهم عقلاً وروحاً، وهي مهمةٌ ليست بالسهلة أبداً، ولا تقلّ صعوبةً عن مهمة الرجل خارج منزله..**

ولذلك لا بأس عليه إن ساعدها بنفسه في مهامّ المنزل الأخرى، أو إن جلب لها خادمةً تعينها، إن كان ذلك ضمن إمكانياته المادية..

بعض الأزواج لا يكلفون أنفسهم عناء القيام إلى المطبخ لشرب كأس الماء، بل يطلبون ذلك من زوجاتهم، ويأنفون إن طلبت منهم زوجاتهم يوماً المساعدة في تجهيز مائدة الطعام أو جلي الأطباق.

هذه النظرة تعمّ في كثيرٍ من الأحيان الأسر التي تشارك فيها الزوجة بالعمل خارج المنزل، لتساهم في دعم زوجها مادياً ومعنوياً، إذ تبقى مهامّ المنزل من

رأسها إلى أساسها على عاتق الزوجة، بدعوى أنها هي المسؤولة عن شؤون المنزل أولاً وأخيراً!

أليس مخجلاً أن تقوم الزوجة بأعباء المنزل كاملة إلى جانب أعمالها الأخرى في تربية الأولاد، والعمل خارج المنزل، بينما يضطجع الزوج على الأريكة مسترخياً مترهّلاً، يكتفي بإلقاء اللوم والتقريع والتوبيخ على زوجته، ويطالبها بالطاعة وبالواجبات الزوجية، إذا ما قصّرت في شيء من هذه المهام يوماً من الأيام؟!

هذا البلاء مع الأسف يعمّ أغلب الأزواج، وعمل المرأة في الطبخ والجلي والمسح والكيِّ صار من واجباتها المسلّم بها، فلا يُبدي أزواج اليوم قبولاً لأيَّةِ مشاركةٍ أو مساعدةٍ في هذه الأعمال لأيّ سببٍ كان!

* * *

تطوّع الزوجة بالأعمال المنزلية:

تساءل محدّثي مغضباً: ألا تظنين أنك بهذا تؤلّبين الزوجات على أزواجهن؟!

فقلت له: هل تعتبر وضع الأمور في نصابها وإعادتها إلى موازينها الشرعية تأليباً للزوجة على زوجها؟

صحيحٌ أنَّ **الأعمال المنزلية ليست مهمّة المرأة وحدها، وليست واجباً من واجباتها الزوجية**، إلا أن الإسلام يَندبها لأن تفعل ذلك، ولو رفض الزوج أو عجز عن المساهمة والمساعدة!

ولتعلم الزوجة أنّ عملها هذا مندوبٌ ومأجورٌ عند الله تعالى، ولها أسوة حسنة بفاطمة الزهراء ابنة النبي ﷺ، فقد تزوجت من علي رضي الله عنه وكان رجلاً فقيراً، وعندما دخلت إلى بيتها الزوجي لم يكن فيه إلا فرش من جلد كبش، فكان هذان الزوجان الكريمان يجلسان عليه في النهار ويفترشانه في الليل!

وكانت رضي الله عنها تخدم نفسها وتخدم عائلتها، دون أن ترى في هذا امتهاناً لها أو انتقاصاً من شأنها، فكانت تجلب السّقاء إلى المنزل، وتجرّ الرّحاء

وتطحن بها، حتى أثّرت في يدها، ولما بلغها أنَّ في يد والدها صلى الله عليه وسلم سبياً من العبيد، أتت إليه تسأله أن يهبها خادماً ليعينها، فقال ﷺ: **والله لا أعطيكم وأهل الصفّة تطوَى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم** (أي رقيق السبي) **وأنفق عليهم أثمانهم**.[1]

ثم نظر النبي ﷺ إليها وإلى زوجها رضي الله عنهما، وقال لهما بلهجة مملوءة عطفاً وحباً وحناناً: **ألا أعلّمكما خيراً مما سألتماه؟! إذا أخذتما مضجعكما أن تكبّرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبّحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من الخادم**[2].

وكذلك كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تعمل داخل بيتها وخارجه، لتعين زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه، وكان إذ ذاك فقيراً لا مال له ولا عبيد، فكانت تعلف فرسه، وتخيط الدلاء، وتجلب الماء إلى المنزل، وتعجن العجين، كما كانت تعمل في أرض الزبير التي أقطعه إياها رسول الله ﷺ، وهي على بعد 3 كم من المدينة، فكانت تنقل النوى على رأسها مشياً على الأقدام، كل هذا وهي تحتسب أجرها عند الله تعالى.

* * *

انتهى الحديث بيني وبين ذاك الشخص المتشدّد على ستر وسلامة، ولست أدري هل كان سكوته دليلاً على قناعته، أم خروجاً من مناقشةٍ لا أمل له في الفوز بنتيجتها!

الله أعلم بذلك.

* * *

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 5195.

(2) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 5193.

مواجهة الزوجة لتعسّف زوجها:

أحبُّ قبل أن أودّعكم أن أجيب عن سؤال ربما يخطر ببال بعضكم: **ماذا تفعل الزوجة حين يتعسّف زوجها في استخدام حقّ القوامة؟**

وكيف تصحّح مفاهيمه العوجاء؟

وكيف توقف تسلّطه وتجبّره؟

هذا طبعاً سؤالٌ مهمٌّ، إذ: هل يكفي أن نقول للزوجة اصبري وأجرك على الله؟

أم إنَّ هناك طرقاً عمليةً يمكن لها أن تسلكها، لتقوّم بها سلوك زوجها المعوّج؟!

سأذكر لكم دليلين واضحين، أحدهما من القرآن الكريم والآخر من السنة الشريفة، وسأترك لكم بعد ذلك استنتاج حكم الشرع في ذلك.

الدليل الأول هو قول الله تعالى: **(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)**[1].

والدليل الثاني هو حادثةٌ جرت في عهد النبي ﷺ، فقد اشتكت بعض النساء إلى النبي ﷺ من ضرب أزواجهنّ لهن، فصعد النبي ﷺ المنبر، وقال: **لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأةً كلهن يشتكين الضرب! وايم الله لا تجدون أولئك خياركم!** [2]، وفي روايةٍ أنَّ النبي ﷺ لما بلغه ذلك نهى عن ضرب النساء وقال: **خيركم خيركم لأهله، وأنا من خيركم لأهلي.**

ما رأيكم بهذين الدليلين؟!

لا شك أنكم توافقون معي أنَّ على الزوجة أن تسعى جاهدةً لرفع ظلم زوجها وتعسّفه، وقد يكون ذلك بالصبر الممزوج بالحوار والنقاش، فإن ظل الزوج مصراً على موقفه، فيمكن لها عند ذاك أن ترفع الظلم عن نفسها باللجوء إلى الأهل والمعارف، الذين تجمعهم بها وبزوجها صحبةٌ ومودة، أو باللجوء إلى

---

(1) () ضعف بصرك.

(2) () أعيَتْ وكلَّتْ.

بعض علماء الدين الذين تعرف مدى تأثّر زوجها بآرائهم ونصائحهم..

أما عندما تعجز كلُّ الوسائل السلمية عن ردع الزوج وإعادته إلى جادة الصواب، فلها أن تلجأ إلى القضاء، الذي قد يتمكّن من إعادة الأمور إلى نصابها، وإلا فرِّق بينهما، إن كان التفريق خيراً لهما، وآخر الدواء الكيّ!

* * *

نصيحة أخيرة:

أخي الزوج.. أيها القوّام .. نصيحة أخيرة أتوجه بها إليك:

اعلم أنَّ القوامة عنصرٌ إيجابيٌ بنّاء، وهي تمكّنك من قيادة سفينتك إلى برّ الأمان والسلامة، ولا يجوز أن تتحوّل إلى عنصرٍ مخرّبٍ ومدمّرٍ لكيان الأسرة وأمنها وسلامتها.

وعندما تعرف معنى القوامة وحدودها وضوابطها ومفهومها، تكون قد تسلّحت بعدّة القيادة الحكيمة التي يحتاجها كل ربّانٍ ماهرٍ، يحرص على سلامة سفينته وسلامة ركّابها.

* * *

معظم الفتيات يتحوّلن بعد الزواج إلى سيداتٍ يُجِدنَ الطبخ والنفخ وإنجاب الأولاد، وينسين العلم والجامعة والشهادة التي حصلَن عليها، أو التي يتوجّب عليهن الحصول عليها، وكأنَّ الزواج مقبرةٌ تُدفن فيها الأحلام الجميلة والبرامج العظيمة، وتنتهي آمال الفتيات عند عتبته.

هل هذا صحيح؟ وهل هو ظاهرةٌ طبيعية؟

الجواب عن التساؤلات المرتبطة بهذا الموضوع سيأتي في الصفحات التالية بإذن الله.

الزواجُ ليس
مقبرة الأحلام

ما رأيكم بهذه اللقطات؟

اللقطة الأولى:

سميرة امرأة متزوجة حاصلة على شهادة في الصيدلة، ولكنها لا تؤمن بأهمية عمل المرأة خارج منزلها، وترى أن عملها الأول والأخير يجب أن يكون منحصراً في رعاية أسرتها..

تمضي سميرة وقتها في تنظيف المنزل والطبخ وغسيل الملابس وكيها وتدريس الأولاد ورعايتهم، وفي الوقت الفائض الذي يتبقى لها تقرأ بضع صفحات من القرآن الكريم، ثم تفتح صفحتها على الفيس بوك، وتدردش مع صديقاتها حول الطعام والشراب ومشاكل الأولاد والأزواج..

عندما كبر أولاد سميرة وتزوجوا، شعرت سميرة بفراغ قاتل، فحاولت ملء وقتها بالزيارات والثرثرة النسائية، ولكنها اكتشفت سريعاً تفاهة هذه الحياة، فحاولت أن تعود للعمل في مهنة الصيدلة التي هجرتها لمدة 25 عاماً، لكنها أدركت متأخرة أنها نسيت كثيراً مما تعلمته، وأن هناك الكثير من المستجدات العلمية التي لا تعلم عنها شيئاً..

أصيبت سميرة بالاكتئاب، وهي إلى الآن تبحث عن حل لأزمتها، فهل ستجد لديكم الحل إخوتي القراء.

ألا ترون معي أنه كان على سميرة ألا تتخلى عن العلم الذي تعلمته.. فقد كان بإمكانها أن تنمي علمها في الصيدلة من خلال الإنترنيت والاطلاع على المستجدات في مجال الأدوية، وعندما يكبر أولادها ويدخلون المدرسة بإمكانها أن تزاول هذه

المهنة في فترة غيابهم، وبذلك تكون امرأة معطاءة ناجحة في بيتها وعملها، وتفيد مجتمعها دون أن تقصر في واجباتها الأسرية.. ما رأيكم إخوتي القراء؟

اللقطة الثانية:

رفيدة امرأة طبيبة أسنان، متزوجة ولديها ثلاثة أولاد..

تقول رفيدة: عندما كان أولادي صغاراً اعتزلت العمل في مهنتي وتفرّغت لتربيتهم، لأنّني أؤمن بتفرغ الأم لأولادها وقت الصغر، وعندما كبر أولادي ودخلوا المدرسة، عدت لعملي، وحاولت أن يكون قدر المستطاع في وقت غيابهم..

أستطيع أن أقول: إني امرأة ناجحة في بيتي وعملي، وأرد ذلك إلى دأبي وإصراري وتنظيمي لوقتي من جهة، وإلى دعم زوجي ومساندته لي من جهة أخرى.

فما رأيكم بما تفعله رفيدة إخوتي القراء..

هل توافقونها على عملها خارج المنزل، ام ترونه مذموماً؟

* * *

اللقطة الثالثة:

هناء امرأة متزوجة وحاصلة على شهادة الأدب الانجليزي..

تكره هناء أن تمضي وقتها في أعمال المنزل، لأنها ترى أنها بذلك تصبح خادمة في بيتها، وهي لا ترغب بذلك أبداً، ومن أجل ذلك جلبت هناء خادمة إلى المنزل وأوكلت لها جميع المهام.

تحب هناء الموضة وتعشق النزهات والصبحيات والعصرونيات والمسويات مع الصديقات..

لا يمر يوم إلا ولدى هناء مشروع تسلية خارج المنزل، بينما يبقى زوجها وأولادها في رعاية الخادمة..

زوج هناء وأولادها يضجون بالشكوى من إهمالها لواجباتها، ويتهمونها بالتقصير واللامبالاة..

تدافع هناء عن نفسها قائلة: أنا إنسانة ومن حقي أن أعيش كما أشاء، ولا يحق لأحد أن يحاسبني طالما أني أستطيع تدبير أموري المنزلية عن طريق الخادمة..

لكنّ زوج هناء وأولادها يرون أن هناك اموراً كثيرة لا تقوم بها هناء، ولا يمكن للخادمة أن تقوم بها بدلاً عنها..

فما رأيكم أنتم إخوتي القراء؟ هل ما زال بعضكم مصراً على أن عمل المرأة خارج منزلها يشغلها عن واجباتها المنزلية، ويرى بالمقابل أن المرأة غير العاملة هي أشد اهتماماً بأسرتها وأكثر التزاماً بواجباتها الزوجية والوالدية؟

أم أنكم ترون كما أرى أن تقصير المرأة في واجباتها الأسرية لا يعود إلى عملها خارج منزلها أو امتناعها عن العمل بمقدار ما يعود إلى تنظيمها لوقتها وفهمها لواجباتها وحرصها على القيام بها على أكمل وجه!!!!!!!

مشاركة المرأة في التنمية الاقتصادية:

كنت مرةً أتحدث في إحدى الندوات عن مشاركة المرأة في التنمية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، وضربتُ مثلاً لذلك بعض الصحابيات، اللواتي كنّ يعملن في مهنٍ عديدةٍ كالتجارة والصناعة والزراعة وما إلى ذلك، فاستنكر أحد أدعياء الثقافة والعلم ذلك، وعقّب على كلامي قائلاً:

– عمل المرأة خارج منزلها محرَّمٌ في الإسلام، ومهمَّة المرأة الأولى والأخيرة هي إنجاب الأولاد وتربيتهم والطبخ والغسيل والكي..

ولما سألته عن دليلٍ واحد يؤيد ما يزعمه، فكّر قليلاً وقد ظهرت على وجهه آثار التردد والتلكؤ، وبعد فترة صمتٍ حرجة، أصلح جلسته، وقال محتداً:

– الدليل على ذلك عدم وجود دليلٍ واحدٍ من القرآن الكريم أو السنة الشريفة، يبيِّنُ جواز عمل المرأة خارج بيتها..

قلت له: إذا كنت تقصد بالدليل آيةً كريمةً، تقول حرفياً بأنَّه يجوز للمرأة أن تعمل خارج منزلها، فإنك لن تجد آيةً كريمةً أو حتى حديثاً شريفاً، لأنّ عمل المرأة ليس عبادةً مفروضةً لها شكلٌ ثابتٌ ووقتٌ ثابت، بل هو مسألةٌ اجتماعيةٌ، تتعدد صورها حسب الظروف والملابسات والأزمنة والأمكنة، وبالتالي فإنّ الحكم الشرعي لعمل المرأة يختلف من وقتٍ إلى وقت، ومن ظرفٍ إلى ظرف.

الحكم الشرعي لعمل المرأة:

فقد يكون عمل المرأة واجباً، حين تفقد المعيل من زوج أو أب أو أخ، ولا شك أنك توافقني على أن عملها عند ذاك يكون خيراً لها من أن تمدّ يدها للحرام، أو أن تتسوّل وتسأل الناس العطاء..

ويكون عملها فرضاً كفائياً، حين تكون هناك مهنٌ وأعمالٌ لا بدّ للمرأة من تغطيتها، كطبّ التوليد وأمراض النساء، وتعليم الإناث، وحضانة الأطفال وتعليمهم، والمحاماة والقضاء والفتوى، وغيرها من مجالات الخدمات التي تحتاج إلى العنصر النسائي.

ويكون عمل المرأة مندوباً، حين يكون الهدف منه معونة الزوج أو الأب أو الأخ، أو تحقيق مصلحة كبيرة للمجتمع الإسلامي، وذلك حين تمتلك المرأة ملكاتٍ ومواهبَ عاليةً، وقدراتٍ فائقةً، تفيد المجتمع. أو إن كان لديها من الطاقات العقلية والعلمية ما تستطيع به المساهمة في إبداع واختراع الجديد في مجالات العلوم والتكنولوجيا وغير ذلك!

قاطعني محدّثي متسائلاً: ومتى يكون عملها محرماً أو مكروهاً؟

أجبته: إذا أدّى عملُها إلى ارتكاب محرَّم، أو إن كانت تعمل في مجالٍ محرَّم، كالعمل في بيع الخمور أو أماكن اللهو والفسّاد والمجون والغناء والرقص، فإن العمل عند ذلك يكون محرماً.. على الرجل والمرأة معاً.

كما يُكره عمل المرأة إذا صرفها وشغلها عن عملها الأهمّ في تربية الأولاد ورعاية الأسرة، أو أدى إلى التقصير المخلِّ بمهامها الأسرية تجاه زوجها وأولادها.

عمل المرأة الأساسي رعاية الأسرة:

ابتسم محدّثي وقال: إذاً أنت تقرّين بأنّ عمل المرأة في منزلها أولى وأهمّ من عملها خارجه!

قلت: نعم... عمل المرأة الأساسي هو رعايتها لأسرتها المكوّنة من زوجها وأطفالها، واقتصارها على هذا العمل لا يعني أنها عاطلةٌ عن العمل، عالةٌ على المجتمع، لا تشارك في تطويره، ولا تساهم في تقديم النفع إليه، كما يدّعي البعض..

بل إنَّ العكس هو الصحيح، فعندما تقوم المرأة بدورها هذا حق القيام، تزوِّد المجتمع بأفرادٍ صالحين، يشاركون في بنائه ونفعه وتطويره، وكما تعلم ويعلم الجميع، فإنّ صلاح المجتمع مرهونٌ بصلاح أُسره وعوائله..

عند هذه النقطة أراد محدثي أن ينهيَ الكلام، واستأذن للانصراف، وكأنه يريد أن يفرّ بعد أن ظفر بهذا الرأي، ولكنني استوقفته قائلة: على رسلك.. لم ننته بعد من معالجة الموضوع..

أجابني: الموضوع منتهٍ.. عمل المرأة في منزلها هو الأساس كما تقولين، ولم يطلب منها الإسلام أكثر من الطبخ والغسيل والكوي وتربية الأولاد..

هل تستطيع المرأة أن توفق بين عملها جارج المنزل وداخله؟

كثيرون هم الذين يقولون: يجوز للمرأة أن تعمل خارج منزلها، ولكن هذا القول يبقى نظرياً غير قابل للتطبيق في رأيهم، لأن المرأة لا تستطيع أن توفق بين عملها الأساسي في المنزل وبين عملها خارجه..

باختصار: هي لا تستطيع أن تواظب على العمل ثماني ساعات خارج المنزل، ثم تعود لتعمل ثماني أو عشر ساعات أخرى، في تنظيف

المنـزل والغسـيل والكـي والطبـخ، ثـم في تدريـس الأولاد ورعايتهـم!!! وهنا أقول لهؤلاء: أولاً، على الزوج أن يتأسى بما كان النبي ﷺ يفعله.

فقـد سـئلت عائشـة رضي الله عنهـا: مـا كان النبـي ﷺ يصنـع في بيتـه ؟ قالـت : كان يكـون في مهنـة أهلـه – تعنـي خدمـة أهلـه – فـإذا حـضرت الصـلاة خـرج إلى الصـلاة.[1]

ثانيـاً، تتفـرد الزوجـة بالقـدرة عـلى الحمل إنجـاب الأولاد، ثم تشـترك مـع الـزوج في حضانتهـم ورعايتهـم، نفسـياً وعقليـاً ومعنويـاً، إلى جانـب الرعاية الجسـدية..

وتعـاني معظـم المجتمعـات مـن أن أغلـب الآبـاء والأمهـات يحسـنون تربيـة أجسـاد أولادهـم، وينسـون تربيـة أرواحهـم وعقولهم ونفسـياتهم.. ولهـذا قال الشـاعر:

ليس اليتيم الذي انتهى أبواه من ... همِّ الحـياة وخـلَّـفـاه ذليلا

إنَّ اليتيم هو الـذي تلقى له ... أمـاً تخـلَّـت أو أبـاً مشغولا

إذن، مهمـة رعايـة الأولاد والقيـام بشـؤون المنـزل الأخـرى هـي مهمـة مشـتركة بـين الزوجـين، خصوصـاً عندمـا تكـون المـرأة عاملـة.. لكـن هـذا للأسـف لا نـراه في مجتمعاتنـا التي يجحـف فيهـا الأزواج بحـق الزوجة العاملـة، فيطالبونهـا بـان تكـون السـوبر ومـان في كل شيء.. فتراهم يجلسـون على الأريكـة بعـد عودتهـم مـن أعمالهـم، ينتظـرون منهـا (اي مـن زوجتهـم السـوبر ومـان) أن تجلـب لهـم كأس المـاء ونفاضة السـجائر والريمـوت كونترول لمشـاهدة التلفـاز، ويطالبونهـا بالإسراع في طبـخ الطعام وتجهيزه، ويتركونها بمفردها لتغسـل الأطبـاق وترعـى الأولاد وتدرسـهم، ثـم تتـولى مهمـة إسـكاتهم وتنويمهـم باكراً حتـى لا ينزعـج السـيد البيـك مـن أصواتهم!!!!

(1) رواه البخاري، باب من كان في حاجة أهله، رقم 676.

فـإذا مـا قـصّرت في واجب من هـذه الواجبات ينهالـون عليها بسـياط التقريع والتوبيخ، ويتهمونهـا بالتقصير والتفريط..

بينـما يجـد المعارضـون لعمـل المـرأة هـذا مستمسـكاً خطـيراً، يبيح لهـم القول بحرمـة عمـل المـرأة خـارج منزلهـا، لأنهـا حسـب رأيهـم لا تسـتطيع التوفيـق بـين عملهـا داخـل المنـزل وخارجه..

وينسـون أو يتناسـون أنهم هـم المقـصرون في واجباتهم المنزليـة، وأنهم يعلقون أخطاءهـم وتقصيراتهم على شـماعة عمـل المرأة..

ما رأيكم إخوتي القراء؟

أليس الأزواج هم المقصرون لا الزوجات (في معظم الأحيان)؟

هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى يجب عـلى المرأة حـين تريـد أن تشـارك في تنميـة مجتمعهـا، أن تراعـي ترتيب سـلّم الأولويـات في حياتها، ولا يجـوز أن يكون عملهـا صارفـاً لها عـن أداء واجباتهـا الأساسـية في بيتهـا وأسرتها..

حاجة الطفل إلى أمه:

قاطعني محدثي قائلاً:

– هـذا الـكلام نظـريٌ، لأن الواقـع يقول: لا تسـتطيع المـرأة أن تقـوم بمهامها الأسريـة خير قيـام، وهي تعمل وتكـدح وتتعب! وعلـماء النفس والتربيـة يقررون أنَّ تفـرُّغَ الأم لوليدِها ضرورة حيويـة لـكلٍ مـن الولـد وأمـه، وقـد أجـرى أحـد العلـماء تجربـةً هامـةً في هذا..

فلقـد درس مجموعتـين مـن الأطفـال، الذيـن لم تتجـاوز أعمارهـم السـنة الواحـدة، فوضـع في المجموعـة الأولى أطفـالاً بمعـزلٍ عـن أمهاتهـم، ويقـوم عـلى رعايتهـم أخصائيـون تربويـون، ووضـع في المجموعـة الثانيـة أطفالاً مـع أمهاتهم، ليقمـن برعايتهـم والعنايـة بهـم. وبعـد فـترة سـنةٍ مـن الاختبـار خـرج بالنتيجـة التالية:

فشل كثيرٌ من أطفال المجموعة الأولى في تعلم الكلام والمشي والاعتماد على أنفسهم في الأكل، بينما تعلم أطفال المجموعة الثانية بأكملهم كل هذه المهارات، والأهمّ من هذا أن نسبة الوفيات في المجموعة الأولى كانت كبيرة، بينما لم تقع حادثة وفاةٍ واحدةٌ بين أطفال المجموعة الثانية.

أنهى محدثي تعقيبه، ونظر إلي نظرة تحدٍّ!

توفيق المرأة بين عملها الأسريّ والمجتمعيّ:

تجاهلتُ هذه النظرة، وعلقتُ قائلةً:

– ما تقوله صحيح، والأطفال بحاجةٍ إلى أمهاتهم من عمر الشهر إلى ثلاث سنوات تمام الحاجة، ولكن ما قولك بعمل الأم بعد دخول أطفالها إلى المدرسة، وأثناء فترة غيابهم؟

طبعاً لم يجد صاحبنا جواباً..

أردفتُ قائلة: أنا أؤيد مكوث الأم مع أطفالها في السنوات الأولى من عمرهم، إلا إذا كانت بحاجةٍ ماسّة للعمل، ولا شك أن عملها قبل أن يتجاوز أطفالها هذا السِّن، سوف يكون له تأثيرٌ سلبيٌ عليهم، ولكن ربما تكون سلبياتُ عدم عملها أكثر، فتنطبق عليها هنا القاعدة الفقهية التي تقول: (يُرتكب أهونُ الضررين)..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أقول: إنّ هذه حالاتٌ خاصةٌ لا يجوز تعميمها، والقاعدة العامة في هذا هي: جواز عمل المرأة إذا استطاعت التوفيق بين مهامّها المنزلية وبين عملها.

لا دليل على تحريم عمل المرأة خارج منزلها:

امتعض وجه محدّثي، وأصرّ أن يرجع القهقرى إلى نقطةٍ سبق أن ناقشناها فقال: ولكن ما الدليل الشرعي على ذلك؟

أجبتـه: قلـتُ لـك إن مسـألة عمل المـرأة أو عـدم عملها ليسـت فرضـاً دينياً، بـل هـي مسـألةٌ اجتماعيـةٌ، يسـتنبط العلـماء حكمهـا الشرعي بنـاءً عـلى مقتضيات الواقـع والظروف الأسريـة وظروف العمـل ومكانه، ومن حيث المبـدأ: الأصل في الأمـور أنهـا مباحـةٌ إلا إذا ورد نـصٌّ يحرِّمها، وطالمـا أنه لم يرد نُـص شرعي صحيح يـدل عـلى تحريـم أمرٍ مـا، فلا حرمـة فيـه! ويكفي دليـلاً على جـواز عمل المـرأة أن النبـي ﷺ رأى نسـاءً عامـلاتٍ (أو سـئل عن ذلـك) فلم ينكـر عليهن، بـل كان في بعـض الأحيـان يشـجعهنّ على العمـل، ولقد أثنى عـلى زوجته زينـب بنت جحش فقـال لنسـائه: (**أسرعكـنَّ لحوقـاً بي أطولكـن يـداً**)[1]. أي أكثركنَّ صدقـةً، وكانتْ زينـب تعمـل بيدهـا فتدبـغ الجلـود وتخرزها، ثـم تبيعهـا وتتصـدق بما اكتسـبته في سبيل الله..

سلبيات عمل المرأة:

لم يقتنـع محدثي بـما ذكرتُه، وراح يبحث عـن اسـتطراداتٍ واعتراضاتٍ، فقال: ولكـنّ عمـل المرأة خـارج منزلها يـؤدي إلى سـلبياتٍ كثـيرة، منها إهمالهـا لأولادها ومسـؤولياتها الأسريـة، ومنهـا زيـادة الإرهـاق والتعب الجسـدي والنفسـي، لأنها سـتعمل خارج المنـزل وداخله.

قاطعته قائلة: هذه السلبيات اتفقنا على إيجاد حول لها..

صمت قليلاً، ثم انبرى يقول بزهو المنتصر:

- مـا رأيـك بالفسـق والفجور الـذي نراه اليـوم، والـذي يعود سـببه الأول والأخـير إلى خـروج المـرأة إلى العمـل سـافرةً متبرجـة..

قلتُ له: أنت تناقض نفسك من حيث لا تدري..

سألني مستغرباً: كيف؟!

---

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح (1420).

قلت: تريد منع المرأة من العمل بسبب هذه السلبيات، التي قد يؤدي إليها عملها، رغم أن السلبيات هي أمورٌ خارجةٌ عن العمل، وليست هي من جوهر العمل! نحن نتكلم عن عمل المرأة، وعمل المرأة له ضوابط وقواعد، تضمن أن لا يؤدي إلى حدوث السلبيات والأخطاء! والعمل شيء، وعدم تأمين الجو المنضبط للعمل شيءٌ آخر!

فخروج المرأة سافرةً متبرجةً ليست من مستلزمات عملها خارج منزلها، بل هي خروجٌ عما أمر به الله تعالى، سواء كانت هذه المرأة تعمل أم لا تعمل!

شروط عمل المرأة:

عندما ننادي بعمل المرأة، فإن لذلك شروطاً لا بدّ للمرأة من أن تلتزم بها، وعلى رأس هذه الشروط: أن تؤدي عملها في وقار وحشمة، ملتزمةً باللباس الشرعي، متجنّبةً للابتذال ومواطن الريبة والانزلاق..

فالزيّ الشرعي المحتشم، واجتناب العطر والطيب، والجدّية في التخاطب مع الرجال، الزملاءِ والمراجعين أو الزبائن، والوقارُ في الحركة، وعدمُ الميوعة، وعدم الخلوة بالرجال في أماكن العمل، كل هذا من شروط عمل المرأة خارج منزلها.

لقاء المرأة بالرجال:

قال محدّثي: وحتى لو التزمت المرأة العاملة بهذه الشروط، فإنها سوف ترتكب محرماً حين تلاقي الرجال في مجال عملها وتتحدث معهم..

قلت: ومن قال لك إنَّ لقاء المرأة بالرجال وحديثها معهم في إطار العمل ومتطلباته محرّم؟!

سألني مستنكراً: كيف لا يكون ذلك محرماً، والله تعالى يقول: ﴿ ج ڃ ڄ ڄ چ چ ڇ ڇ ﴾[1] ويقول: ﴿ ۋ ۆ ۆ ۈ ۈ ې ې ﴾[2]؟!

(1) سورة الأحزاب: الآية: (33).

(2) سورة الأحزاب: الآية: (53).

أجبتـه: الآيتـان اللتـان تستشـهد بهما من سـورة الأحـزاب، وردتـا بخصوص نسـاء النبـي ﷺ، وسـياقُ الآيات يـدل على هذا، فالله تعـالى يقـول: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ﴾[1].

هـذا من جهة، ثـم إنَّ في صحيحَـي الإمامين البخـاري ومسـلم وحدهما قرابة 300 واقعـةً تـدل عـلى إمكانية لقاء النسـاء بالرجـال ضمن الضوابـط الشرعية، في المسـجد وفي السـوق وفي الجهاد وفي العمل...

بـل إن القـرآن الكريـم يذكـر لنـا أمثلةً عن لقـاء النسـاء بالرجـال، تصلح لأن تكـون نموذجـاً لكيفيـة هذا اللقـاء المنضبط المحتشـم.

مـن هـذه الأمثلـة قصـة موسـى عليـه السـلام في لقائـه للفتاتـين في مديـن، إذ يقـول الله تعـالى: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ﴾[2].

عمل المرأة بما يتوافق مع طبيعتها:

سكت محدّثي هنيهةً، وكأنه يستجمع أفكاره، ثم قال بلهجة استنكارية:

– ألا ترين أن هنـاك مـن الأعمال مـا لا يتوافق مع نفسـية المـرأة العاطفية، ولا مـع بنيتها الجسـدية الرقيقة؟!

أجبتـه: بـلى، أنا أوافقـك على هذا، ولذلـك فإن من ضمـن شروط عمل المرأة، أن تعمـل بـما يتوافـق مـع طبيعتها النفسـية والجسـدية، فكل مـا يرهقهـا ويلحق بها الأذى نفسـياً وجسـدياً، يكون عمـلاً مكروهاً شرعاً.

ولقـد أيـدت منظمـة العمـل الدوليـة هذا الهـديَ الشرعـي الحنيـف، وأكدت عـلى ضرورة توفـير ظـروف عمـل إنسـانيةٍ متوافقـةٍ مـع طبيعـة المـرأة، كـما أكدت عـلى حظـر العمل الليـلي للنسـاء في المؤسسـات الصناعية، بسـبب مـا يحتاجه ذلك العمـل مـن جهـدٍ أكـبر، وبسـبب مـا تتعـرض إليه المـرأة مـن مخاطر..

---

(1) سورة الأحزاب: الآيتان: (32ـ33).

(2) سورة القصص: الآيتان: (23ـ24).

معالجة سلبيات عمل المرأة:

أصرّ محدثي على موقفه قائلاً: مازلتُ أرى أن عمل المرأة محرمٌ بسبب هذه السلبيات التي يؤدي إليها..

قلت: وجود بعض السلبيات التي ذكرتَها، لا ينبغي أن يوصلنا إلى تحريم عمل المرأة، وإلا كنا كمن يعالج رمَد العين باقتلاعها.

لا بدّ من البحث عن طرقٍ وحلولٍ مفيدةٍ تتلافى السلبيّات، وتجعل عمل المرأة أمراً نافعاً وسليماً على جميع الأصعدة..

من هذه الطرق أن يكون عملها في أوقات غياب أطفالها وزوجها عن المنزل، وأن لا تحمّل نفسها فوق طاقتها، وأن تحرص على تفريغ بعض الوقت للعناية بأطفالها والجلوس معهم ومسامرتهم من أجل الوصول إلى قلوبهم وعقولهم..

النفقة واجبة على الزوج:

قال محدثي: ولكن ما رأيك بأن من النساء من تدّعي أنها تعمل من أجل معونة الأسرة ودعمها مادياً، ولكنها بعد ذلك تحجب راتبها لنفسها، ولا تنفق منه قرشاً واحداً على مصلحة الأسرة!

أجبته: الأصل في الشرع أنّ نفقة الزوجة على زوجها، حتى ولو كانت غنية أو عاملة.

والمرأة المسلمة غير مضطرة إلى العمل لتعيل نفسها، بل إن زوجها أو أباها – إن لم تكن متزوجة – مكلّفان بالإنفاق عليها، وهذا يعني أن لها حرية اختيار أن تعمل أو لا تعمل، بناءً على ما يناسبها ويناسب أسرتها.. وهذه ميزة هامة تتفوّق فيها المرأة المسلمة في بلادنا على المرأة في البلاد الغربية، فالمرأة في الغرب (رغم كل ما يقال عن حريتها وحقوقها)، مجبرةٌ على العمل، إذ ليس هناك قانون يجبر أحداً من أوليائها بالنفقة عليها، ومكوثُها في بيتها يعني الموت جوعاً وفاقة..

مشاركة الزوجة بالإنفاق على أسرتها:

ولكن، رغم أن الزوجة الغنية أو العاملة غير مكلفةٍ بالإنفاق على أسرتها في الإسلام، إلا أن الإسلام يندبها إلى ذلك، ويجعل لها في ذلك أجرين: أجر صلة الرحم، وأجر التصدق في سبيل الله، فقد ورد في هذا أن زينب زوجة ابن مسعود رضي الله عنهما كانت امرأة صَناعاً، أي ذات صنعة، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم يوماً تسأله: يا رسول الله، إني امرأةٌ ذات صنعةٍ أبيع منها، وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي نفقةٌ غيرها، وقد شغلوني عن الصدقة فما أستطيع أن أتصدق بشيء، فهل لي من أجر فيما أنفقت؟! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أنفقي عليهم، فإن لكِ في ذلك أجرَ ما أنفقت عليهم**).[1] وفي رواية: (**لها أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة**).

وأنا أعرف كثيراً من النساء، تعمل إحداهنّ وتتعاون هي وزوجها في الإنفاق على متطلبات الأسرة والأولاد، ولا تبقي من راتبها شيئاً تخّص به نفسها..

وأعرف بالمقابل نساءً يعملن ويدَّخرن ما يحصلن عليه لأنفسهن، رغم حاجة أزواجهنّ إلى المعونة..

ولا يحتاج الأمر إلى كثير تمعّنٍ في النتائج المترتبة على الموقفين..

الموقف الأول: الزوجة عضدٌ ومعينٌ لزوجها وأسرتها، سعادتها من سعادة أسرتها، وهناؤها من هنائهم..

الموقف الثاني: أنانيةٌ مطلقةٌ من الزوجة، تعود عليها أولاً وعلى أسرتها ثانياً بالشقاء والعناء..

---

(1) رواه أحمد بن حنبل، رقم (15656). وإسناده صحيح.

رفض الزوج عمل زوجته:

استطرد محدثي قائلاً:

– ولكنّ الزوج يكون في بعض الأحيان غنيّاً، ولا يحتاج إلى معونة زوجته، فيمنعها من العمل، ومع ذلك تحزن الزوجة، وتعتبر رفض زوجها لعملها تعنّتاً وتعسفاً واستبداداً!

قلت: قد يكون الهدف من عمل المرأة دعم الزوج ومعونته، وقد يكون غير ذلك!

فحاجة المرأة إلى العمل، لا تنحصر في الحاجة المادية، وكثيراً ما تكون الحاجة نفسيةً واجتماعيةً لا مادية.

تحقيق المرأة لذاتها، وشعورها بأنها عضوٌ فعَّالٌ في المجتمع، يكون في كثيرٍ من الأحيان عن طريق قيامها بأعمال مجتمعية نافعة..

وقد تكون هذه الأعمال مأجورةً أو تطوّعية..

والمهم بالنسبة لها أن تعمل، وأن تشعر أنها معطاءةٌ بنَّاءة، وليست عبئاً على الآخرين..

والمشكلة أن كثيراً من الأزواج لا يقدّرون هذه الحاجة النفسية، ويقيسون الأمور بمنظارٍ مادّي، الأمر الذي يسّبب استياء الزوجة واتهامها للزوج بالتعسف والاستبداد، وهذا بدوره يحدث شرخاً في العلاقة الزوجية بينهما..

لو نظر الزوج بعينيّ زوجته وفكّر بعقلها لما استبدّ وتعسّف..

ولو نظرت الزوجة بعينيّ زوجها وفكّرت بعقله، لبحثت عن حلولٍ عمليةٍ، تمكّنها من التوفيق بين متطلبات الزوج ومتطلبات الروح والنفس والعقل..

وقد تحقّق المرأة ذاتها من خلال القيام بأعمالٍ خيريةٍ تطوعيّة: محو الأمية.. أو رفع السويّة الثقافية.. أو المساهمة في إصلاح ذات البين.. أو من خلال المساندة

الاجتماعيـة والنفسـية، لمـن يحتاج إليهـا في المجتمع، وذلك في سـاعاتٍ أسـبوعية أو يوميـة يتفق عليهـا الزوجان..

وقـد يكـون بممارسـة هواياتٍ في المنزل، كالرسـم عـلى الحريـر أو صناعة تحفٍ يدويـةٍ أو غـير ذلـك مـن الأمـور الكثـيرة جـداً، والتـي تلبي حاجـة المـرأة للعمل ومـلءِ الفراغ وتحقيق الـذات، ولا تتعارض مع رغبات الـزوج أو مصلحة الأسرة.

انتهـى الحديـث بيني وبين محدّثـي بعد أن علمـتُ أن العلاقة بينـه وبين زوجته سـيّئة، بسـبب رفضه لعملها خـارج المنزل، وإصرارهـا على العمل بعـد أن تجرّعت آلام الوحـدة إثر زواج أولادها وسـفرهم إلى الخارج...

التقيـتُ بـه بعد شـهورٍ مـن تلـك الحادثـة، وللأسـف كان وضعه مـع زوجته عـلى حالـه! لم يتغير!

مـا يـزال متعنّتـاً مسـتبدّاً برأيه، ومـا تزال زوجتـه تجـترّ آلام الوحدة القاسـية، وتحـاول أن تفتـح ثقبـاً في ذلـك الجـدار الأصمّ!

قرارات المجمع الفقهي بخصوص عمل المرأة:

أحـبّ هنـا أن أذكر للإخوة القـرّاء قرارات المجمـع الفقهي المنبثـق عن منظمة المؤتمر الإسـلامي في دورته السادسـة عـشرة لعام 2005م بخصـوص عمل المرأة:

1- يجـوز للزوجـة أن تشـترط في عقـد الـزواج أن تعمـل خـارج البيـت، فإن رضي الـزوج بذلـك ألـزم به.

2- يجـوز للـزوج أن يطلـب مـن زوجتـه ترك العمـل بعـد أن أذن بـه، إذا كان الـترك في مصلحـة الأسرة والأولاد.

3- لا يجـوز للـزوج شرعـاً أن يربـط إذنـه لزوجتـه بالعمـل خـارج البيت بأن تشـترك معـه في النفقـات الواجبـة عليه ابتـداء، كما لا يجوز لـه أن يشـترط عليها أن تعطيـه جزءاً مـن راتبها وكسـبها.

4- تطوّع الزوجة بالمشاركة في نفقات الأسرة أمر مندوب إليه شرعاً.

5- يجوز أن يتمّ التفاهم بين الزوجين واتفاقهما الرضائي على مصير الراتب أو الأجر الذي تكسبه الزوجة.

6- إذا ترتّب على خروج الزوجة إلى العمل نفقات إضافية تخصّها، فإنها تتحمّل تلك النفقات.

7- ليس للزوج أن يجبر الزوجة على العمل خارج البيت.

8- إذا أسهمت الزوجة فعلياً من مالها أو من كسب عملها في تملّك مسكن أو عقار أو مشروع تجاري، فإن لها الحق في الاشتراك في الملكية بنسبة المال الذي أسهمت به.

9- لا يجوز للزوج أن يسيء استعمال الحق بمنع زوجته من العمل أو مطالبتها بتركه إذا كان بقصد الإضرار، إلا إذا ترتّب على عملها مفسدة وضرر يربو على المصلحة المرجوّة منه. وينطبق هذا على الزوجة إذا قصدت من البقاء في عملها الإضرار بالزوج أو الأسرة، أو ترتّب على عملها ضرر يربو على المصلحة المرجوّة منه.

تطوّر حال المرأة:

تشير المؤشّرات الاقتصادية اليوم إلى تطور ملموس في مشاركة المرأة العربية في النشاط الاقتصادي، بعد أن انقطعت عن ذلك قروناً طويلة..

وقد ترافق هذا مع ارتفاع معّدل تعليم الإناث، لأن العمل بحاجة إلى علم، ولوحظ أن هناك تراجعاً ملحوظاً لنسب الأمية عند النساء، وبتنا نرى المرأة وقد وصلت إلى أعلى المراتب، فهي اليوم مهندسةٌ وعالمةٌ وإعلاميةٌ ووزيرةٌ ومديرةٌ ونائبةٌ لرئيس الجمهورية، بل ورئيسة للوزراء أو للجمهورية في بعض البلاد الإسلامية، وتخوض شتى مجالات العمل: الهندسة.. التعليم.. التطبيب.. المحاماة.. القضاء.. التجارة.. الصناعة.. الزراعة.. وبتنا نسمع عن سيدات الأعمال، كما كنّا نسمع عن رجال الأعمال..

ولكـن، مـا يـزال هنـاك نقـصٌ كمـيٌّ ونوعـيّ.. ومـا نـزال نرتقـب المزيد من التطـور عـلى جميـع الأصعدة..

المرأة المفتية:

نسـمع اليـوم صيحـاتٍ في العـالم الإسـلامي، تنـادي بـضرورة وجـود امـرأةٍ مفتيـةٍ متخصصـة في فقـه النسـاء، تمامـاً كـما نجـد المفـاتي مـن الرجـال..

لكـن البعـض من المتشـددين يسـتنكر ذلـك، ويقـول: الفتـوى والاجتهاد هو مـن نصيـب الرجـل وحـده، والمـرأة مأمـورة بالتـزام بيتهـا وتربيـة أولادهـا، ولا نصيـب لهـا في الاجتهـاد والفتوى!!

والحـق أن هـذا الـكلام غير صحيـح.. فالاجتهاد ليـس حكراً عـلى الرجال، وكل مـن يملـك أدوات الاجتهـاد يحق لـه أن يخوض في هـذا المجال ذكـراً كان أم أنثى.

كـما أن المفتـي الرجـل لا يغنـي عن المـرأة المفتيـة، لأن الأمور النسـائية لا تحيط بجوانبهـا إلا امـرأة، هـذا فضـلاً عـن بعـض الملابسـات التـي تخجـل المـرأة مـن شرحهـا أمـام الرجال.

أدهشـتني إحـدى معارفي، وهـي حائزة عـلى إجـازةٍ جامعيةٍ منذ ثلاثين سـنة، عندمـا كنـت أخبرها عـن إمكانية أن تكـون المرأة في الإسـلام مجتهدة فقيهـة مفتية، ففتحـت فمها مسـتغربة مسـتنكرة، وقالـت لي: أمتأكدة أنت من هـذه المعلومات؟!

ومثـل صاحبتـي هـذه الكثـير مـن النسـاء اللـواتي تاهـت عليهـنّ الأمـور، واختلـط فيهـا الحابـل بالنابل، والتبسـت فيهـا العـادات والتقاليد بالديـن، وغابت الحقيقـة عـن الأعـين..

مفتيات في التاريخ الإسلامي:

مـن يفتح كتـب التاريخ الإسـلامي ويـدرس حوادثهـا، يعلم كيف كان شـأن المـرأة في الإسـلام، فكثـير مـن علمائنـا الأفاضـل في الفقـه والحديـث والقـراءات،

كان من ضمن مشايخهم نساءٌ عالمات، كالإمام الحافظ المنذري مثلاً، إذ عدّ من ضمن مشايخه عشرين شيخة، والإمام العّلامة ابن قيم الجوزية، الذي عدّ اثنتي عشرة شيخةً من شيوخه.

وكان هؤلاء الأفاضل يقولون: حدثتني الشيخة فلانة، وأخبرتني الشيخة فلانة، ولم يكونوا يرون غضاضة في أن يأخذوا العلوم الشرعية من امرأة.

كانت أول مفتيةٍ وفقيهةٍ في الإسلام هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فقد روت عن النبي صلى الله عليه وسلم 2210 حديثاً، وقال فيها الإمام الحاكم: حُمِلَ عنها ربع الشريعة، وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله أمرٌ، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

كل هذا كان في ظل التزامها رضي الله عنها بأوامر الشريعة وآدابها، ولكن أيضاً في ظل فهمها لضرورة أن تقوم بدورها في بناء المجتمع والإحسان إليه.

لقد كانت أمّ المؤمنين عائشة قدوةً لنساء عصرها، فكان كثير من التابعيات يتتلمذن على يديها، وينطلقن بعد ذلك معلِّماتٍ وفقيهاتٍ يُفتين الرجال والنساء. منهن حفصة بنت سيرين وفاطمة بنت المنذر وعمرة بنت عبد الرحمن وأم الدرداء الصغرى (هجيمة الوصّابية) زوجة الصحابي أبي الدرداء، الفقيهة المحدثة، التي كانت تعلِّم الفقه والحديث في المسجد الأموي بدمشق، وكان يجلس في حلقتها لتعلِّم الفقه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكان من ضمن تلامذتها، رجاء بن حيوة، معلم الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز.

وظلّت المرأة على هذا الحال من التفقه في الدين والتعليم والإفتاء بعد عصر التابعيات، فكنا نسمع بـ «نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي» رضي الله عنهم، القارئة المحدثة، والتي يروى أن الإمام الشافعي حضر مجلسها، وسمع عليها الحديث.

ونسمع كذلك بـ «أمة الواحد بن الحسين بن إسماعيل المحاملي"، وهي محدثة ومفتية وفقيهة في المذهب الشافعي، وكانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة.

كذلك نسمع ب "فاطمة بنت محمد السمرقندي" (في القرن السادس الهجري)، زوجة الكاساني مؤلف كتاب البدائع في الفقه الحنفي، فكانت أيضاً فقيهة ومحدّثة، وأخذت العلم عن جملة من الفقهاء، وأخذ عنها كثيرون، وتصدّرت للتدريس، وألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، وكان الملك العادل نور الدين الشهيد يستشيرها في بعض أموره الداخلية والمسائل الفقهية.

وها هي "فاطمة بنت محمد بن مكي العاملي الجزيني" (في القرن الثامن الهجري)، وكانت تلقَّب في عصرها بـ (ست المشايخ)، وقد تصدرت لإفتاء النساء في الأمور التي تخصهنّ.

العدّ التنازلي:

ماذا حدث للنساء بعد ذلك؟! وأين هي المرأة العالمة الفقيهة والمفتية والمجتهدة؟!

الواقع أنه بعد القرن الثامن الهجري بدأ العدّ التنازلي، الذي لم تقتصر آثاره السيئة والضارّة على المرأة وحدها، بل عمّت المسلمين بكل أوضاعهم وفي كل شؤونهم، ولكنّه طال أكثر ما طال المرأة..

وبدأ كثيرٌ من الفقهاء والعلماء يرون حرمة تعلم المرأة، وحرمة خروجها من بيتها إلا مرتين: من بيت والدها إلى بيت زوجها، ومن بيت زوجها إلى قبرها.

واعتمد بعض الفقهاء على حديث موضوع يقول: (لا تعلِّموا المرأة القراءة والكتابة)، حتى لا تتخذ ذلك سبيلاً إلى كتابة الرَّسائل الغرامية.

وظلّ مثل هذا التفكير المتخلّف سيفاً سليطاً على رقبة المرأة حتى بداية القرن العشرين، حين بدأ العلماء المتنوّرون يأخذون قضية المرأة على عاتقهم، في محاولة جادة لرفع الظلم عنها وعن روح الدين وجوهره، والرجوع بها إلى منابع الدين وأصوله.

طبعاً لم تكن تلك المهمة سهلة، ولن تكون أبداً، فما تحّرف عبر قرونٍ طويلة، لا يمكن تغييره بين عشية وضحاها، ولا بدّ لذلك من عملٍ دؤوب، تتعاون فيه كل الأيدي الخيّرة العاقلة الواعية الملتزمة، في تصميمٍ وإصرارٍ وإخلاص.

وهذا واجب كل مخلصٍ غيورٍ على دين الله تعالى، وما علينا سوى أن نبذل في سبيل ذلك كل ما نستطيعه من جهد، وكلنا أملٌ ورجاءٌ أن نساهم في نهضة المرأة وإزالة المعوقات التي تقف حائلاً دون تقدمها ومشاركتها في مسيرة الإصلاح والبناء..

* * *

ماذا لو لم تستطع المرأة أن تغيّر الواقع الذكوريّ الاستبداديّ؟

ماذا لو أنها ابتليت بزوج لا يعرف من الدنيا سوى كلمة (هاتي)، وليس في قاموسه كلمة (خذي)، إلا إذا كان يستطيع من ورائها تحقيق مكسب من المكاسب التي يطمح إليها؟

هل الطلاق هو الحلّ؟ أم أن آخر الدواء الكيّ؟

تابعوا بحثنا القادم: الطلاق.. أبغض الحلال إلى الله.

الطلاقُ
أبغضُ الحلالِ
إلى اللّٰه

ذهب المريض إلى طبيب العيون، وهو يشتكي من رمدٍ بعينيه. فحص الطبيب عينيّ المريض، ثم هزّ رأسه بيأسٍ وقال:
- أنا آسف يا سيد... عيناك بحاجة إلى استئصال!!

بكى المريض وتبكبك.. تلكّأ وتردّد.. ولكنه في النهاية استجاب لرأي الطبيب، وذهب إلى المشفى في الموعد المحدد لإجراء العملية، دون أن يستشير طبيباً آخر، ودون أن يجرب طرقاً أخرى للعلاج.. وقلع عينيه!

ما رأيكم بهذه القصة؟!

من المؤكد أن أغلبكم يقول: إنها قصةٌ خرافيةٌ غير حقيقية، إذ لن يفرّط أحدٌ بعينيه مهما وصلت درجة غبائه، إلا بعد أن تعجز جميع الوسائل العلاجية عن شفائها.

وأنا بدوري أقول: نعم، هذه قصة غير واقعية، ولا يمكن أن تحدث، لأنها تتعلق بعضو مهم من أعضاء الجسم، يؤدي فقده إلى إربكاك المرء وشعوره بالنقص والعجز.

و لكن.. ما رأيكم أن أمثال هذه القصة تتكرر كل يوم آلاف المرات، ولكنها هذه المرة مع عضو من أعضاء الأسرة، وليس مع عضوٍ من أعضاء الجسم؟!

كثيراً ما يختلف الزوجان، فيهرعان إلى الطلاق دون أن يجربا الوسائل المختلفة التي قد تساعدهما على التقارب، ودون أن يستشيرا أرباب العلم والاختصاص لمساعدتهما في حل المشاكل المعقدة..

ورغم أن كل الناس يتفقون على أن الطلاق هو هادم البيوت، ومنغّص المسرّات، ومفكّك الأُسر، إلا أننا نرى بعض الأسر تفعله، وتقع فيه وتخضع له طوعاً أو كرهاً، وذلك في جميع دول العالم دون استثناء..

فهل الطلاق داءٌ أم دواء؟! ومتى يكون داءً ومتى يكون دواءً؟!

* * *

تزايد نسب الطلاق:

من الملاحظ اليوم أنّ نسب الطلاق في تزايد ملحوظ عما كانت عليه في الماضي، فقد كان أجدادنا ينظرون إليه باشمئزاز، وكانت المرأة عندما تواجه مشاكل مستفحلة في حياتها الزوجية، تكافح وتناضل، تتحمّل وتقاسي، ولا تلجأ إلى الطلاق، ولسان حالها وحال أهلها يقول: المنيَّة ولا الدنيَّة.. النار ولا العار!

طبعاً هذه نظرة متطرفة، فلقد أحلَّ الله تعالى الطلاق عند الضرورة، وما أحله الله تعالى لا يحرّمه إنسان، ولكننا نلاحظ اليوم نوعاً من التهاون بالطلاق واستسهاله، وعلى النقيض من الحالة الأولى، حالة أجدادنا وجداتنا.

تتزوج الفتاة اليوم.. تواجهها بعض المشاكل.. فتلملم أغراضها وتعود أدراجها إلى بيت أهلها!

وهنا، ماذا يفعل الأهل؟!

يوافقون ابنتهم على مكوثها عندهم، وتطبطب الأم على كتف ابنتها مواسية وهي تقول: لا تخافي يا حبيبتي... ابقي عندنا حتى يفهم هذا الغبي من أنتِ ومن وراءك!

ربما يأتي اليوم الذي يفهم فيه الزوج من هي زوجته (حسب تعبير أمها)، فيأتي إليها وإلى أهلها معتذراً، ويصحبها إلى بيتها مرفوعة الرأس شامخة الجبين، وربما لا يأتي ذلك اليوم، فتبقى المسكينة في بيت أهلها تعدّ الليالي والأيام، تنتظر وتنتظر، حتى تفاجأ بمن يطرق عليها باب بيت أهلها ليناولها ورقة طلاقها!

أقول: حتى لو ندم الزوج وأعاد زوجته إلى بيتها، فإن المشاكل لا تنتهي عند ذاك، بل غالباً ما تشتعل من جديد، ويتكرر المـوّال..

وأمام المشاكل المستمرة يختار الزوجان أو أحدهما الطلاق، وتنتهي تلك العلاقة المقدسة التي سماها الله تعالى في القرآن الكريم بالميثاق الغليظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1]، **فهل الطلاق هو الحلّ الوحيد لما في الحياة الزوجية من مشاكل وإشكالات؟!**

أبغض الحلال إلى الله الطلاق:

أغلبنا يعرف حديث النبي ﷺ: (**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**)[2]. وعلى الرغم من ضعف سند هذا الحديث، إلا أن معناه صحيح، وقد تلقاه العلماء بالقبول وعملوا به، فالطلاق ليس دائماً هو الحل الصحيح للمشاكل الزوجية، **وكثيراً ما تكون الحلول الصحيحة بسيطةً وسهلةً ومتوفرة بين يدي الزوجين، ولكنهما يعميان عن رؤيتها.**

قصص واقعية:

لا شك أنّ بجعبة كل منكم قصصاً عن مشاكل زوجية عولج بعضها بالطلاق وبعضها بغير الطلاق..

وقد اخترت لكم من جعبتي هاتين القصتين.

القصة الأولى لزوجة اسمها سهاد، ابتلاها الله تعالى بزوج متسلط، يريدها أن تطيع الأوامر دون نقاش، وإن حدث أن خالفت له أمراً أو فعلت ما لا يروق له ويعجبه، فمصيرها سيكون قاسياً: خصومةٌ وهجرانٌ لعدة أيام وربما لعدّة

(1) سورة النساء: الآية: (21).

(2) رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما، في كتاب: الطلاق، باب: في كراهية الطلاق (2178).

أسابيع! وكثيراً ما كانت سهاد تأتي إليه معتذرة رغم قناعتها أنها لم ترتكب خطأ، ولكنه كان يرفض مصالحتها، ويصرخ في وجهها مذكراً إياها بمبدئه في الحياة: لا تغلط ولا تعتذر!

إثر مشكلة تافهة طردها ذات مرة من المنزل..

لملمت سهاد أغراضها وغادرت المنزل بعد أن ودّعت ولديها ودموعها تسبح على خديها.

بكى الولدان وصاح أصغرهما: ماما.. لا تتركينا، نحن نحبك كثيراً.. لا نستطيع العيش بدونك!

لم تكن سهاد ترغب بمفارقة بيتها وأولادها، ولكن كما يقال: **مُكرهٌ أخاك لا بطل.**

ركبت سهاد سيارتها، وأخذت تجوب شوارع البلدة، وهي تجهش بالبكاء. قفز إلى ذهنها الطلاق، فتمتمت بصوت مجروح: نعم.. الطلاق.. هو الحل!

لكنَّ قشعريرةً رهيبةً اعترتها عندما تذكرت أولادها.. ماذا سيكون مصيرهم؟!

بدأت تفكر في الموضوع بشكلٍ عقلاني وتسأل نفسها:

أتراني سأكون أحسن حالاً إن تركتُ بيتي وأولادي؟! ها أنذا أعيش بين ظهرانيهم، أقبّلهم وأمتّع نظري وفؤادي وكياني برؤيتهم ومحبتهم واحتضانهم، فكيف أحرم نفسي من هذه النعمة العظيمة؟!

وحتى ولو حصلت عليهم بقوة القانون ليعيشوا معي، ماذا سيكون حالهم وهم مشتتون عند أمهم تارة وعند أبيهم أخرى؟! وهل العيش في بيت الأخ أو الجد أو العم والخال يحفظ كرامتي وكرامتهم؟! **ثم.. هل زوجي سيئٌ حقاً لأتركه وأفارقَ الحياة معه؟!**

وتجسّمت أمام عينيها السنوات التي جمعت بينها وبين زوجها.. حقاً إنها سنواتٌ صعبة مملوءة بالمشاكل والمصاعب، ولكنها سنواتٌ يتخللها الكثير الكثير من المشاعر الجميلة والذكريات الرائعة.

وبدأت سهاد تسترجع بعض الصور الجميلة لحياتها مع زوجها..

تذكرت الحب الذي يجمع بين قلبيهما، وشعرت بغصّة كبيرة، فهي تحبه! صحيح أن حبها له كان أعمق وأمتن، وأنه اليوم اضمحلّ وصغر، ولكن ذلك ليس إلا بسبب المشاكل التي عكّرت الحب وأذهبت لونه..

تذكرت شهر العسل وأيامه الجميلة، **وراحت تسترجع بعض الصفات الحسنة والجيدة التي يتمتع بها زوجها**، والتي نسيتها بسبب تصرفاته القاسية وطباعه الغريبة:

إنه لا يمد يده إلى مالٍ حرام.. متدين ملتزمٌ بالصلاة والصيام.. لا يؤذي أحداً.. لا ينظر إلى غيري من النساء.. لا يعاشر بالحرام.. يُطلق يدي في أمور المنزل.. يعطيني حريتي كاملة في أن أفعل ما أشاء وأذهب إلى المكان الذي أريد وفي الوقت الذي أرغب..

كم هي كبيرة وعظيمة مزايا زوجي.. ألا تستحق كل هذه المزايا أن أغض الطرف عن شيء من المنغّصات؟!

شعرت سهاد ببرودة الإيمان تتسلل إلى قلبها المحترق، فتطفئ لوعته وتمنحه السكينة والثبات، وراحت تتلو بخشوع قوله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[1]

أشرق وجهها وتهلّلت عيناها، وهي ترفع يديها بالدعاء قائلة: اللهم اجعلني من الصابرين، وارزقني ثوابهم.

وانعطفت بسيارتها عائدةً مسرعة إلى بيتها وزوجها وأولادها وهي تقول:

---

(1) سورة البقرة الآية: (155ـ157).

جئتكم يا أحبائي، ولن أفارقكم بعد اليوم بإذن الله.. مهما حدث ومهما كان.. سأحاول أن أعالج مشاكلي وأجد لها الدواء الناجح، وحتى لو لم أجد الدواء، فيكفيني فخراً أني سأكون من الصابرين، وسأنال ثوابهم بإذن الله تعالى.

* * *

أما قصتنا الثانية فتشترك مع هذه القصة في البداية فقط: مشاكل صغيرة أشعلت على الزوجين هالة وزياد عشّهما بالغضب والنكد!

لم تستطع هالة التحمّل، فطلبت الطلاق وأصرّت عليه.

وافق الزوج المغضب، ورمى الطلاق ثلاثاً..

ذهبت هالة إلى بيت أهلها، وبقي الأولاد مع أبيهم زياد، وهم يشعرون بشرخٍ كبيرٍ أصاب حياتهم ومستقبلهم.

بعد سنوات من المعاناة تزوج زياد واستقرّت حاله نسبياً، واستطاعت زوجته الجديدة أن تستوعب أولاده وتحتويهم، ولكنهم مع ذلك مازالوا يشعرون بالشرخ الكبير يهدد أمنهم الداخلي واستقرارهم النفسي..

فأمهم هي أمهم، ولن تستطيع امرأة في الدنيا أن تحتلّ مكانها وتقوم بدورها..

أما الزوجة المطلقة هالة، فلم يكن حالها في بيت أهلها أفضل مما كان عليه في بيت زوجها، فمشاكل الحياة لا تنتهي: نظرة الناس إليها.. تدخّل إخوتها في أمورها الشخصّية.. افتقادها وحنينها لأولادها.. كل هذا كان يقضّ مضجعها ويؤلمها ويجعلها تشعر بالندم..

ولكن: هل يفيد الآن الندم؟!

طبعاً لا يفيد..

أخر الدواء الكيّ:

طُرق العلاج لا تنحصر بالطلاق، والمفترض أن يكون الطلاق آخر الحلول، تماماً كما قيل: **آخر الدواء الكيّ**.

المنطق السليم يحتّم على المرء أن يجرب كل الطرق لعلاج المشاكل الزوجية قبل أن يفكر بالطلاق.. وهذا ما نصح به الشرع الزوجين حين دلّهما على وسائل واقعية عملية تردع الناشز من الزوجين، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾[1].

والنشوز هنا يعني ترفّع المرأة على زوجها وعصيانها له وتمرّدها عليه، وعندها عليه أن يلجأ إلى إصلاحها بالنصيحة والموعظة الحسنة، فإن لم يفد معها النصح هجرها في المضجع، ولنلاحظ هنا: هَجَرَها في المضجع وليس عن المضجع، أي أن الله تعالى أمر الزوج أن يدير ظهره لزوجته، وهما نائمان في مضجعهما إشعاراً لها بانزعاجه، عساها تبادر للصلح مستعينةً بأنوثتها، فتعود المياه إلى مجاريها.

فإن لم ترجع المرأة عن غيّها، واستمرت في عنادها وتكبّرها، أجاز الشرع للزوج أن يضربها ضرباً خفيفاً غير مبرّح، عسى أن يعيدها الضرب الخفيف إلى صوابها.

أريد أن أشير هنا إلى أن الضرب (وإن أباحه الله تعالى)، إلا أنه لغير الخيار من الأزواج، فلقد جاءت بعض النساء يشتكين إلى النبي ﷺ ضرب أزواجهن لهن، فصعد النبي ﷺ المنبر، وقال: **(لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن يشتكين الضرب، وايم الله لا تجدون أولئك خياركم)** 2.

(1) سورة النساء: الآية (34).

نشوز الزوج:

هـذا يتعلـق بالزوجـة الناشـز. ولكـن، **مـاذا تفعـل الزوجـة التي نشـز زوجها وتمـرّد واسـتبدّ وطغى؟!**

هـل لهـا أن تسـتخدم نفـس الوسـائل الـواردة في الآيـة الكريمـة: الوعـظ ثـم الهجـر ثـم الـضرب غـير المـبرح؟!

عندمـا نتأمـل مـراد الـشرع مـن إباحـة اسـتخدام الـزوج لهـذه الطـرق بغيـة ردع زوجتـه وإعادتهـا إلى جـادة الصـواب، نـدرك أن الهـدف مـن ذلـك هـو صـلاح حـال الأسرة والحيلولـة دون وقـوع الطـلاق، وهـذا الهـدف لا يمكـن تحقيقـه لـو مُنحـت الزوجـة نفس الوسـائل لمعالجة نشـوز الـزوج، بل العكـس صحيح، إذ ربـما يعمل ذلك عـلى زيـادة الشـقاق، ويسـرّع في إيقـاع الـزوج الطـلاق عـلى زوجتـه، نظـراً إلى النزعـة الذكوريـة التـي فطـر عليهـا، والتـي تأبى صـدور مثـل تلك التصرفـات مـن زوجته..

ولذلـك كان للزوجـة أن تعالـج نشـوز زوجهـا بالحسـنى، وإن لم يفـد ذلـك معـه، كان لهـا أن توسّـط أهـل الخير مـن المعـارف والأقارب، ليسـاعدوها عـلى ردعه وإعادتـه إلى جـادة الصـواب، فإن لم يفدهـا ذلك، فإن لهـا أن ترفع أمرهـا إلى القاضي، الـذي يأمـر بدوره بتشـكيل محكمـة صغرى مؤلّفـة من بعـض أهل الـزوج والزوجة، مهمتهـا دراسـة مشـاكلهما ووضـع الحلـول المناسـبة لهـا، وفي هذا يقـول تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1].

الحلول السلميّة:

وعندمـا نقـول: عـلى الـزوج أو الزوجـة أن يبـدأ بالحلـول السـلمية، المتمثلـة بالوعـظ، فـإن هذا يعنـي أن بأيديهما طرقـاً كثيرة تندرج تحـت هذا البنـد، فالمجاملة الحسـنة، والكلمـة الطيبـة، وتمثيـل المحبـة والمـودة، وتنـازل الطرفـين عـن بعـض

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، عن إياس رضي الله عنه، باب الهدى، رقم 4263. وصححه الألباني.

الطباع والمتطلبات، والصبر على شيء من طباع الآخر، كل هذا من الموعظة الحسنة التي تفيد غالباً في ردع الطرف الناشز وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

عادات الجاهلية:

ولكن المشكلة أن الزوج غالباً يرفض التنازل، ويأبى الطرق السلمية، ويطلب إلى الزوجة أن تتنازل هي وأن تصبر، بينما يصّر هو على موقفه، لأنه (حسب رأيه) لا يقول إلا الصحيح، ولا يفعل إلا السليم.

والحقيقة أن هذا هو عناد الرجل الذي حُشي عقله بعادات وتقاليد تمنعه من تقديم التنازلات والتفاوضات، لأن التنازل (بحسب تلك التقاليد) يقلّل هيبته ويضعف كرامته وسطوته.

أقول: **هذه العادات بعيدة كل البعد عن تعاليم النبي ﷺ في إيصائه بحسن معاملة الزوجة، ومن هذا قوله: (استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عَوانٍ عندكم)**[1]. والعاني هو: الأسير، شبّهت به الزوجة لضعفها.

جرّبي جميع الطرق والوسائل:

ومع هذا كله، فإن الزوجة الذكية هي من تستطيع تطويع زوجها المستبدّ، وترويضه بصبرها وتحمّلها وابتسامتها وتقديمها للتنازلات عن رغبة وطواعية ورحابة صدر.

وهذا بالطبع يختلف من زوجة إلى أخرى، ومن زوج إلى آخر، فالدواء الذي يصلح لعلاج مشاكل مستعصية بين زوجين، قد لا يصلح لزوجين آخرين.

على الزوجة أن تجرب جميع الأدوية المتوفرة في صيدلية عقلها وقلبها وتجاربها، تبدأ بهذه التجربة من الأدنى إلى الأعلى فالأعلى:

اللين والصفح والحب هي أول جرعة، فإن لم يتجاوب الزوج رغم تكرار الزوجة لهذه التجربة مرات عديدة، فلا بأس من تجريب جرعة جديدة مزوّدة

(1) (1) سورة النساء: الآية 35.

بقليل من **الحزم والشدة**، وربما **بردّ الإساءة بمثلها**، في محاولة منها لإشعار زوجها بأنها قادرة على ردّ الإساءة بمثلها، وأنَّ تسامحها معه فيما مضى ومحاولتها التقرّب منه والتحبب إليه رغم جفوته وقسوته، لم يكن عن ضعف منها، بل هو عفو وصفح وغفران، وأن هدفها من ذلك المحافظة على العلاقة الزوجية وتجنّب دمارها..

وقد يكون مفيداً أيضاً أن ترفق الزوجة جرعة الحزم هذه بعبارات، تُعلم فيها زوجها **أنها تحبه**، وأن حبها له هو الدافع الأول لحرصها عليه وعلى العلاقة الزوجية معه..

إن كرِه منها خلقاً رضي منها أخر:

هناك مشكلة أخرى قد يواجهها الزوجان، وهو حدوث جفوة عاطفية بينهما، فيشعر كل طرف فيهما أنه لا يحب الآخر، وأن استمرار العلاقة بينهما مستحيلة بسبب ذلك.

يجيب القرآن الكريم عن هذا فيقول:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

ويقول النبي ﷺ: (**لا يفرَك (يبغض) مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر**[2]).

فبرود الحب والعلاقة العاطفية بين الطرفين لا تستلزم الانفصال والطلاق، إذا أمكن للزوجين أن يتمسّكا بالمعاشرة الطيبة، وما يتبعها من الإلفة التي تتجذّر في النفس مع طول تلك العشرة، وقد دل الحديث الشريف الطرفين إلى كيفية الوصول

---

(1) رواه الترمذي عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه، في كتاب الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها (1163). وصححه الألباني.

(2) (1) سورة النساء: الآية: 19.

إلى هذه العشرة الحسنة بقوله ﷺ: إن كره منها خلقاً رضي منها آخر، **ويكون ذلك بمحاولة كل واحد من الزوجين أن يرى المحاسن الموجودة في شريكه**، ففي ذلك عون له على إتمام المعاشرة الحسنة، الممزوجة بالعدل والمرحمة والرأفة..

أضف إلى ذلك أن الآية الشريفة تذكِّر هذين الزوجين بأهمية الصبر على ما ابتلاهما الله تعالى به: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]، والخير الكثير هنا قد يكون تكفيرَ سيئات الزوجين الصابرين، وقد يكون رفعَ درجاتهما في الجنة، أو رفعَ بلاءٍ مكتوب على الأسرة.

ليست كل البيوت تبنى على الحب:

جاء رجلٌ مغضباً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يريد طلاق زوجته لأنه استحلفها بالله تعالى: هل تحبه؟! فقالت: أما وقد استحلفتني بالله تعالى، فإني لا أحبك!

فقال له عمر: يا أخي.. ليست كل البيوت تبنى على الحب.

فرغم أن الحب بين الزوجين مقصد سام وأمرٌ مهم، يعين على توطيد العلاقة الزوجية، إلا أنه يظل جزءاً واحداً من جملة روابط أخرى، وفرعاً واحداً من عدّة فروع، ولا يمكن للجزء أن يصبح كلاً، ولا للفرع أن يصبح أصلاً..

ففقدان جزء بسيط من أحد أرجل الطاولة قد يفقدها شيئاً من توازنها، ولكنها مع هذا يمكنها الاستمرار بأداء وظيفتها، ولكن فقدان إحدى الأرجل بكاملها يعيق الطاولة عن أداء مهمتها وإتمام وظيفتها..

كثيراً ما نرى زوجين اختارا بعضهما بعد علاقة حب طويلة، انتهت بالزواج، ومع ذلك كان مصيرها الطلاق.

ورغم ما للحب بين الزوجين من أهمية، إلا أن العشرة الحسنة والمرحمة والسكينة النفسية المتلازمة بينهما أهمّ بكثير من الحب بمفرده..

---

(1) روا مسلم عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب الرضاع، باب: الوصية بالنساء (1469).

الكراهية الزوجية:

وهنا سؤال: **ماذا يفعل الزوجان حين تتحوّل العلاقة بينهما إلى كراهية حقيقة، يستحيل معها على أي منهما رؤية أيّ حسنة في الطرف الآخر؟!**

أقول: في هذه الحالة ليس أمامهما إلا الطلاق الذي أباحه الله تعالى، عملاً بمبدأ (اختيار أهون الضررين)، و(إذا اجتمعت مفسدتان، ارتُكب أخفّهما ضرراً).

إذ في هذه الحالة تنقلب الحياة الزوجية إلى جحيم حقيقي، لا ينطفئ لهيبه ولا تخمد ناره، ولا يقتصر ضرر هذا اللهيب على الزوجين، بل يعمّ أولادهما وأقاربهما، وأحياناً يتعدى ذلك إلى المجتمع أيضاً.

ورد في هذا أن زوجة ثابت بن قيس أتت إلى النبي ﷺ تشتكي كرهها له، وتخاف أن تكون ممن يكفرن العشير، حين تقصّر في أداء حقوقه بسبب بغضها الشديد له، فقالت: يا رسول الله، إني لا أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام.

فقال ﷺ: (**أتردّين عليه حديقته؟**) قالت: نعم. فقال ﷺ لثابت: (**اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة**)[1].

وأقول هنا: وصول كراهية الزوجين أحدهما للآخر إلى هذه المرحلة المستفحلة، التي لا ينفع معها علاج نادر جداً بين الحالات التي يقع فيها الطلاق، والتي تكون فيها الأسباب غالباً واهنة ضعيفة، يمكن تداركها وعلاجها، ولكن التهاون من الطرفين والاستعجال وفقدان الصبر هو الذي يؤدي إلى وقوع الطلاق..

وبعد الطلاق يكتشف الطرفان أو أحدهما أن الحل لم يكن في الطلاق، ولكن يأتي هذا الاكتشاف متأخراً في وقتٍ لا يفيد فيه ولا ينفع.

---

(1) سورة النساء: الآية: (19).

إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما:

يخطر لنا هنا أن نتساءل عن موقف الأهل من المشاكل التي تواجه ابنهم أو ابنتهم: ماذا يجب أن يكون؟! الاحتواء؟! التشجيع؟! التخلي؟! أم ماذا؟!

القرآن الكريم يوجه الأهل إلى محاولة الإصلاح وردم الهوّة ورأب الصدع، فالله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1]

والمسلم مطالبٌ بقول الحق ولو على نفسه أو أحب الناس إليه، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2].

و لكن كثيراً من الأهل اليوم يحاربون الحق، ويقفون مع ولدهم أو ابنتهم في صفٍّ واحد، بغضّ النظر عن النتائج، وبغض النظر أيضاً عن الحق والعدل..

و كأنما هي مباراة لكرة القدم أو شدّ الحبل، والشاطر من الطرفين من يستطيع جذب الحبل إلى صالحه..

واجب الأهل هو أن يصلحوا بين الزوجين، ويحموا الأسرة من الانهيار، وأن يلعبوا دوراً حكيماً وخيِّراً يبلسم الجراح ويشفي القروح، فإن استحال الاستمرار أو تعذَّر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان..

ما أحلى الرجوع إليه:

قبل الختام أريد أن أروي لكم قرائي الأعزاء القصة التالية:

إثر مشاكل كثيرة بين ريما وحسن، رمى عليها يمين الطلاق.

بعد أن هدأت أعصابه، وسكنت نفسه، تراجع حسن عن قراره، وتوجه إلى زوجته، فطرق باب أهلها طرقات خجولة..

---

(1) رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في كتاب: الطلاق، باب: الخلع وكيف الطلاق فيه (5273).

(2) سورة النساء: الآية 35.

فتحت الباب وسألته وهي مقطبة الجبين: ماذا تريد؟!

أجابها: أنا... أنا أحبك يا ريما.

نظرت إليه نظرة عتاب ومحبة، ودندنت بصوتها الشجي:

أيظـــنّ أني لعبـــةٌ بيديـــهِ؟! أنـــا لا أفكّـــر بالرجـــوع إليهِ

اليوم عاد.. كأنّ شـــيئاً لم يكن وبـــراءة الأطفـــال في عينيـــهِ

ليقـــول لي: إني رفيقـــة دربـــهِ وبأنني الحـــبُّ الوحيـــد لديهِ

حمل الزهـــور إليّ.. كيف أردّهُ وصبايَ مرســـومٌ على شـــفتيهِ

ما عدتُ أذكر والحرائقُ في دمي كيف التجـــأتُ أنـــا إلى زنديهِ

خبّـــأتُ رأسي عنـــدهُ وكأنني وبدون أن أدري تركتُ له يدي

طفـــلٌ أعـــادوهُ إلى أبويـــهِ لتنـــام كالعصفور بـــين يديهِ

حتى فســـاتيني التـــي أهملتُها فرحت به.. رقصت عـــلى قدميهِ!

ونســـيتُ حقدي كله في لحظةٍ! من قال إني قـــد حقدتُ عليهِ؟؟

كم قلـــتُ: إني غير عائـــدةٍ لهُ ورجعتُ.. ما أحـــلى الرجوع إليهِ

ما أحلى الرجوع إليهِ

* * *

مع هذه المقطوعة الشعرية الجميلة أنهي هذا الجزء الثالث من هذه (**الهمسات**)، التي نثرتُها على الجمهور الكريم من خلال قناة الرسالة الفضائية، وأنا سعيدةٌ لأنّ الله وفّقني لتخصيص هذا الجزء للحديث عن:

(فنّ التواصل الزوجي).

أرجو من الله الثواب، وأرجو الدعاء من كل من انتفع بكلمةٍ أو فكرة منه، والله المستعان، وهو من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتورة لينة الحمصي

فهرس المحتويات

الإهداء 5
شكر وتقدير 6
مقدمة 7
فاظفَرْ بذاتِ الدِّين 11
العَريسْ عَ الباب 23
كِيلو ذَهبْ وعُرس مطَنْطَنْ 35
فترةُ الخُطوبة تعارفٌ جميل.. أم خِداعٌ وتَمثيل! 47
شهرُ العَسل وشهرُ البصَل 61
العينُ بالعينِ.. والبادئُ أَظلَم! 69
أَسعِدي زوجكِ.. واسعَدِي معَه 79
أَسعِدْ زوجَتَكَ واسْعَدْ معها 89
عمِّي العزيزْ.. حمَاتي الغَالِيَة 99
الطَّريق القَريب إلى قَلبِ الحَبيب 111
صُعوباتٌ وأَشْوَاك 129
العَينُ بصيرَة.. واليدُ قصيرَة 141
سَاعةُ دَردَشَة 155
الغَيرة.. قنبلةُ الزّواج الموقُوتَة 171
يا سِيدِي أمرَك.. أمرَك يا سِيدِي 183
قِوامةٌ أم استبدَاد؟! 193
الزواجُ ليسَ 912
مقبرةَ الأحلَام 219
الطَّلَاقُ أبغضُ الحَلالِ إِلَى الله 241